

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



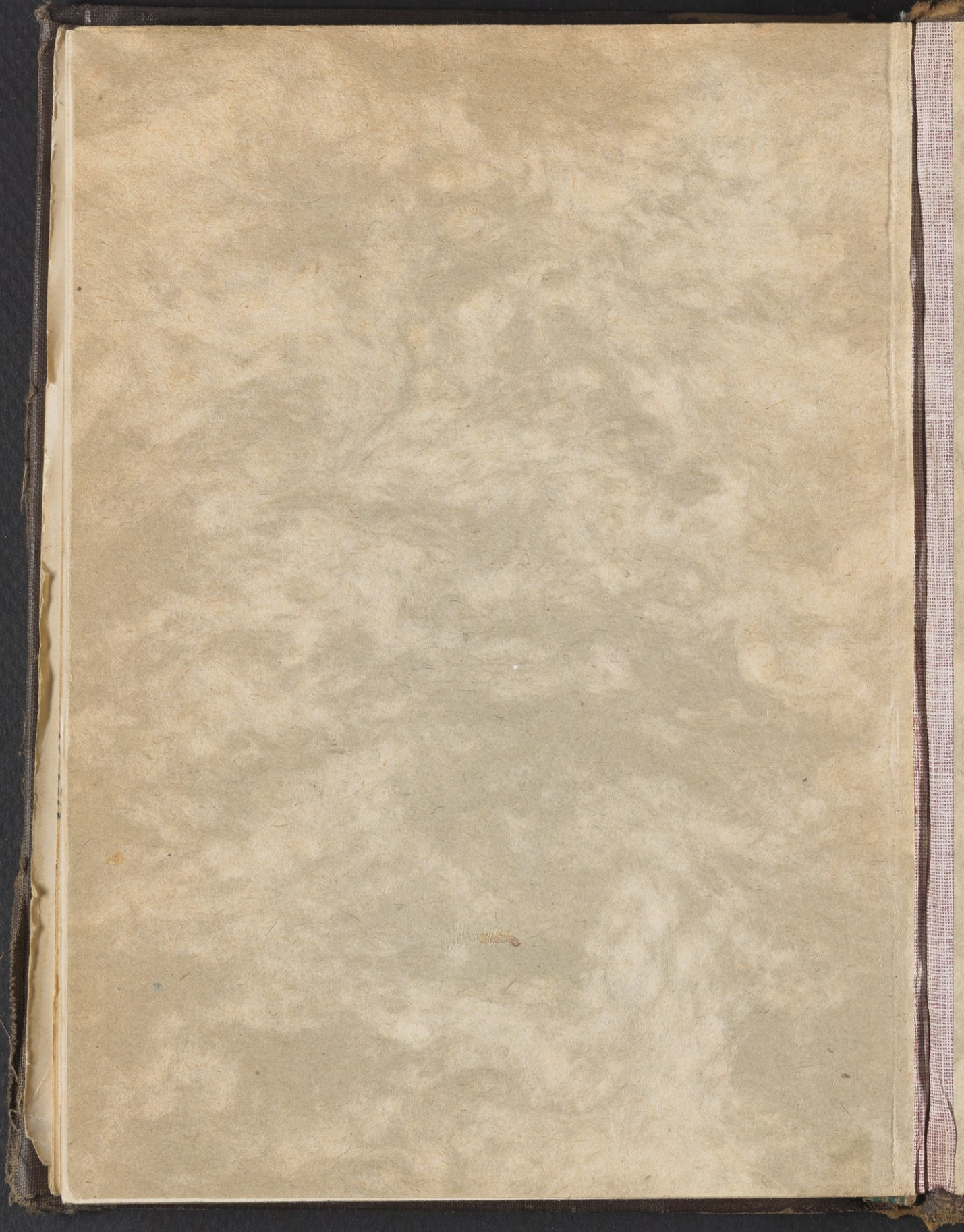
3 8534 01009 2074

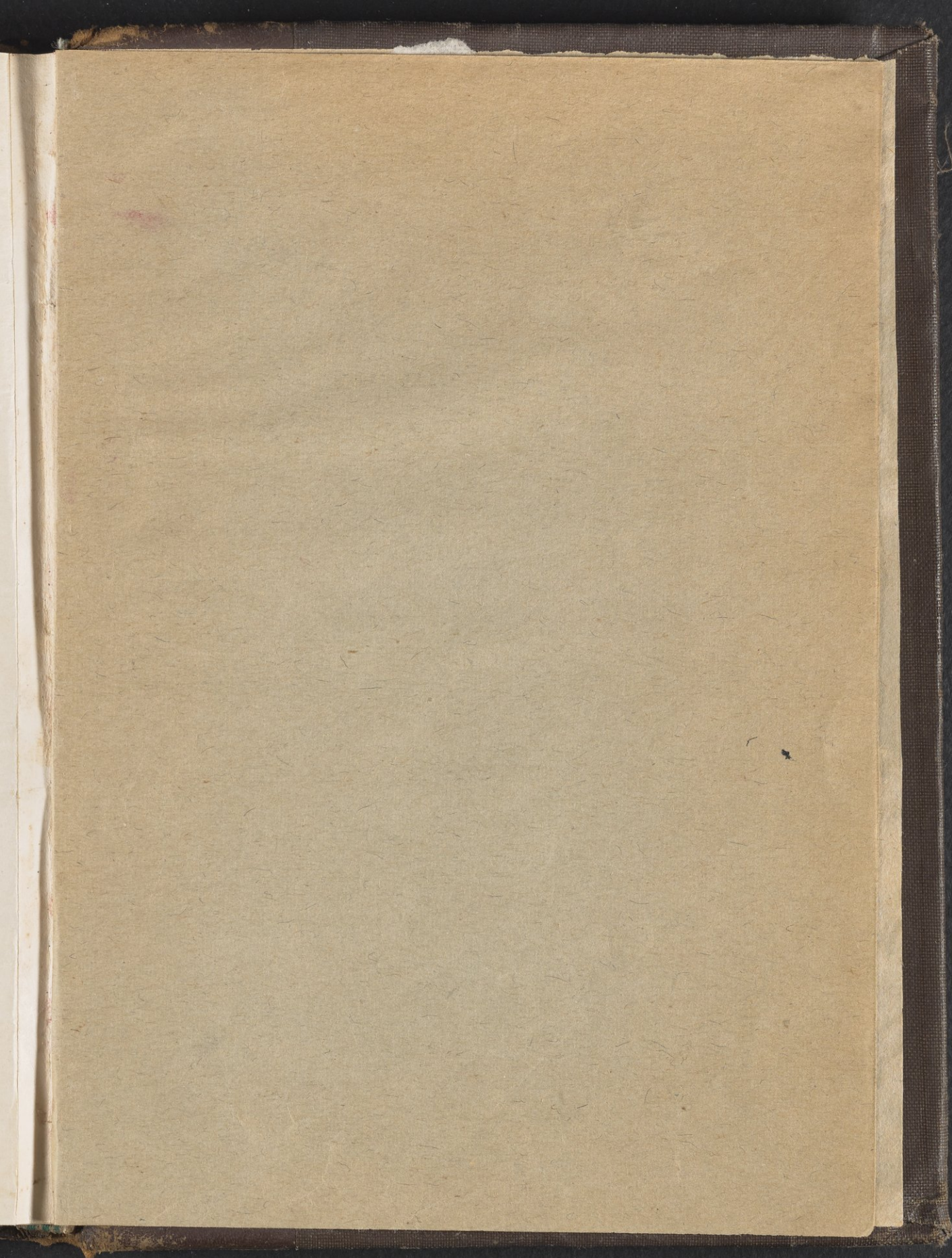
86-B3192

msA 12006

Library of
The American University
at Cairo







مختارات المنفلوطي

PJ
7601
M3
1954

بانت جمعته المرحوم

مصطفى لطفى المنفلوطي

المكتبة التجارية الكبرى شارع محمد علي ١٧٢

مصر
اصحابها: مصطفى محمد

الطبعة الرابعة

مطبعة السَّيَّارَة بمصر

١٣٧٣ - ١٩٥٤

OCLC
318939174

892.72
M3/S
C-2

B12465409
13822482

٨١٠

منقول في تحت

هدية الكتاب

إلى سعادة الأستاذ السيد علي يوسف

كان للانشاء في مصر ديوان أنت رئيسه والكتاب جميعاً عماله .
فأما وقد أعتزلته فائذن لأحد عمال ديوانك أن يقدم إليك كتابه
هذا تذكار وداع تحفظ له ماضى إخلاصه لك ويحفظ لك فيه سالف
أياديك عنده ، وسلام على عهدك الزاهر وتاريخك الطاهر .
مصطفى اطفى المنلوطنى

تحريراً في ١٥ مارس سنة ١٩١٢

36325

مقدمة الكتاب

بسم الرحمن الرحيم

أحمد الله على آلائه وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وصحبه وآله .
وبعد فقد عرفت حاجتك يا بني أعزك الله إلى كتاب يجمع لك من جيد
منظوم العرب ومنشورها في حاضرها وماضيها وفي كل فن وغرض
من فنونها وأغراضها ما تستعين باستظهاره أو ترديد النظر فيه على تهذيب
بيانك وتقويم لسانك وعلمت أنك لن تستطيع أن تجد طلبتك هذه
في مختار من مختارات المتقدمين . ولاني مجموعة من مجموعات المعاصرين
أما المتقدمون فهم بين نحوي لا يعجبه من الكلام إلا ما يجد فيه مذاق
شواهد العلم الذي يعالجه ولا تسكن نفسه إلا إلى البيت الذي فيه عقدة
يتفصح بجلها أو خطأة يتفكك بتأويلها أو نادرة من نواذر الإعراب والبناء
يؤيد بها رأياً أو يساجل بها خصماً . ولغوى مولع بما يشتمل على
الغريب النادر من مفردات اللغة وتراكيبها فلا يكاد يعدل بشعر الجاهلية
وما جرى مجراه شعر طبقة من الطبقات ولا يرى غير كلامهم كلاماً
ولا مذهبهم مذهباً . وعصر الجاهلية على ما أعتقد هو عصر الطفولة
الشعرية أي أن الشعر كان فيه بسيطاً ساذجاً لم يهذب به العلم ولم تصقله

٥٥٨-٥٥٨

المجموعة

٥٥٨

الحضارة ولم تتصل به أشعة الخيال فتتير ظلمته . فهو وإن كان أصدق
الشعر وأجدره أن يكون صفة صحيحة لتاريخ عصره ولكن قلما
يستفيد شاعر الحضارة من أكثره أكثر من المادة اللغوية . وما الفرق
بين شعر الجاهلية وشعر طبقة المحدثين والمولدين من بعده إلا كالفرق
في الموسيقى بين نغمات الحداثة في أعقاب الإبل ونغمات الضاريين على
أوتار الأعواد والبرابط في عصر الحضارة الإسلامية . وعندي أن
النزعة التاريخية ساطت على نفوس المولعين بالشعر الجاهلي أكثر من
النزعة الفنية ، فمثلهم كمثل المولعين بالعادات الذين يؤثرون حجر
الفرانيت على حجر الماس ويعجبهم منظر هرم خوفو أكثر مما يعجبهم
منظر برج ايفل . وراوية همسه في حياته أن يدور بيده ليله ونهاره
في زوايا رأسه على عشر بيت لا يعرفه غيره منسوباً إلى قائل لا يعرف
نسبته إليه سواء ثم لا يبالي بعد ذلك أحسن أم أساء . فهو بالمؤرخ
أشبه منه بالأديب . وأديب جمع ما جمعه لعصر غير عصره وقوم
غير قومك وحال ومجتمع غير حالك ومجتمعك ، فإن أفادك قليله
لا ينفعك كثيره . وأحسب أن ما يتعلق من الشعر بالحماسة ووصف
الحروب وأسلحتها ودمائها وغبارها وأشلائها ووصف الإبل في مباركها
والشاء في حظائرهم والأبقار في مراتعها هو آخر ما يحتاج المتأدب
إلى النظر فيه في هذا العصر . وبين مطيل قد خلط جيمه برديته وغشه
بسمينه فلا تصل يدك إلى ما في منجمه من ذرات التبر حتى تنبش عنها
مالاً قبل لك باحتماله من حقائب الرمل . ومقصّر يختص بالاختيار

على

عصر آدون عصر أو فرداً دون فرد أو قوماً دون قوم أو باباً من أبواب البيان دون باب وهو يعلم أن المتأدب شاعر آ كان أو كاتباً لا يكمل أدبه ولا تصفو قريحته ولا تلمع صفحة بيانه ولا تنحل عقدة لسانه إلا إذا تمهل في روض البيان فاقتطف ألوان زهراته من أنواع شجراته . وأن الشاعر لا يغنيه المدح والهجاء ، عن البكاء والرثاء . ولا العتاب والودع عن التشبيه والوصف ولا البكاء على المنازل والديار وفراق الأحبة وموت الموتي عن البكاء على المجد الضائع . والملك الساقط . والغرض المطلوب . والشرف المطلوب كما لا يغنيه وصف السيف في رونقه وبهائه ، عن وصفه في حدته ومضائه . ولا وصف البدر في جماله ورؤائه ، عن وصفه في عزته وخيالاته . ولا تشبيه قوادم الحمامة عن تشبيه ذنب القطاة . ولا تصوير ذكاء الفيل عن تمثيل إحساس النملة ، وأن الكاتب لا يبلغ مرتبة البيان ولا يصل إلى منزلة القدرة على الإفصاح عن أغراضه ومراميه في جميع موافقه ومذاهبه حتى يأخذ بأزمة القول جميعاً ويشتمل على أساليب الكلام بأنواعه ويعلم أن الكتابة في العلم غير الكتابة في الأدب وأن للخطب أسلوباً غير أسلوب الكتب ، وأن لكل نوع من أنواع العلوم والفنون طريقاً في الكتابة خاصاً به لا يفارقه إلى غيره ولا يشركه فيه سواه ، وأن الانتقاد غير الهجاء والهجاء غير التهكم والتهكم غير التأنيب والتأنيب غير الإنذار والتهديد . وأما المعاصرون فهم إما تابع متأثر يعتمد في اختيار ما يختار على نباهة النابه وفي أطراح ما يطرح على خمول الخامل

ويعتبر التقدم في الزمن شافعاً يشفع إساءة المسىء والتأخر فيه ذنباً
يذهب بإحسان المحسن وإما خابط متقدم يعتمد في الاختيار على يده
لا على بصره فيأخذ من كل كتاب صفحة ومن كل ديوان ورقة ثم يعرض
على الأنظار كتاباً غريباً في اختلاف ألوانه وتزاييل أوصاله جامعاً
بين معلقة امرئ القيس وألفية ابن مالك في مكان ، وبين مقامات
البديع ومقالات صبيان المكاتب في مكان آخر . وإمام عالم أديب قد حال
بينه وبين انتفاع المتأدبين بعلمه وفضله وسلامة ذوقه وصفاء قريحته
أنه يبالغ في سوء الظن بأفهامهم ويذهب في تقدير مداركهم مذاهب
ما كان لمثله أن يذهب إلى مثلها فتراه يعتمد في اختيار ما يختار إلى ما يزعم
أنه هو القريب إلى أذهانهم اللاصق بعقولهم غير الملتوى عليهم
ولا المتعثر بهم فيتبدل كل التبذل ويُسف كل الإسفاف ويورد في كتابه
من قطع الشعر وجمل النثر ما يشبه أن يكون مادة للطفل في هجائه .
لا مادة للأديب في بيانه وسبيل كتب المختارات التي لا يراد منها غرس
ملكه البيان في نفس المتأدب غير سبيل من قواعد العلوم ومسائلها
في ذهن المتعلم . ولن تستقر ملكة البيان في النفس حتى يقف المتأدب
بطائفة من شريف القول منظومه ومنشوره وقوف المستشبت المستبصر
الذي يرى المعنى بعيداً فيمشي إليه أو نازحاً فيستدنيه أو محلقاً فيصعد
إليه أو متغلغلاً فيمشي في أحشائه حتى يصيب لبه ولا يزال يعالج ذلك
علاجاً شديداً ينضح له جبينه وتنبهر له أنفاسه حتى تتكيف ملكته
بالكيفية التي يريد لها . وما رأى هذه النكبة العامة التي أصابت

الناشئين في ملكاتهم الكتابية ومارزئوا به من نضوب مادتهم اللغوية والنزوع إلى تلك المنازع الأعجمية في التصور والتخيل إلا أثراً من آثار تلك المختارات التي يجمعها لهم الجامعون جمعاً محفوفاً بالحذر والاحتياط بل بما هو فوق ذلك من الخوف والوسواس فيستكثرون لهم من أبواب الحكم والأخلاق والمواعظ والزهد وأمثال ذلك مما لا يكاد يتراءى فيه قلب الشاعر ولا تتجلى فيه نفس الكاتب ويفرون الفرار كله من كل ما يتعلق بوصف جمال الطبيعة أو جمال الصناعة أو تصوير عواطف النفوس ووجداناتها في الخير والشر والعرف والنكر كأنما يحسبون أن كل بيت غزل بيت ربية وكل وصف خمر حانة شراب . وما سمعنا من قبل ولا نجسب أن سيمسح السامعون من بعد أن متأدباً أفسده ديوان غزل أو أغراه بالشراب وصف خمر لابل إنما يرد ذلك على من يرد عليه منهم من فساد الخلطاء أو ضلال المؤدبين .

أما الشعر المشتغل على وصف الجمال والنثر المتضمن تصوير دقائق المعاني النفسية والخواطر القلبية مادام بعيداً عن فاحش القول وهجره فهو أعون الذرائع على تنمية ملكة الفصاحة والبيان في نفس الناشئ . لذلك لم أرَ بدءاً من أن أستخير الله تعالى في أن أجمع لك يا بني في هذا السفر من جيد المنظوم والمنثور ما أعلم أنه الصق بك وأدنى إليك وأنفع لك في تثقيف عقلك وتقويم لسانك وتحليل ما أسارتته الأيام من العجمة في قلبك ولسانك فبرزت لك دوحة الأدب العربي هزة تناثرت فيها هذه الثمرات الناضجة التي تراها بين يديك ولم أترك من ورائي

في جميع ما تصفحته من دواوين الشعر ومجاميع الأدب وكتب المختارات
إلا ما كان رديئاً أو مشوباً بشيء من هجر القول ومعيبه أو بالغاً من
الشهرة والسيرورة منزلة لا يخطئها نظر الناظر أو واقعاً في منزلة بين
الجودة والرداءة . وقد جعلت قاعدتي في الاختيار جمال الأسلوب
أولاً وجمال المعنى ثانياً فربما أختار ما حسن لفظه وتوسط معناه
وقد أختار ما توسط لفظه وسما معناه كما صنعت في بعض مختارات قسم
المشور من الباب الأول وهو باب الفصاحة والبيان ولكنني لا أختار
بحال ما كان معناه سامياً ونظمه فاسداً . أما الجيد فقاعدته عندي
ما يأتي « كل كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارئ وجد في نفسه
الأثر الذي أراده الكاتب منه على شرط ألا يجد فيه مَسْحَة تدل على
أن صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغاً فهو بليغ ، ولا اكتمك أني قد
استعجزت لنفسي ما استعجازه لأنفسهم المختارون قبلي فتصرفت في قليل
من المختارات بعض التصرف بالتقديم والتأخير والاختصار والإبدال
والحذف . ولقد لقيت في هذا السبيل وفي كل سبيل سالكته إلى جمع
هذه المختارات عناء كثيراً لا أسألك يا بني عليه أجراً إلا أن تلتصيح
بما أنصحك به في كلمتي هذه ، وهي أنك لن تستطيع أن تلتفع بهذه
المختارات إلا بشروط ثلاثة أولها . أن تملأ قلبك من الثقة بها والسكون
إليها حتى لا يصرفك عنها صارف ولا يخدعك عنها خادع . وثانيها أن
تقف بها وقوف الدارس المتعلم لا وقوف المتنزه المتفرج فلا يمنعك
فهم ما فهمته من معاودته وترديد النظر فيه حتى ترشف من الكأس

باب الفصاحة والبيان

قسم المنظوم

قوة الحجة

لأعرابي،

وداهية داهى بها القوم مفلق شديد بعوراء الكلام أزومها (١)
أصغنت لها حتى إذا ما وعيتُها رميت بأخرى يستدير أميمها (٢)
ترى التوم منها مطرقين كأنما تساقوا بكأس ما يبل سليمها (٣)
فلم ترني فهماً ولم ترَ حجتى ملجاجة أبهى لها من يقيمها (٤)

(١) عوراء الكلام : معيه ؛ والأزوم : العض . ولقد أنصف هذا الأعرابي خصمه فوصف حجته بالقوة إلا أنه شك منه مالا يزال يشكو منه الناس حتى اليوم وهو استعانة الخصم على خصمه في المناظرة بالهجو والعيب .

(٢) الأميم : المضروب على أم رأسه ، في هذا البيت أدب جميل من آداب المناظرة : وهو أن يصغى المناظر لأقوال مناظره حتى يستوعبها ثم يدلى بحجته .

(٣) بلّ : برىء . والسليم : اللديغ .

(٤) الفه والفهيه : العي .

تهذيب الشعر

لعدي بن الرقاع، (١)

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها (٢)
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منادها (٣)

وصف القلم

لأبي تمام، (٤)

لك القلم الأعلى الذي بشباته

تصاب من الأمر الكلي والمفاصل (٥)

(١) عدي بن الرقاع : أحد شعراء العصر الأموي معدود في الطبقة الثانية وإحسانه قليل ونسيبه الغاية في الإحسان .

(٢) السناد : كل عيب في القافية قبل الروى .

(٣) ثقف الرمح : قومه . وكعوب الرمح : عقده . والمناد : المنحنى .

(٤) أبو تمام (ت ٢٣١ هـ) : هو حبيب بن أوس الطائي أحد شعراء

الطبقة الأولى معروف بحسن مرثيته وبديع وصفه وابتكار معانيه ، وعييه التكاف والافتتان بالصناعة اللفظية في أكثر شعره .

(٥) الشبابة : حد السيف ، يريد أن قلمه يصيب الغرض ويصادف المحز

- له الخلوات اللاء لولا نجيتها
 لما احتفلت للملك تلك المحافل (١)
 لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
 وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل (٢)
 له ريقه طل ولكن وقعها
 بآثاره فى الشرق والغرب وابل
 فصيح إذا استنطقته وهو راكب
 وأعجم إن خاطبته وهو راحل
 إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت
 عليه شعاب الفكر وهى حوافل (٣)
 أطاعته أطراف القنا وتقوضت
 لهجواه تقويض الخيام الجحافل (٤)
 إذا استغزر الذهن الذكى وأقبلت
 أعاليه فى القرطاس وهى أسافل (٥)

(١) النجى: المسارر ، والاحتفال : حسن القيام بالأمر .
 (٢) الأرى : العسل : واشتارته ، استخرجته ، والعواسل : التى تستخرج العسل
 (٣) الحوافل : الممثلة .
 (٤) تقوضت : انتقضت ، وتقويض الخيام : أى كتحقويض الخيام .
 (٥) الجحافل : فاعل تقوضت . (٥) استغزره : وجده غزيراً .

وقد رفدته الخنصران وسدّدت

ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل (١)

رأيت جليلا شأنه وهو مرهف

ضنى وسمينا خطبئه وهو ناحل

تهذيب الشعر

« للبحترى »، (٢)

حجج تحرس الألدّ بألفا ظفرادى كالجوهرى المعدود

ومعانٍ لو فضلتها القوافى هجنت شعر جرجول ولبد

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنّبن ظلمة التعقيد

وركن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد

كالعذارى غدون فى الحلل البين ضإذارحن فى الخطوط السود

(١) رفدته : أعانته ، وسدّدت : قومت . (٢) البحتري (ت ٣٨٣ هـ) : هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى ،

أفضل الشعراء حسن ديباجة وجمال أسلوب وأحسن ما يجيد فيه الوصف والوصف لب الشاعرية وجوهرها .

سحر البيان

« لأبي تمام ،

كشفت قناع الشعر عن حُرّ وجهه وطيرته عن وكره وهو واقع
بغرّ يراها من يراها بسمعِهِ ويدنو إليها ذوالحجاء وهو شاسع
يود ودادا أن أعضاء جسمِهِ إذا أنشدت شوقاً إليها مسامع

وصف قصيدة

« لابن الرومي ، (١)

نظم الفكرُ درّها غير مشقو ب إذا الدرّ شين بالتشبيب
لم يعبها سوى قواف تشاغلن عن المدح فيك بالتشبيب
يطرب السامعين أيسر ما فيها وإن أنشدت بلا تطريب
سوّدت فيك كل بيضاء تسوي—دأ تراه العيون كالتذهيب
لو يناغى بيانها العُجم يوماً عرّب العُجم أيما تعريب

(١) ابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ) : هو علي بن العباس أقدر الشعراء على

اختراع المعاني الغريبة والافتتان فيها ، وله في باب الهجاء قذع وإيلام وتزل
إلى هجر القول أحياناً ؛ وعييه أن في كثير من شعره ركة وتكلفاً وأن في
بعض قلقاً واضطراباً .

مسيرة الشعر

« للمتنبي (١) »

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مفرداً
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما بشعري أتاك المادحون مردداً

سهولة الشعر

« لبشار بن برد (٢) »

عميت جنيناً والذكاء من العمى فحيت عجيب الظن للعلم موئلاً
وغاض ضياء العين للعلم رافداً لقلب إذا ما ضيع الناس حصلاً
وشعر كزهر الروض لاءمت بينه بقول إذا ما أحن الشعر أسهلاً

(١) المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور ، يعلو فلا يجاريه مجار ثم ينحط أحياناً فلا يساوي أصغر شاعر فإذا أسقطنا رديته رأينا أنه أشعر الشعراء أولاً وأخيراً وأقدرهم على الإلباس أدق المعاني وأتمنها أجل الأثواب وأبدعها .

(٢) بشار بن برد (ت ١٦٢ هـ) : شاعر جزل فخم محكم الأسلوب بديع الافتتان مجيد في كل نوع من أنواع الكلام وهو أول من نقل الشعر من البداوة إلى الحضارة .

شعر فيكتور هو جو

« لحافظ إبراهيم، (١) »

ما ثغور الزهر في أكامها ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمي فيها لؤلؤا كشنايا الغيد أو كالحبيب
عند من يقضى بأبهى منظراً من معانيه التي تلعب بي
بسمت للذهن فاستهوت نهى مغرم الفضل وصب الأدب

كانه لعلنا نلها بغير شغف
كأنهم نلنا وسنله لنا بلفظ
كانوا يمشون في الدار بالحق
يطلبون السامع من أسر فليست بها وإن التفت بلا طرب
يدلنا نيلنا من بغيره أبلغاً وأعمقاً (١٠٥٧) (١)

(١) حافظ إبراهيم : شاعر من شعراء الطبقة الأولى وكاتب من أوائل
الكتاب وله في باب الاجتماع ما لا يلحقه فيه لا حق وشعره سائر في جميع
الأقطار العربية، ويمتاز باقتداره على الجمع بين السلامة والرقّة والجزالة والفخامة،
وهو أحد الذين أحيوا موات اللغة العربية باستعمال غرائب مفرداتها ونادر
تراكيها في شعره ونثره، ولا أعرف بين أدباء العصر أصح منه ذوقاً في التمييز بين
جيد الكلام ورديته .

ديوان الفريدي موسىه

« خليل مطران » (١)

وهي أبيات كتبها إلى فتاة متأدبة أهدي إليها هذا الديوان :

عاش هذا الفتى محباً شقيماً وقضى عمره محباً شقيماً
وبكى دمع عينه في سطور جعلته على المدى مبكياً
منشد للغرام لم يشد إلا كان إنشاده نواحاً شجياً
شاعر كان عمره بب تشبيـب وكان الأنين فيه الرويا

(١) خليل مطران: شاعر راق الحيال بديع التصوير يجيد في كل شيء حتى في

المدائح النبوية التي هي أبعد المعاني عن ذهنه وكاتب لا أعرف له شبهة في القدرة
على تصوير جزئيات المعاني وأدق ما في أعماق القلوب إلا أن اضطراره ببعض
اللغات الأجنبية وحرصه على المعنى قبل كل شيء يزعج ديباجته أحياناً عن
الأسلوب العربي والمنهج المطبوع فهو في المتأخرين أشبه بابن الرومي في المتقدمين .

قسم المنشور

صناعة الإنشاء

« لابن المعتز » (١)

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ وأشرف حسباً وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة والتكلف والمعاناة ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً (٢) وخفيفاً على اللسان سهلاً وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه وإياك والتوعر فإن التوعر يُسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ (٣) معنى كريماً فيلمتس له لفظاً كريماً

(١) ابن المعتز (ت ١٨٣ هـ) : هو بشر بن المعتز أحد علماء الكلام ورئيس فرقة من المعتزلة تسمى باسمه وكان خطيباً مفوهاً وعالماً جليلاً .

(٢) القصد : المعتدل .

(٣) أراغ : طلب .

فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما
يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالاً منك
قبل أن تلتبس إظهارهما وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما
وكن في إحدى ثلاث منازل : أولاً أن يكون لفظك رقيقاً عذباً
ونحماً سهلاً ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً إما عند
الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة
أردت والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك
ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة وإنما الشرف مدار الشرف على
الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من
المقال فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف
مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها
الألفاظ الواسعة التي لا تلصّف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفء
فأنت البليغ التام ، فإن كانت المنزلة الأولى لانياتيك ولا تعثريك
ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك وتجد اللفظة لم توقع
موقعها ولم تصر إلى قرارها من أماكنها المقسومة لها والقافية لم تحل
في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نائرة من
موضعها فلا تُكرها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها
فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام
المنثور ولم يعبك بترك ذلك أحد وإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقاً
مطبوعاً ولا محكماً لسانك بصيراً بما عليك ومالك عابك من أنت أقل

غيباً منه ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصى عليك البيان بعد إجمالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودعه يياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هنالك طبيعة أو كنت جريت من الصناعة على عرق فإن تمنع عليك الأمر بعد ذلك فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة .

الإرتاج

« لأحد أمراء العباسيين ،

وقد صعد المنبر ليخطب فأرتج عليه فقال :

أما بعد فقد يجد المعسر ويعسر الموسر ويقل الحديد ويقطع الكليل وإنما الكلام بعد الإخام . كالإشراق بعد الإظلام . وقد يعزب البيان ويعتقم الصواب وإنما اللسان مضغة من الإنسان يفتقر بفتوره إذا نكل . ويشوب بانبساطه إذا ارتجل . ألا وإننا لا نتطق بطراً ، ولا نسكت حصرأ ، بل نسكت معتبرين . وندطق مرشدين ، ونحن بعد أمراء الكلام ، فينا وشجت عروقه وعلينا عطف أغصانه

ولنا تهدلت ثمراته فنتخير منه ما احلولى وعذب ونطرح منه ما املولح
وخبث ومن بعد مقامنا مقام ، وبعد أيامنا أيام . يعرف فيها فضل
البيان وفضل الخطاب ، والله أفضل مستعان .

فصاحه رسول الله صلى الله عليه وسلم

« للجاحظ ، (١) »

عاب النبي صلى الله عليه وسلم النشديق رجانب أصحاب التعجير
وأستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر
وهجر الغريب الوحشى ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن
ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة وشيد بالتأييد
ويسر بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة وغشاه بالقبول وجمع له
بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائه عن

(١) الجاحظ (ت ٢٥٤ هـ) : هو أبو عثمان عمرو بن بحر العالم المشهور

والكاتب القدير وله على جميع الكتاب قاطبة مزية الإحسان والعلو
فى كل موضوع يطرقه حتى فى المواضيع التى لم يألّف أدباء الكتاب
الكتابة فيها وربما كان كتابه الحيوان أبلغ كتبه وكان فى كتابته كثير
التوسع والاستطراد والخروج من غرض إلى غرض حتى يكاد يقع أحياناً
فى الغموض والإبهام .

إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلت به
قدم بل يُبذ الخُطْبَ الطوال بالكلام القصير ولا يلتبس إسكات
الخصم إلا بما يعرفه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج
إلا بالحق ولا يستعين بالخلافة ولا يستعمل المؤاربة ولا يهمز ولا يلزم
ولا يُبْطِى. ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر وما سمع كلاماً قط أعم
نفعاً ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً
ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً من كلامه صلى الله عليه وسلم .

فضل البيان

« للجاحظ أيضاً ،

أحسن الكلام ما كان قليله يضيئك عن كثيره وكان معناه في ظاهر
لفظه حتى يخيّل لك أن الله عزّ وجلّ ألبسه من الجلالة وغشاه من
نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله فإذا كان المعنى شريفاً
واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه منزهاً عن
الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة
الكرّمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها
على هذه الصفة أصبحها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع
من تعظيمها به صدور الجبارة ولا يذهل عن فهمها عقول الجّهلة .

مقامات الكلام

د لبعض الكتّاب المتقدمين ،

أوّل البلاغة اجتماع آلتها وذلك أن يكون الخطيبُ رابط الجأش
ساكن الجوارح قليل اللحظ متخَيّر اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام
الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون في قواه فضلٌ للتصرف في كل
طبقة ولا يُدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح
ولا يصفىها كل النصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى
يصادف حكماً أو فيلسوفاً عظيماً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم
بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم وأن تواتيه آلتهم وتتصرف
معه أداته ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً وفي حسن الظن بها مقتصداً
فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلماً فأودعها ذلة المظلومين
وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها أئمنها فأودعها تهاون الآمنين.

بعض الكتّاب المتقدمين : (٥٨٦ هـ) (١)

وقال بعضهم : لا ينبغي أن يكون الخطيبُ رابط الجأش ، ولا يصادف حكماً أو فيلسوفاً عظيماً ، ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفىها كل النصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكماً أو فيلسوفاً عظيماً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم وأن تواتيه آلتهم وتتصرف معه أداته ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً وفي حسن الظن بها مقتصداً فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلماً فأودعها ذلة المظلومين وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها أئمنها فأودعها تهاون الآمنين.

الأديب غير الكاتب

« للمبرد » (١)

لا أحتاج إلى وصف نفسي أعلم الناس بي أنه ليس أحد من الخافقين محتلج في نفسه مسألة مشكلة إلا لقيني بها وأعدني لها فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى على مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنشور والخطب والرسائل ولربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أموري فأتعبت نفسي يوما في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها كنت أحاول الإفصاح عما في ضميري فينصرف لساني إلى غيره فزيادة المنطق على الأدب خدعة وزيادة الأدب على المنطق هجنة .

(١) المبرد (ت ٢٨٥ هـ) : هو أبو العباس محمد بن زيد المبرد أحد أشياخ اللغة العربية في عصره . وكتابه السكامل أحد السكتب الأربعة التي عدت أمهات الأدب وكتابته في تأليفه في الطبقة الأولى من البلاغة إلا أنه كان لا يحسن اختيار الشعر ولعل ذلك كان لغلبة نزعة اللغة والرواية عليه .

الفصاحة في الأسلوب

د. أبي هلال العسكري، (١)

إنما يحسن الكلام بسلاسته وسهولته وفصاحته وتخيير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبيه إعجازه بهواديته وموافقة ماخره لمبادئه فتجد المنظوم مثل المنشور في سهولة مطالعه وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه . ومتى جمع الكلام بين العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة والرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف وبعد من سماجة التركيب ورَدَ على الفهم الثاقب فقبله ولم يرده . وعلى السمع المصيب فاستوعبه ولم يمجته . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ والفهم يأنس بالمعروف ويسكن إلى المألوف ويصنئ إلى الصواب ويهرب من المحال وليس الشأن في إيراد المعاني فالمعاني يعرفها العربي والعجمي والقروى والبدوى وإنما هو جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهاؤه ونزاهته ونقاؤه . وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً مستقيماً ، أما اللفظ فلا يقنع به قانع حتى يكون على ما وصفناه .

(١) أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) : هو أحد كبار علماء الأدب وصاحب كتاب للصناعتين الذي لم يؤلف في بابيه مثله وأسلوبه في كتابه هذا فصيح يدل على أدب جم وذوق سليم .

دعوى الأدب

« للآمدى » (١)

يظهر أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر لأننا نرى أن الذى يعلم منهم من العين والورق والرقيق والخيل والسلاح والبرز والطيب أكثر مما يعلم من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمة إياها فى المعرفة بتلك الأشياء لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحه سبيله واستدارة كفله وبريق شعره وحسن إشرافه وصحة قوائمه وسلامة أعضائه وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره وأصحابه البصر به ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه وصقاله وصفاء حديدته ولكنه لا يمضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاه ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزه وكثرة صورته وبديع نقوشه واختلاط ألوانه فلا يبادر إلى إعطائه ثمنه حتى يرجع

(١) الآمدى (ت ٣٧١ هـ) : هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى أحد نقدة الكلام المشهورين وكتابه « الموازنة » بين أبى تمام والبحترى من أفضل الكتب الأدبية فى دقة النظر وعلو الأسلوب وحسن الاعتدال .

إلى أهل العلم بجوهره وجودة رُقعته وصحة نسجه وخلاص إبريسمه
ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة في الشعر لأنه ربما سمع القصيدة
فأعجبه منها حسن وزنها أو دقة معانيها أو ما اشتملت عليه من مواظ
وآداب وحكم وأمثال فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى
من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه في مواضعها وغير
ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة ، وكما أنه قد
يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق
والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه
إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة ، وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال
سليمتين من كل عيب فيفترق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في
الثن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك
الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دريته وطول ملاسته . فكذلك
الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة
الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحداً وإيهما أجود في معناه إن
كان معناه مختلفاً وقد ذكر هذا المعنى بعينه محمد بن سلام الجمحي
وأبو علي دعبل بن علي الخزاعي في كتابيهما وحكي إسحق الموصلي
قال : قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي ، فقلت إن من
الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة . قال : وسألني محمد
الأمين عن شعرين متقاربين وقال اختر أحدهما فاخترت ، فقال : من
أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لا يمكنني

التبيين ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان ، وقيل خلف الأحمر إنك لا تزال ترد الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه ، فقال : إذا قال لك الصير في إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد . فمن سبيل من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملازمة له أن يقضى له العلم بالشعر والمعرفة بأغراضه وأن يسلم له الحكم فيه ويقبل منه ما يقوله ويعمل على تمثاله ولا ينازع في شيء من ذلك إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم فيها ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظراً في الخبرة وطول الدربة والملازمة ، وأعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذي تسأله وتلاحه ليس في وسعه أن يجعلك في العلم بالصناعة كمنفسه ولا يجد سبيلاً إلى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به ولا أن يأتبك في ذلك بعملة قاطعة ولا حجة باهرة ، وإن كان ما اعترضت فيه اعتراضاً صحيحاً وما سألت عنه سؤالاً مستقيماً . على أن العلم الذي لا يستقر في الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملازمة لا يمكن أن ينتقل إلى ذهن آخر بمجرد القول والصفة إلى إذا استطاع صاحب البصر آلاف السيوف أن يصف لك عشرة سيف مختلفات الأجناس والجواهر بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها في لحظة واحدة عالماً بكل علة محيطاً بكل حجة وهذا محال غير ممكن لأحد ولا مستطاع إلا لخالق الخلق وبارئ البشر ، وبعد فلعل الذي

غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك
خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء تتصفحها أحياناً
وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما
يتعلق بثياب بدنك وأثاث بيتك وطرق نفقتك لأننا نراك لا تبتاع
وشياً ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهماً بديناراً حتى ترجع
إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع
في مالك ، فكان خليقاً بك أن تسلم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع
في عقلك ومصيبة الغبن في العقل أكبر من مصيبة الغبن في المال .
أو لعل الذي غرك في ذلك أنك شارفت شيئاً من تقسيمات المنطق
وجميلا من الكلام والجدل أو علمت أبواباً من الحلال والحرام
أو حفظت صدرأ من اللغة أو أطلعت على بعض مقاييس العربية فظننت
أن كل ما لم تلاسه من العلوم ولم تزاوله يجرى ذلك الجرى وأنت متى
تعرضت له وأمرت قريحتك عليه نفذت فيه وكشفت عن معانيه ،
وفاتك أن العلم بجميع أنواعه لا يدركه طالبه إلا بالانقطاع إليه
والإكباب عليه والجد فيه والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ
وقد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع عليه جنس آخر
ويتعذر ، لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في
طاقته تعلمه ، فينبغي أصلحك الله أن تقف حيث وقف بك وتقنع
بما قسم لك ولا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك .

مناظرة

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحرى^(١)

« للآمدى أيضاً ،

(صاحب أبي تمام) كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحرى أشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ وعلى حذوه احتذى ومن معانيه استقى حتى قيل الطائى الأكبر والطائى الأصغر .

(صاحب البحرى) أما الصحبة له فما صحبه ولا تتلمذه ولا روى ذلك أحد عنه ولا نتلمه ولا رأى قط أنه محتاج إليه ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحرى بقصيدته التى أولها :

« أفاق صب من هوى فأفيقا »

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياناً كثيرة فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال أيها الأمير ما ظننت أن أحداً يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتى حتى اليوم ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فهت البحرى ورأى أبو تمام الإنكار

(١) الظاهر أن الآمدى فرض هذه المناظرة فرضاً ليمثل فيها رأى المتشيعين

لدينك الشاعرين .

في وجه أبي سعيد حينئذ قال له أبو تمام أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الإحسان كله وأقبل يقرّظه ويصف معانيه ويدكر محاسنه ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أبا تمام جدير به أن يستغنى عن أن يصحبه أو يتعلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أنني لا أنكر أنه استعار بعض معاني أبي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحتری من شعره وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحتری ولا يمانع أن يكون البحتری أشعر من أبي تمام فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه فما رأينا أن أحداً قال إن جميلاً أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

(صاحب أبي تمام) إن البحتری نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبي تمام فقال إن جيده خير من جيدي وجيد أبي تمام كثير .

(صاحب البحتری) إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحتری لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر وقد اجتمعنا نحن وأتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً

قيحاً وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط ومن لا يسقط ولا يسف (١)
أفضل من يسقط ويسف .

(صاحب أبي تمام) إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه
أولاً وإماماً متبوعاً وشهراً به حتى قيل هذا مذهب أبي تمام وطريقة
أبي تمام وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره وهي فضيلة عري عن
مثالها البحترى .

(صاحب البحترى) ليس الأمر على ما وصفت وليس أبو تمام
صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه بل سلك فيه سبيل
مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وأفرط في ذلك وأسرف حتى
زال عن النهج المعروف والسنن المألوف بل إن مسلماً غير مُبتدع له
ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع متفرقة في أشعار
المتقدمين فقصدها وأكثر في شعره منها ولكنه حرص على أن
يضعها في مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل إنه أول
من أفسد الشعر فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه وأحب أن
يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً
وعراً واستكره الألفاظ والمعاني استكراهاً ففسد شعره وذهبت
طلاوته ونشف ماؤه فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام

(١) أسف : انحط

لهذا المذهب وسبقه إليه وكل ما في المسألة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه وأكبر عيوبه . أما البحتري فإنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سبباً في إجماع الناس على امتحان شعره واستجادته وتداوله ، ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاعه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

(صاحب أبي تمام) إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه . (صاحب البحتري) لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب ، وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدراءهم بشعره حتى قال دعبل إن ثلث شعره محال (١) وثلثه مسروق وثلثه صالح ، وقال ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر ؛ وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام إن كان هذا شعر أفكلام العرب باطل ؛ وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دوّن له كبير شيء .

(١) المحال : الفاسد

(صاحب أبي تمام) إن دعبلًا كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يُقبل قولُ شاعر في شاعر ، وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لخرابة مذهبه ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطعن عليه ، ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

(صاحب البحتري) لا عيب على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة ، والعيب في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يحلها ابن الأعرابي وأمثاله من المصطلعين بالسليقة العربية .

(صاحب أبي تمام) إن العلم في شعر أبي تمام أظهر منه في شعر البحتري والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

(صاحب البحتري) كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمعي شاعراً عالماً ، وكان الكسائي كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء والتجويد في الشعر ليست علمه والعلم والشائع المشهور أن شعر العلماء دون الشعراء وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحتري فلم يقصد هذا ولا اعتمده ولا كان يعده فضيلة ولا يراه علماً ، بل كان يرى أنه شاعر لابد له أن يقرب شعره من فهم سامعه ، فلا يأتي بالغريب إلا أن يتفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه ، على أن هذا العلم الذي تؤثر به أبا تمام لم ينفعه فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

(صاحب أبي تمام) لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه ، وغير غريب على فكر نستج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما وكلد أن يلحقه الكلال في الأوقات والزلل في الأحيان بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهوه ويتجاوز له عن خطئه وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط الخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجرود الفضل بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم على تقصيرهم .

(صاحب البحتري) أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها

مفسداً أو محيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارةً قبيحة
أو مخطئاً المعنى بطلب الطباق والتجنيس أو مبهماً بسوء العبارة والتحقيق
حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

(صاحب أبي تمام) إنكم تنكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف
به البحتري نفسه فقد رثاه بعد موته رثاءً اعترف فيه له بالسبق وفضله
على شعراء عصره .

(صاحب البحتري) لم لا يفعل البحتري ذلك وقد كان هو وأبو تمام
صديقين متحابين ، وأخوين متصافيين ، يجمعهما الطلب والنسب
والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل
ويصفه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه على أن الميت خاصة يعطى
في تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .
(صاحب أبي تمام) كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا
ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله
وإذا كان جيده بهذه المسكاة وكان من الممكن إغفال رديته وإطراحه
كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره والبحتري
واحد منهم .

(صاحب البحتري) إنما صار جيدُ أبي تمام موصوفاً ومذكوراً
لندرته ووقوعه في تضاعف الردى فيكون له رونق وماء عند المقابلة
بينه وبين ما يليه وجيد البحتري كجيد أبي تمام إلا أنه يقع في جيد
مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

فتنة القول

« للجاحظ ،

قال بعض الربانيين (١) من الأدباء ، وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره النشادق والتعمق ويبغض الإغراق في القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان ، يحسن ما يسمع أنذرهم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ومنحه المتكلم قولاً متعشقاً صار في القلب أحلى وللصدر أملاً ، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحوّلت في العيون عن مقادير صورها وأرُبت على حقائق أقدارها بقدر ما زُيّنت وعلى حسب ما زخرفت والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوى ومدخل خدع الشيطان خفي .

فصاحة جعفر بن يحيى

« لبعض الكتاب المتقدمين ،

كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، والإفهام الذي يغني عن الإعادة ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عنها ، وما رأيت أحداً

(١) الرباني : العارف بالله ويطلق على الخبر . تمهيد : قال : رافعا (١)

لا يتحس ولا يتوقف ولا يتمايل ولا يتنحج ولا يتقرب لفظاً قد
استدعاه من بعد ولا يئتمس التخاص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه
ولا أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى .

حقيقة البيان

« لبعض الكتاب المتقدمين ،

إن المعاني القائمة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم والمختلجة
في صدورهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية
وبعيدة وحشوية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة .
لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى
شريكة والمعان له على أمره ولا على ما لا يبلغه من حاجات نفسه
إلا بغيره . وإنما تحيان تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم
إياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجلبها للعقل وتجعل
الخفى منها ظاهراً والغائب شاهداً والبعيد قريباً وهي التي تلخص
الملتبس وتحل المتعقد وتجعل المهمل مقيداً والمقيد مطلقاً والمجهول
معروفاً والوحشى مألوفاً والغفل (١) موسوماً ، وعلى قدر وضوح

(١) الغفل : مالا علامة فيه .

الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون ظهور المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع، والبيان اسم لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفرض السامع إلى حقيقته ويهجم على محصولة كائناً ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت ذلك فذلك هو البيان .

فصاحة القرآن

« للباقلاني، (١) »

إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم

(١) الباقلاني (ت ٣٠٤ هـ) : هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب، كان معروفاً بالجدل وقوة الحجة رسوخ القدم في علم الكلام والبراعة والتفوق في الفصاحة والبيان ومن قرأ كتابه إعجاز القرآن ظن أنه يقرأ أسلوب الأدباء المعريين لا المتكلمين والمعجيين .

وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل غير المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا فيطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلا في وزنه ، وذلك شبيهة بجملته الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له والقرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق فضلا عن أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكمة الكثيرة والتناسب في البلاغة والنشابة في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجاوز والتعسف ، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ، ذلك إلى ما تراه من أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف إليها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد

وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير
 ماثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ
 الكامل والشاعر المفلح والخليط المصقع يختلف على حسب اختلاف
 هذه الأمور ، فمن الشعراء من يجود في المدح ومنهم من يسبق في التقريظ
 دون التأيين ومنهم من يجود في التأيين دون التقريظ ومنهم من يُغرب
 في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف
 الروض أو وصف الخمر أو الغزل ، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر
 ويتداوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والناطقة
 إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، وهم قوم لا خلاف في تقدمهم في صنعة
 الشعر ولا شك في تميزهم في مذهب النظم ومتى تأملت شعر الشاعر
 البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها
 فيأتي بالغاية والبراعة في معنى فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه
 وبان الاختلاف في شعره ، ثم نجد في الشعراء من يجود في الرجز
 ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً ، ومنهم من ينظم القصيد ولكنه يقصر
 فيه مهما تكلفه أو تعلمه ، ونجد من الناس من يجود في الكلام المرسل
 فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاناً عجيباً . ومنهم من هو على الضد
 من ذلك . وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من
 الوجوه التي ذكرناها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف
 لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفال فيه إلى الرتبة
 الدنيا . وكذلك قد تأملنا ما تتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات

الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف
وهناك شيء آخر هو خير ما يؤتى به للدلالة على بلوغ الفصاحة في القرآن
منزلة الإعجاز وهو أن ورود تلك المعاني الغريبة التي يتضمنها في أصل
الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين
بهذه الأساليب البديعة وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما
يتعذر على العرب مجاراته فيه لأنها معانٍ غريبة غير مطروقة ، وقد علم
أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأحباب الدائرة بين الناس
أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مؤسسة
مستحدثة وبراعة اللفظ في المعنى البارع أعجب من براعته في المعنى
المتداول المتكرر ، وللقرآن مزية أخرى غير ما تقدم وهي أنه من المقرر
المعروف أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه
الكلمة في تضاعيف كلام أو تُقذف ما بين شعر فتأخذ الأسماع
وتتشوف إليه النفوس ويرى وجه رونقه بادياً غامراً سائر ما يقرن
به كالدرة التي ترى في سلك من خرز وكالياقوتة وسط العقد ، وأن ترى
الكلمة من القرآن يُتمثل بها تضاعيف كلام كثير فإذا هي غرة جميعه
وواسطة عقده والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله
وانفراده ، وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة
عليك في منظر بهيج ومعرض رقيق ونظم أنيق غير معاص على
الأسماع ولا ملتبس على الأفهام ولا مستكره في اللفظ يمر كما تمر السهم
ويضئ كما يضيئ الفجر ويؤخر كما يؤخر البحر طموح العباب جموح

على الطارق في المنتاب .. كالروح في البدن والنور المسيطر^(١) في الأفق
والغيث الشامل والضياء الباهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه تنزيل من حكيم حميد .

إعجاز القران

د للقاضي عياض،^(٢)

إن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها
من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه : أولها حسن تأليفه والتتام
كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب وذلك أنهم
كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم
بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان
ومن فصل الخطاب ما يقيد الأبواب جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقه ،

(١) المسيطر : المعتمد

(٢) القاضي عياض : هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى السبكي
نسبة إلى مدينة سبته — كان إماماً في الحديث والفقه وكتباً من أوائل
الكتاب ، وكتابه الشفاء في السيرة المحمدية لم يؤلف مثله في موضوعه
من حيث بلاغة عبارته وجمال أسلوبه

وفيه غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها في المقامات والخطب ، ويرتجزون بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال . ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب ويذلون الصعاب ويذهبون الإحن ، ويهيجون الدمن ويجرءون الجبان ، ويبسطون يد الجعد البنان ويصيرون الناقص كاملا ، ويتركون النبيه خاملا منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الروق الرقيق الحاشية لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم قدحوا وفنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها فقالوا فى الخطير والمهين ، وتفننوا فى الغث والسمين ، وتناولوا فى القل والكثير ، وتساجلوا فى النظم والنثر فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . أحكمت آياته ، وفصلت كلماته وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوث كل البيان بمجامعه وبدائعه واعتمد مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على

كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا ،
وأشهر في الخطابة رجالا ، وأكثر في الشعر والسجع ارتجالا ،
وأوسع في الغريب واللغة مقالا بلغتهم التي بها يتحاورون . ومنازعهم
التي عنها يناضلون . فما زال صارخاً بهم في كل حين . ومقرعاً لهم على
رؤوس الملاً أجمعين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله
وآدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

الشعراء المحدثون

قال ابن دريد : سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال : إن جداً حسن
وإن هزل ظرف وإن وصف بالغ ، يلقي الكلام على عواهنه لا يبالي
من أين أخذه . قلت : فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص مطيل مجيد
يصف ما لم ير كأنه رآه على أن في شعره خللاً كثيراً . قلت : فروان ابن
أبي حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه يستحسن كلما جاء منه معجب
لا يرى أن أحداً يتقدمه كثير الصواب كثير الخطأ ليس لشعره
صنعة . قلت : فسلم بن الوليد ؟ قال : خليج صاف ينزع من بحر كدر
كالزند يورى تارة ويصلد أخرى . قلت : فأبو العتاهية ؟ قال : غشاء (١)
جم واقتدار مهل وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزر جرد
قلت : فعباس بن الأحنف ؟ قال : يلقي دكوه في الدلاء فيخترق الصفو

(١) الغشاء : الزبد .

أحياناً والجمأة (١) أحياناً على أن كدره أكثر من صفوه . قلت : فسلم
 الخاسر ؟ قال : مقل مداح شعره ديباج وعين يموه الردىء حتى يشبه
 الجيد . قلت : فأبو الشيص ؟ قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدره
 التى نفضت ففهي المستعذب والمستبشع . قلت : فعلى بن جبلة ؟ قال : بحاث
 عن الكلام الفخم والمعنى الرائع لا ينال مرتبة القدماء ويحل عن منزلة
 النظراء . قلت : فأبو تمام ؟ قال : سليل كثير الغشاء غزير الخمار جم النطاف (٢)
 فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال . قلت : فعبد الصمد بن المعذل ؟
 قال : خراج ولاج يعتسف تارة ويهتدى أخرى . قلت : فعلى بن الجهم ؟ قال :
 كلام رصين ومسلك وعر عقله أغلب على شعره من طبعه . قلت :
 فبكر بن النطاح ؟ قال : تشبه بالأعراب فأفرط وتجاوز حد المولدين
 فأسهب فهو الساقط بين القرينتين .

(١) الجمأة : الطين الأسود

(٢) النطاف : الماء الصافي

مدحها : ولعنا (١)

نظرات المنفلوطي

• لأحمد لطفي بك السيد، (١)

يكتب الكاتبون عندنا وفي البلاد الأخرى فيقع بعضهم على بعض في كيفية استحضار الأفكار وضوح العبارات وفي الأسلوب الكتابي إلى حد يختلط فيه أمرهم وتفنى به شخصيتهم فلا تكاد تفرق بين أحدهم وبين الآخر إلا باختلاف الإسم. وهذا الصنف من الكتاب في كل أمة كثير، وكتاباتهم أكثر، ولكن الزمان نقاد غير متسامح لا يبقى في كفه من تلك الأسفار الكثيرة إلا القليل.

ومن الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشى في بيئة الكتاب. لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة. بل لا يكتب إلا إذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس في الثوب الذي يناسبها على تفصيل مودة الأذواق

(١) أحمد لطفي بك السيد: هو من أعلم الكتاب في هذه العصر بالأخلاق والاجتماع والحكمة، ومن أقدرهم على الحججة التي يشوبها كذب ولا تخيل، وله في كتابته صفة خاصة به، منشؤها أنه يصدر قما يكتب عن رأي نفسه، وقلمه أظهر الأفلام وأبعدها عن الهجر والعيب، ولو أمكن أن يخلق قلم كاتب من كل عيب لحق قلم لطفي السيد من الأساليب الأفرنجية التي يستعملها أحيانا

الحاضرة وحسبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار . وكتاب هذا الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل ، إلا أن كتاباتهم على قلتها هى المربى الوحيد للأمم والعلل الأولى التى تدفعها إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح . وهى خير اللغات وأبقاها .

من أشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطى ، أ كاد لأجدله فى طريقته مثيلاً بين كتابنا فإنه يمتاز بالمساواة وقل من يعرف المساواة ، يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى إلا لفظه الذى يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر ، يطرق الموضوعات الصعبة البعيدة فيقر بها من القارىء . ويجعله يظن أنها من مآلوفاته ولم تكن كذلك من قبل .

أقول من غير محاباة وفى يدى نظرات المنفلوطى : إن السيد مصطفى هو الثرة الناضجة للعصر الكتبى الحاضر جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب الأصيل فكان كتابه النظرات بذلك إحدى المعجزات عند من يظنون أن الغرب غرب والشرق شرق وأنهما لا يزالان كذلك مابقى البعد بين مصلع الشمس وبين مغربها .

أنصح للشبيبة أن تجعل نظرات السيد المنفلوطى كتاب مطالعتهم ، وأنصح للناشئة أن يحفظوا منه . ما استطاعوا ، فإن هذا الكتاب خير مرب للملكة الإنشاء .

الشعر

« لأحد الأدباء المعاصرين »

كتب إلى كاتب يقول : عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكتب فقره ،
ثم رأيناك بعد ذلك كاتباً ما تنظم شطرة ، فلم لم تكتب في عهدك الأول
ولم لم تشعر في عهدك الثاني ؟ كأنما ظن عافاه الله أنى أكتب اليوم
بقلم غير قلم الأمس ، أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادى وهل الشعر
إلا نثارة (١) من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعراً ، وينثرها الكاتب
إن شاء نثراً ؟ أو نغمة من نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أنفواه
البلابل والحنائم ، وأخرى من أوتار العيوان والمزاهر ، أو عالم من عوالم
الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين (٢) من عروض وقافية أو خافيتين (٣)
من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالى شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر
إلا ألوان وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض له من شؤونه وأطواره
ولا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا أن غريزة في النفس
أن يردد القائل ما يقول ويتخفى بما يردد ترويحاً عن نفسه وتطريباً
لعاطفته ما نظم ناظم شعراً . ولا روى عروضى بحراً .

(١) النثارة : ما تنثر من الشيء .

(٢) القادمتان : مفرد قوادم ، وهى عشر ريشات في مقدم جناح الطائر .

(٣) الخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه اخفت .

ما كان العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر ولا يعرف ما قوافيه
وأعاريضه ، وما علمه وزجافانه ، ولكنه سمع أصوات النواير
وحفيف أوراق الأشجار وخرير الماء وبكاء الحمام فلذ له صوت تلك
الطبيعة المترنمة ولذ له أن يبكي لبكائها ، وينشج لنشيجها ، وأن يكون
صداها الحاكي لرناتها ونفاتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم
منه إلا أنه ذلك الخيال الساري المتمثل في قريحته المتردد بين شذقيه ،
ولامن أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من صورته ولون من ألوانه .

ذلك منتهى نظر العربي إلى الشعر ، وذلك مادعاه إلى أن يسمى النبي الذي
بعثه الله إليه شاعراً ، وهو يعلم كما يعلم غيره من الناس أنه ما قصد
في حياته قصيدة ولا رجزاً أرجوزة ولكنه سمع من كتاب الله وآياته
المفصلات أبلغ الكلام وأفصح وأعلقه بالنفوس وأخذ بالألباب
وأملأه للعواطف والوجدانات وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة
والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة والكنائيات المتطرفة وأمثال
تيك مما لا ينطق به الناطق في أكثر منازعه ومناحيه إلا عند ذهابه
مذهب الخيال الشعري فشبه له فسمى ما سمعه شعراً وسمى الناطق به
شاعراً وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون .

ما كل موزون شعراً ، ولا كل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تتعلق
بالنفس من طول ترديد المنظوم والتفنى به مقطوعاً تقطيعاً رازن تفاعيله
فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغناء يتمثل في قول الملك

الضليل (١) * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * كما يتمثل في قول
الخليل * فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن * ويتراءى في أوتار الحلق
الناطق كما يتراءى في أوتار العود الصامت .

أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان وما النظم بالإضافة إليه
إلا كالخلي في جيد الغانية الحسنة ، أو الوشى في ثوب الديباج المعلم .
فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها والديباج لا يزرى به أنه غير معلم
كذلك الشعر لا يذهب بحسنه ورؤائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها أنت ترى أن لاصلة بينهما
إلا تلك الصلة الاصطلاحية التي لا سبب لها إلا اعتياد الناس أنهم ينظمون
ما يشعرون ، وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس
أمرهما وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً
رداءً واحداً لا يستطيع معه التمييز بينهما إلا القليل من الناقدين
المستبصرين ؛ فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة
بيت فلا نجد بيتاً ، وتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة
وأصبحنا لا نكاد نجد بيتاً قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد في الناس
شخص واحد يُعجزه تصور تلك النخمة العروضية وتصويرها حتى
العامة والأمين .

(١) هو لقب امرئ القيس .
(٢) هو لقب امرئ القيس .

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وافتنوا في ذلك افتنانا بعد به عن مكانه . وعندى أن أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير وميزان جودته ما يترك في النفس من من الأثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة خياله ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه وتصوير ما في نفسه للسامع تصويراً يكاد يراه بعينه ويلبسه ببنايه فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ويضحك لضحكه ويغضب لغضبه ويطرب لطربه ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال فيرى الطبيعة بأرضها وسماؤها وشموسها وأقمارها ورياضها وأزهارها وسهولها وجبالها وصادحها وباغمها (١) وناطقها وصامتها من حيث لا ينقل إلى ذلك قدماً ، ولا يلاقى في سبيله نصباً .

فإن سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألد من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية (٢) العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

(١) يقال بغم الغزال : إذا صوت بأرخم صوته ، فهو باغم .

(٢) الحالية : لابسة الحلى .

خيّل له أنه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره .
خطر أن النسيم بين ظلاله وأشجاره . وأنه يرى بعينه أولئك العذاري
الساكنات وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء
فتولهن وفزعن إلى جوانب عقودهن يلمسهن بأطراف بنانهم يحسبن
أن قد وهت فانتثرت جواهرها في ذلك الروض الأريض .

وإن سمع قول الآخر :

ودار ندأى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
حبست بها صحنى وجمعت شملهم وإنى على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية حبثها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهأ تدريها (١) بالقسى الفوارس
فالراح ما زرت عليه جيوبها وللهاء ما دارت عليه القلائس

تمثل له كأنه مر في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع
فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون (٢) ويتمرعون الكؤوس بأمثالها
فأقرب منها وأطل من خصاص (٣) بابها فرأى أولئك القوم مجتمعين

(١) ادري الصيد : ختله .

(٢) قصف : أقام في أكل وشرب ولهو .

(٣) الخصاص : كل خلل وخرق في باب أو غيره .

حول دَن من الخمر قد تكامل سنه وشيب الدهر فوديه (١) ففصدوه
فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة نقوشاً فارسية قد
استقرت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في باطنها صور
فرسانه متنكبى قسيهم كأنما يطاردون بقر الوحش أمامهم. ورآهم يملؤون
الكؤوس إلى ما يوازي أعناق تلك الفرسان ثم يمزجونها بالماء إلى
ما يخطى رؤوسهم. فتسأل من مكانه مغتبطاً بجمعهم وبما هيء لهم من
الهناء والنعمة فيه ثم مر بتلك الدار بعد أيام فرآها مقفرة من أهلها لا تسمع
بها نغمة ولا نائمة (٢) فدخلها فلم ير فيها إلا أعواد ريجان قد يبس
أكثرها مبعثرة في جوانبها وخطوطاً كانت رسمتها زقاق الخمر فوق
تربتها في غدوها ورواحها بين أولئك الندماء، فانصرف حزينا مكتئباً
يسمع صفير الريح الضارب في جوانبها فيردد قول القائل :

رُب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذلك الدهر حالا بعد حال
وإن سمع قول الآخر :

ويوم كنتور الإمام سجرته (٣) وأوقد فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى في أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

(١) الفودان : ناحيتا الرأس . (٢) النائمة : النعمة والصوت الضعيف .

(٣) سجر الرجل التنور : ملأه وقوداً . (٤) راحها : راحها .

شعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهب في وجهه فيشيع بوجهه عنه
فراراً من لفحاته ويكاد يبكي رحمةً لذلك الشبح المصهور الذي ملكته
عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله وحالت يده وبين نفسه فلا هو بصابر
إن رام صبراً ولا بناج إن أراد نجاة .

وإن سمع قول الآخر :

وارحمنا للغريب في البلد الناء زح ماذا بنفسه صنعاً
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعوا

هملت عيناه وجدا على ذلك الغريب الحائر، وتمنى أن لورآه في بعض
مناهبه فعطف عليه وآنس وحشته : وخفض لوعته . ثم أخذ بيده
فأنزله من نفسه منزلاً كريماً وأبدله أهلاً بأهل وجيراناً بجيران .

وإن سمع قول الآخر :

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيبي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
لا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
لهم جل مالي إن تتابع لي غني وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا
وإن لعبد الضيف مادام ثاوياً وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

أكبر تلك المكرمة العظيمة وأجلها ونظر إليها في علياء سمائها
كما ينظر الفلكي إلى كوكبه ، وشعر كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى
جوانب نفسه فأضاءها .

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ فلطالما كان للشعر
السلطان الأكبر على النفوس العظيمة فقد نكب الرشيد البرامكة عند
مادس له أعداؤهم ذلك المغنى الذى غناه هذا الصوت :
ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفقت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بنى أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل
عليه سديف مولاه وأغراه بهم فى قوله :

لا تُقيلنَّ عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة (١) وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإنعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءنى وساء سوائى قربهم من نمارق وكراسي
بل عطف عمر بن الخطاب على الحطيئة وأطلقه من سجنه حين
سمعه يقول :

(١) الرقلة : الفخلة الطويلة التى تفوت اليد .

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ضم الحواصل لأماء ولا شجر
ألقيت كأسهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه
في قتله أخاها النضر بن الحرث على رحمه منه واتصال نسبه به :

أحمد يا خير صنو كريمة في قومها والفحل فحل مُعرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفقى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال- وهو من لاطنة (١) في عدله ولا ريبة في حكمه-: لو سمعتها
قبل اليوم ما قتلته .

لا مؤثر في نفس الإنسان غير الشعر ، وما خضع الإنسان لشيء
في جميع أدوار حياته إلا للشعر ، وللشعر الفضل الأول في نبوغ
الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ من الكمال ، ولقد أحب الإنسان
الشعر ناطقاً وصامتاً ، أما الشعر الناطق فقد عرفته ، وأما الشعر
الصامت ، فهذه التماثيل التي يراد بنصبتها تمثيل حياة عظماء الرجال بعد
مئاتهم شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصور خواطر القلوب

(١) الظنة : الزهمة .

ووجداناتها فتحيج عاطفة الحب في العاشق وعاطفة الحماسة في نفس
الجندي شعر ، وهدير الأمواج شعر لأنه يمثل عظمة الجبارين ،
وظلام الليل شعر لأنه يطلق دموع الباكين ، وحفيف أوراق الأشجار
شعر لأنه يمثل المناجاة في مواقف العشاق ، وبكاء الحائم شعر لأنه يمثل
فجعة البين ولوعة الفراق .

تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة ، وفم الطبيعة
أخرى ، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة وألبستها ذلك الثوب الناعم
الأبيض من السعادة والهناء حتى أحببناها وولعنا بها وحرصنا عليها
وأعددنا العدد للبقاء فيها والسكون إليها فكتبنا ، ودونا وألفنا
واخترعنا وتعلمنا فعلينا ، وبنينا فشيئنا وغرسنا فجنينا ، وعملنا فربحنا ،
واجتهدنا فأثرينا ، وأملنا فسعيننا ، وسعيننا فبلغنا .

فكان الشعر سر هذه الحياة وعلة هذا الوجود ، لا تطير إلينا
الحقائق إلا على جناحه ولا يطيب لنا العيش إلا في جواره ، فلنمجد
الشعراء كل التمجيد . ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم مشارق شمس
الحكمة ، وأفلاك كواكب العلم والفضل ، وهم الينابيع الصافية التي
يتروقق ماؤها ثم يتسرب إلى الأفتدة والقلوب فيملؤها سعادة وهناء .

كلمة في التعريب^(١)

« لحافظ أفندي إبراهيم ،

هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد وضعه صاحبه وهو بئس ، وعربه معربه وهو بئس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرأة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه .

ولولا أنني أشرب بالكأس التي كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ على إلى مبلغ عليه ، ولما سبح يراعى في قطرة من سيول قلعه ، ولو أن لي قلماً من أعواد أشجار الجنة وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى وقد تلتقنتي البلاغة من كل جهة بفضلها فسموت إلى لباب مُصاصها^(٢) وأخذت منها حاجتي لما حدثتني النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا في الألم وتشابهنا في الشقاء فلقد كنت أنظر فيه نظر المنجم في الميقات ، واستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى إذا نفذ الفكر إلى ما وراء سطوراه واهتدى الخاطر إلى مكان حكمة

(١) هذه الكلمة هي مقدمة كتاب البؤساء .

(٢) مصاص الشيء : خالسه أو سره . (١)

دعوتُ إلى أم اللغات وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية ،
وتلك الفتاة الغربية ، وعمدت إلى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين
انتهت إليهما بلاغة العرب وبلاغة الإفرنج فإذا شمسست^(١) إحداهما
وأزور جانبها أغريت بها سلطان العقل فلا يزال بها يروضها كما يروض
الراكب الصعبة حتى تسكن إلى أختها وترتاح إلى جوارها . ولم تزل
تلك حالى أدخل بينهما دخول المروء بين الجفن والجفن وأمشى بينهما
مشية الحكيم في الصلح بين القوم والقوم ، حتى ائتلف الذوقان .
وامتزج الروحان ، وضمت شمسهما طفاوة^(٢) واحتوت بدوريهما هالة
وخلعت الأولى على الثانية جلالها وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ،
وأصبحت تلك المباني الأفرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين وجندرها
الذوق الشرقي وهى تسكن فى هذه المعانى العربية .

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم
وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر
الذى كنتُ بينا أراه يسابح الأجرام فى أفلاكها إذا هو يدارج النمال
فى مدارها ، وبيننا ألحمة بين ذروة العلم وشفرة القصر إذا هو بين قاع
البحر ، وعقيق النهر . فكم أفلت من هجرة ، واختبأ فى خيلة .
فمن تلهب جمره القيظ فى صميم القائلة إلى تراوح النجم فى الروضة ،

(١) شمس : امتنع وأبى . (٢) الطفاوة : الدارة حول الشمس أو القمر .

ومن التردد بين زفير العاشق وحرقتة إلى التمشي بين نفس الحبيب وريقته .

ولا يزال الكتاب في كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه في مؤلفاتهم من الحكم والأمثال فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كما يصدح (١) المطر، ويستهبطون الحكم من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ويفشدون لذلك الأمثال فينثرونها فيما يتخبرونه من الاقاصيص التي تدعو إلى العظة ، وتصفح (٢) النفوس عن ركوب سبل الغواية .

ومن تلك الاقاصيص ذلك الكتاب الذي أعانى تعريبه اليوم فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص فكان مثله فيه كما قال عن نفسه المنجم الذهبي لا تصل الأيدي إلى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدداً . وقد خار الله لى (٣) أن أعربه فاستعنته فأعانى واستهديته فهدانى

(١) أخرجها مثلاً، وكان من وساوس العرب إذا خشوا سقوط المطر أن يعمد أحدهم إلى خيمته أو عطنه فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها رجاء أن يخطئ المطر في سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدقة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه في النبوة .

(٢) صفحه عن حاجته : رده .

(٣) يقال : خار الله له في الأمر ، إذا جعل له فيه خيراً .

وسلخت اثني عشر هلالاً في تعريب تلك الصفحات التي ترونها اليوم
وحاولت أن أصل بها تلك الرحم التي قطعها يد الترجمة التجارية بيننا
وبين أولئك الرجال الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها
قسطها من الإتقان والبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللغة ويرضاه
أبناءؤها .

أرأيت أيها الناظر في كتاب كيلة ودمنة ؟ أكان يقوم بنفسك
وأنت تذوق حلو تركيبه وتستمرىء لذة أسلوبه أن عبد الله بن المقفع
قد عربته عن الفارسية لو لم يصل خبر ذلك إليك ؟ فسقياً لتلك
الأقلام التي عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت ، وواها لهذه اللغة التي
أصبحت بين أعجمي ينادى بوأدها ، وعربي يعمل على كيدها .

ومن نظر في بطون تلك الكتب التي تترجم اليوم رأى هذه
العادة الشرقية وهي على فراش موتها تندب خدراً قد ابتذلتها الأقلام
وستراً قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوها لها في بطون هذه الكتب
قبوراً وخاطوا لها من تلك الصحف أكفاناً وهياؤا من هذه الأقلام
أعواداً . وما هو إلا أن يثنى ذلك الغربي بدعوته حتى يسرع إلى جنازتها
أهلها وذوو قرابتها .

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ،
ونسلمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر . اللهم إن هذا خذلان منك
فأدركننا برحمتك وهيء لنا من أمرنا رشداً .

أَيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من خول
البلاغة وملوك الكلام وأنا لا اعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها
غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف قصر من القصور أو
آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات . إلا ما وقع تحت نظر العرب
فى تلك الجزيرة الجرداء ، وما سمت إليه حضارتهم فى عهد الدولة
الأندلسية . أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ،
وجو حواه ، حتى أدخل فى لفته من الكلمات ما يخطئه العد ووقف فى
وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة
حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أوليست رجالنا بقادرين على أن يأتوا
متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسماؤك اللهم أيدعى البعير وهو ذلك المركب الحشن
بهذه الأسماء التى تضيق عنها بطون الكتب ، وهذه مراكب البخار
والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مرادفاً فى هذه اللغة فما عسى أن
تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الأبيضان أبردا عظامى الماء والفت بلا إدام (١)
وهو فوق راحلة ظالع (٢) على قتب يكاد يُدىم عجاناه (٣) تحت
شمس تكاد تأكل ظلها فى مفازة .

(١) تقول العرب : الأبيضان عن الماء والفت ، والأحمران عن اللحم والخمر

(٢) ظلع البعير : غمز فى مشيته . (٣) عجان الرجل : ماتحته .

تمشي الرياح بها حيرى موهلة حسرى تلوذبا كشاف الجلاميد
 اذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول
 وسرد من الوصف ما يبلغ حد الإعجاز وأردتنا على أن نصف ونحن
 نستطيع من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان وتنبؤاً أريكه
 «الأوتومبيل» تحت ذلك الظل الظليل ، في مخارف (١) ضفاف النيل
 على فراش وثير ، ومتكئاً من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل
 ذلك المركب الذلول الذي لا تلحق به صافنات الخيول فوقفنا أمامك
 موقف الحائر لا نعرف له إسماً يدل على مسماه ولا مرادفاً في اللغة
 يؤدي معناه .

خذوا أيها القادرون على الإصلاح بيد اللغة وانظروا كم أدخل
 فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية .

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم إليه . وهذا
 باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصهما
 ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين .

(١) مخارف : جمع مخرفة ، وهي التنزه . بماء وك (٢)

الشعراء المعاصرون

« خليل مطران ،

إسماعيل باشا صبري :

أكثر ما ينظم فأنظمة تخطر على باله من مثل حادثه يشهدا أو خبر
ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه .

ولما كان لا ينظم للشهرة ، بل لمجاراته نفسه على ما تدعوه إليه ، فالغالب
في أمره أنه يقول الشعر متمشياً ، وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل
عنه بعنقه وله بين حين وحين أنفة بمثل ما تنطق لفظة «ايه» مستطيلة
ينظم المعنى الذى يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، وقلما
يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر .

شديد النقد لشعره كثير التبديل والتحويل فيه حتى إذا استقام
على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه .

وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش في صدره الشعر فيرسل
بميتيه إطلاق زوجي الطائر فيذهبان في الفضاء ضارين من أشطرهما
بأجنحة ملتصقة ، شادين على توقيع العروض إلى أن يتواريا وينقطع
نغمهما من عالم النسيان .

ذلك هو الشعر للشعر .

(م ه انت مختارات)

أحمد شوقي بك :

ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء وحيث يشاء . ولا يعرف جلسته أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادی بدء غمضة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظره وقد برق وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيئة بعد هنيئة .

فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كعادته في الحديث .

ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ، ولو بعد أيام طوال ، عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظراً ما تمّ منه حافظاً لبقية المعنى الذى يضمّره .

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة .

يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يهزّهم (١) ، لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو في مبنى .

فأما المعنى فيجيشه على مرّامه ، أو على أبعد من مرّامه ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين

(١) يزه : غلبه .

الآداب في لغات الإفرنج والأعراب فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ
وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات
فنية استفادها من مطالعته في صنوف الكتب واتخذها عن ملحوظاته
ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب.

وأما المبني فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول، ترى
فيه من نسج البحترى ومن صياغة أبي تمام ومن وثبات المتنبي ومن
مقاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيأ.

وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوقي.
ذلك شعر العبقرية والتفوق.

حافظ إبراهيم :

يقول الشعر في كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه، ومن عادته
دخول حديقة الأزبكية بعد الظهر طلباً لتلك الخلوة ولا يختلط عليه
الفكر خلال الضجيج المحيط به.

يتعب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج مثال
جميل من حجره. يؤثر الجزالة على الرقة وله فيها آيات.

يطرق الموضوع في الغالب من جوهره، وربما نظم أكثر الأبيات
قبل المطلع شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصعب ما بين يديه آمناً

أن تهش غزيمته دون الإجادة بعد ذلك عالماً أن الكلام لا بد أن يأتيه
في أي مقام طيباً ولو بعد حين .

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها
ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها .

إذا صب البيت في قالب من العروض أعاده نغمأ على سمعه
مستشيراً بذلك ذوقه عن طريق أذنه وطالما صدقته الأذن بنصيحتها
أما تفنّيه فبدوى أخذه عن الشيخ عبد المحسن الكاظمي ، وطريقته
أن ينطق بالكلمات ملحنة تلحيناً ساذجاً من إطالة في الحروف المعتلة
ورجفة في القرار كرة أربعة أنفاس وتقتضب .

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ، وفي أقصى ضميره يؤثر
البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حيناً في التصور لم
يفته الابتكار في التصوير .

أولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء .

كبير الآمال عاثر الجد ، تجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس
أو مسحة من الشكوى وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلذع لذع النار
الكامنة في غير متقد .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مظهر
لهذا العصر ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد .

أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحراً .

المحمود باشا سامى البارودى :

أدركته وقد عاد من منفاه . وكان أول معرفتى به أن زرتة مصاحبة
لصديقه ومريده الشاعر الناصر محمد بك إبراهيم هلال .
دخلنا عليه وهو فى صدر مجلسه فحيانا بذلك اللطف الذى كان
لا يفارقه الوقار ، ولا تثبت معه الكلفة وكان لى معه بعد ذلك ودّ وعهد .
واتفق أن جئته ذات يوم وما بيننا ثالث فطارحنا الشعر وتباحثنا
فيه ثم اقترحت عليه بيتين يرتجلهما فاستوى يفكر .

استوى ساكناً ساجياً مسنداً ظهره إلى الحائط . وفكر غير
منقبض الحيا ولا معنت الملامح متلهة سماحة وجهه اللامع بأنوار
الزوال بين بليغ لحيته البيضاء المستديرة وقم الناظرتين السوداوين
اللتين تحجبان عينييه .

مرت به وبى دقيقة وهو متمكن فى تأمله وأنا مسترسل مع خاطر
أخطرتة فى قلبى رؤية الرجل على هذه الحال . فخيل لى أننى لى
تمثال من تلك التماثيل التى أقامها صناع اليونان لبعض المتقدمين من
حكاهم وتبدلت فى ذهنى الناظرتان السوداوان بالظالين الذين يحيطان
بالعبون المطبقة فى تلك التماثيل .

وعاد إلى وهى استطارا قوة ما أبدعوه فى تلك الأنصاب حتى
أعاروا بإتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية .
وبينما أنا مستغرق فى الخواص بتلك الذكرى إذ تحرك الرجل

تحرك من يعالج معنى مستصعباً فتذهبت تنبه دهشة كأتى بالتمثال وقد
تحرك .

وفى تلك الوهلة تصورت لأول مرة أن الرجل وذلك رسمه وتلك
بشرته البيضاء ليس بعربي التبعة وقضيت عجباً لآية البيان التي تنتفى
عندها فروق الأصول والفروع والامكنة والأزمان .
أما شعره فهو بجملة صناعة لا تنافس بقديم أو حديث مع ابتكار
قليل وإحساس فياض .

اختار له أحسن أساليب العرب وأفصح ألفاظهم وتغنى بها على
وحي نفسه - ونفسه جارية النغمة وعاشقة الإيقاع - فافتن حتى أنسى
الفن ، وجوّد حتى أذهل عن المعنى .

فمثل قارئه مثل سامع المنشد البارع لا يبتئس حين يلتبس عليه فهم الألفاظ
إذا استمر النغم على نظامه وإتقانه بل يستمر في طربه ويترقى فيه إلى
أن يخلق لنفسه شجوناً حيث تفوته شجون الأقوال المنشدة .

ذلك كان مذهبه في الشعر وتلك غايته منه ، ولا تنس له فضلاً
جديراً بالذكر الخاص وهو أنه أول شعراء البعثة الحديثة بمعنى أنه
أول من رد الديباجة إلى بهائها وصفاتها القديمين . وما أبزّ قريضه
لقريض جميله . فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعداً إلى
عهد أرقى أزمنة العرب فهي كالجبال الشاخنة وحوها القصائد الأخرى
كالأركان المقامة من حجارة أطلال بلا اختبار ولا نسق ولا هندام .

الخلاصة أن المرحوم البارودي كان في الطبقة الأولى بين شعراء العرب وكان قلبه كلفاً بالنغمة وذهنه منصرفاً إلى الصناعة كما يدل على ذلك منظومه وكما يشير إليه اختياره من أقوال المتفوقين . فإنه لم يلتق منها إلا كل ما حسن لفظاً ومعنى أو حسن لفظاً ، وأهمل ما حسن بمعناه دون مبناه .

فشعره إنما هو شعر الصناعة والإيقاع .

الشيخ إبراهيم اليازجي :

هو أستاذي بعد المرحوم أخيه الشيخ خليل قرأت عليه أخريات الصحف في كتب البيان المتداولة يومئذ في المدرسة البطريركية ببيروت وذلك أن أخاه كان قد أصيب بالعلة التي مات بها فخل هو محله إلى نهاية تلك السنة التي كانت آخر عهدي بطلب العلم في المدرسة .

راعى الشيخ بكل سيرة ورجاحة عقله ، وسعة معارفه وإحاطة خبرته بالناس فلزمته لزوم المتأدب والمريد زمناً طويلاً ، ولا أبالغ بقولي إنه إذا كان الإنسان في ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب فقد كان الشيخ من أقل الناس عيوباً . بل أقول ولا أبالي عاقبة التصريح على سمعته إن كان ما تمنيت على الله أن يزيد في مناقبه ومحامده هو خلة العفو . فلقد كان منتقماً لشرفه وشرف بيته ، يلتقم مدافعاً

لامبادئاً وإذا ضرب ضرب بتؤدة وتبصر ناظراً إلى المقاتل وقلبا
تصدى لحصم إلا تركه صريعاً أو جريحاً جرحاً مشفقاً (١).

على أنه لم ينبر مرة لأحد إلا عن عدل وحق.

كان للشيخ مذهب عام في شعره ونثره وسائر ما يتولاه من الأعمال
وهو مذهب الإتيقان.

لا يخلق جديداً ولكنه يتقن ما يصنعه إلى حد أنك تعزوه إليه
وتعرفه بطابعه.

ولهذا لم ينظم مرتجلاً. ولم يكتب إلا محتفلاً (٢).

وزرته أحياناً وهو يصنع آباء الحروف المطبعية المتداولة الآن
في مصر والشام وكان ينحتها من الفولاذ.

وزرته أياما وهو يضرب العود ويضع للأنغام العربية علامات
خاصة بها كالعلام التي تقرأ بها الأنغام الإفرنجية.

وزرته مراراً وهو قد فكك قطع ساعته بعضها من بعض
ليصلحها، وزرته آونة يعالج الرسم الشمسي وآونة أخرى يرسم بالقلم الفحم
صديقاً له.

وزرته في الأكثر وهو ينظم أو ينثر واقفاً تجاه منضدة - كذلك
كان شأنه - والصحيفة أمامه على درج مائل.

(١) يقال: أشفى المريض على الموت، إذا قاربته.

(٢) احتفل بالأمر: أحسن القيام به.

ففي كل هذه الأحوال كنت أجده على مثال واحد من شدة التفكير والتدبير وبطء الحركة وجمود المحجرين مع غرابة السطوع في إنسانيهما حتى لتكاد تحس بانبعاث الأشعة منهما متجمعة .

كان أثناء نظمه لا يتقلقل مكانه إلا المراجعة كتاب ، وتحقيق لفظة والتحقيق خلة لم تبلغ من باحث أو عالم مبلغها منه .

إذا نظم البيت خطه ذلك الخط الجميل المصوغ صياغة الجمان الدقيق . وقد يقلب الصحيفة في يده كأنه يريد أن يرى في سياق البيت واختيار مفرداته مثلما يراه من الجمال في رسم حروفه وهكذا إلى أن يتم القصيدة .

فإذا أتمها وأطلعت عليها رأيت فيها من المتانة ووضع الكلم في مواضعها وفصاحة الأسلوب وسلامة التركيب والجزالة أو الرقة كل في المكانة اللائقة لها وتجاوى الضرورات وتوخى المستحسن من المألوفات ما لا تجد مثله في قصائد غيره ووجدت على الجملة وفي التفصيل لمعان الصقل .

وأكثر مبتكره لفظي يفاجئك بالمفردة التثيلية أو بالعبارة التصويرية فيريك أبعد ما يرمى إليه فكرك من قصده ويعجبك ويهرك .

على أنه أقل من الشعر لأن إباء نفسه حمله مع الأيام على التيار الذي دفعته فيه ابتغاء لرزقه وما كان أعيفه لمال لا يصيبه جزاء وفاقا لحقه .

وأصلح تسمية عامة لشعره فيما أراه هي تسميته بشعر الإتيقان .

السيد توفيق البكري :

شغف كلف بالغريب من ألفاظ اللغة ، أذكر أنه بعث في صباه إلى أحد كبراء الشام بكتاب مجاملة فخر في حل رموزه وجاءني وأنا يومئذ في المدرسة يستعين علي فهم ذلك الكتاب فاستعنا كلانا بالمعجم وما زالت هذه حاله إلى الآن سواء في نثره أو في شعره . على أن في ذلك عجباً لأن الشيخ من يشاؤون ولكن يغلب على الظن أن ثقافته الذين يرجع إلى رأيهم من مثل العلامة الكبير الشنقيطي قديماً وسواء حديثاً إنما هم جميعاً من المشايخ الذين يمر بهم العصر بما فيه من معجزات الماء والنار والكهرباء والنور وبما يفتن العقول ويأخذ بالآلالباب من كل جميل النظام شائق الهندام بديع التجزؤ والالتئام كما تمر بالبدوى المقيم في الصحراء خيالات الجن وطمطمانيته في أضغاث الأحلام .

السيد مقل يحول الحول أو الحولان فيقصد قصيدة ومن ، لطائفه أنه رأى يوماً عيون مـ في باريس ومـ على ما هو معلوم اسم أعرابية بنت أعرابية إلى قحطان من الأسماء التي كان يذكرها شعراء العرب حقيقة أو عارية .

أما نظمه فمتين وله فيه نظرات إلى زمانه ، لكنها أشبه شيء بنظرات موجهة من عهد عهيد (١) إلى عهد جديد .

(١) العهيد : القديم العتيق .

ليس له فكر عام ثابت يتجه إليه ولو التفاتاً في أكثر ما ينظمه
كما يلتفت « حافظ » إلى اجتماعياته و « شوقي » إلى خلقياته فهو يقول
إجابة لدعوات الطوارئ ويلبس لكل حالة لبوسها .

على أننا إنما أشرنا إلى انتفاء الجامعة التي تجمع ولو بصلة ضعيفة
بين أقسام شعره لأسباب منها أن السيد شاعر مباه بالشاعرية عن حق
وكان في وسعه أن يحل في الرتبة الأولى من شعراء زمانه لو أراد أن
يكون من زمانه ولكنه انتهى إلى عصر آخر فلم يبلغ ولن يبلغ هو
ولا سواه أدباء ذلك العصر لأنهم كانوا يأخذون اللغة رضاعاً وفضلاً
وعادة يقظة ومنام وعشرة ومعاش . ومنها أن السيد طالع شعر
الإفرنج وعلم منه المهمة العليا التي ينتدب لها الشاعر لا بين أمة منفردة
بل بين الأمم جمعاء أحياناً . ومنها أن سماحته أدري بأن الشعر في بلد
يحتاج إلى الترتيب والتأديب كمصر وإذا لم يكن إلا طوائف أسطر
ترسم مقسومة إلى أشطر ففضل الشاعر رب المقاصد والمعاني على
الوزان الناظم مقطوع عروض الكلام ليس بالكبير وهو إذا بما يقتضيه
من المنزلة والتجلة غير جدير .

ليسأخنا السيد فيما نذكره له فما هو - يعلم الله - قصد إحلال له في غير
محله بل توسل إليه ، وفي طاقته أن يجيب بالرقى ولو شق الصعود إلى
الأوج الذي مهد له سبيله من زان فطرته بذلك الذكاء الباهر . والفكر
الحاضر ، ويسر له الاطلاع على كثير . وأعفاه من المعاذير .

هذا والسيد من المقاطيع الشعرية ما لا يدع في معناه مقالا لقائل ولا مجالا لجائل . فلو جرى في كثيره قليله لأصبح قطباً من أقطاب الزمان . في الجمع بين البلاغة والبيان .
أما طريقته العامة ما وصفناه بالكلمة التي تغلب في وصف شعره أنه في القرن الرابع عشر المسمى شعر البعثة الجاهلية .

اللغة والعصر

• للشيخ إبراهيم اليازجي ، (١)

لم يبق في أرباب الأقلام ومنتحلي صناعة الإنشاء من هذه الأمة من لم يشعر بما صارت إليه اللغة لهدنا الحاضر من التقصير بخدمة أهلها والعقم بحاجات ذويها حتى لقد ضاقت معجزاتها بمطالب الكتاب والمعربين وأصبحت الكتابة في كثير من الأغراض ضرباً من شاق التكليف وباباً من أبواب العنت . واللغة لا تزدد إلا ضيقاً باتساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التفنن في المخترعات والمستحدثات إلى أن كادت تنبذ في زوايا الإهمال . وتلحق بما سبقها من لغات القرون

(١) الشيخ إبراهيم اليازجي : هو أ كبر عالم لغوي نبغ في العصر الحاضر ، وانفق له ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين من قوة البيان وبراعة الإنشاء فهو فخر سوريا خاصة والعرب عامة ، ولو أن الله أبقاه للغة العربية لكانت فوق ما نالت على يده خيراً كثيراً .

الحوال . ومُنست الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من الثلم قبل تمام
العفاء ، وقبل أن ينادى عليها مؤذن العصر سبحانه من تفرد بالبقاء ،
ويختم على معجزاتها بقصائد التأبين والثناء .

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر الألسنة
هادة وأوسعها تعبيراً وأبعدها للأغراض مُتسناوِلاً وأطوعها للبعاني
تصويراً ، قد أفضت اليوم إلى حال لورام الكاتب فيها أن يصف حجرة
مناحه لم يكده يجد فيها ما يكفيه هذه المؤونة اليسيرة فضلاً عما وراء
ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء . ومنازل المترفين والأغنياء ،
وشوارع المدن الغناء ، وما ثمّ من آنية وأثاث وملبوس ومفروش
وغير ذلك من أصناف الماعون وأدوات الزينة مما لا يجد لشيء منه
اسماً في هذه اللغة ولا يكون حظ العربي من وصفه إلا العجى والحصر
وطى لسانه على معان في قلبه لا يتسنى له إبرازها بالنطق ولا يجد سبيلاً
إلى تمثيلها باللفظ كأن المقاطع التي يعبر بها عن هذه المشخصات لم
يخلق لها موضع بين فكيه . وليست مما يجرى بين لهاته وشفثيه فعاد
كأنكم يرى الأشياء ويميزها ولا يستطيع أن يعبر عنها إلا بالإشارة
ولا يصفها إلا بالإيماء .

وباليت شعري ما يصنع أحدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية
أو الصناعية ورأى ما ثمة من المسميات العضوية وغير العضوية من
أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن وعين ما هناك من

الآلات والأدوات وسائر أجناس المصنوعات وما تتألف منه من
القطع والأجزاء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة وأراد
العبارة عن شيء من هذه المذكورات .

ثم ما هو فاعل لو أراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات
العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيمائية والفنون العقلية
واليدوية وما لئكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي
لا تغادر جليلاً ولا دقيقاً إلا تدل عليه بلفظه المخصوص .

لا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرك له به لسان ولا يعهد له
بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبر بها عنه ولا يغنيه في هذا الموقف
ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ومئتي اسم للخمر وخمسمائة للأسد وألف
لفظة للسيف ومثلها للبعير وأربعة آلاف للداهية وما يفوت الحصر
لشيء آخر حرص مؤلف القاموس على استقصاء ألفاظه حتى لم يكن
يذكر مادة إلا وفيها شيء يشير إليه ويدل عليه .

على أن اللغة مرآة أحوال الأمة وصورة تمدنها ورسم مجتمعتها
وتمثال أخلاقها وملكاها وسجل مالها من علوم وصنائع وآداب وإنما
تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها في الخطاب وما يشمل في خواطرها
أو يقع تحت حسنها من المعاني . ومعلوم أن العرب واضعي هذه اللغة
كانوا قوماً أهل بادية بيوتهم الشعر والأديم ومفرشهم الباري .

والبلاس (١) ولباسهم الكساء والرداء وأثاثهم الرحي والقدر وآنياتهم
العقب والجفنة إلى ماشا كل ذلك مما لا يكادون يعدونه في حل ولا ترحال
فأين هم وما نحن فيه لهذا العهد من اتساع مذاهب الحضارة والاستبحار
في الترف واليسار وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق وأنواع
الآثاث والزخارف وما نحن فيه من التفنن في أحوال المجتمع والمعاش
فضلا عما بلغ إليه أهل هذا العصر من التبسط في مناحي العلم والصناعة
عما كان أولئك بمعزل عن جميعه إلا ما حدث بعد ذلك في عهد
استفحال الإسلام مما ذهب عنا أكثره وما كان فيه لو بلغ إلينا
إلا غناء قليل .

ومهما يكن من حال أولئك القوم وضيق مضطرب الحضارة عندهم
وما نجد في ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن فلا
يتوهم من متوهم أن ذلك وارد على اللغة من هرم أدركها فقعد بها عن
مجاراة الأحوال العصرية وأناخ بها في ساقاة الألسنة الحالية فإن معنى
الهرم في اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معان قد خلت ألفاظها عنها
ثم تضيق أوضاعها عن إحداث ألفاظ تؤدي بها تلك المعاني فيطرا
على اللغة النقص حيناً بعد حين إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها
ولا تبقى صالحة للاستعمال وحينئذ فلا يبقى إلا أن يلقى حبلها على غاربها
أو يستعان بغيرها على سد ما عرض فيها من الخلل بما يغير من ديباجتها
وينسك أسلوب وضعها حتى تبدل هيئاتها على الزمن وتصير على الجملة

(١) البلاس : البساط من شعر البكرك كما قال الشاعر في الفيل والحصان

لغة أخرى، وليس بمنكر أن ما وصفناه من هذه الحال يشبه في بادئ
الرأى ما نشاهد من حال لغتنا اليوم وما لم نزل ننعاه عليها منذ حين
من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية، إلا أن ذلك إذا استقرت
أوجه وأسبابه وسبرت غور اللغة في نفسها وقست مبلغ استعدادها
علت أنه ليس منها في شيء وأيقنت أنها لا تزال في ريعان شبابها وطور
ترعرعها وأن فيها بقية صالحة لأن تجارى أوسع اللغات وأكثرها
مادة ولكن ما أدركها من ذلك وارد من قبل الأمة وتخلفها في حلبة
الحضارة والمدنية إذ اللغة بأهلها تشب بشبابهم وتهرم بهرمهم وإنما
هي عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدو ألسنتهم ما في خواطرهم ولا تمثل
الفاظهم إلا صور ما في أذهانهم، وبديهي أن اللغة لم توضع دفعة
واحدة، وإنما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء على قدر ما ندعو إليه حاجة
المتكلمين بها وقد اختصت هذه اللغة بمزية عز أن توجد في غيرها وهي
أن أكثر ألفاظها مأخوذة بالاشتقاق اللفظي أو المعنوي بحيث صارت
إلى ما صارت إليه من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيه لغة على
كونها من أقل اللغات أوضاعاً إلا أنها من أكثرهن صيغاً وأبنية
وهو السر في قبولها هذا الاتساع العجيب فضلاً عما فيها من تشعب
طرق المجاز على ما سنعود إلى بيانه بالتفصيل.

وأعتبر ما ذكرناه من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليه اللغة زمن
الجاهلية وفي صدر الإسلام ومقابلتها بما بلغت إليه على عهد الخلفاء

من بنى العباس بعد سكون الفارات ، واستتباب الفتوح وتذبه الأمة
اطلب العلوم وتبسطها في الفنون والحضارة بحيث خرجوا بها من حال
الخشونة البدوية إلى أبعدهم مذهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك لم يكادوا
يدخلون فيها لفظاً أعجمياً ولا اضطروا فيها إلى وضع جديد ولكنها
خدمتهم بنفس أوضاعها التي وضعتها العرب فاشتقوا منها ما لا عهد به
للعرب على وجهه الذي نقلوه إليه وتكلم به أصلاً حتى أحاطوا
بصناعة الفرس وعلوم اليونان وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الأمم
التي اجتاحتها شرقاً وغرباً وزادوا على ذلك كله ما استنبطوه بأنفسهم
واللغة مشايعة لهم في كل ما أخذوا فيه لم تنضب مواردها دونهم ولا رأينا
من شك منهم عجزاً ولا تقصيراً إلى أن أدركهم من تبدل الأطوار
وغارات الأقدار ما وقف بهم عند ذلك الحد فوقفت اللغة عندما نراه
فيما وصل إلينا من كتبهم وتوالي الاجتياح بعد ذلك على الأمة وتتابعت
دواعي الدمار حتى اندرست أعلام حضارتها وذهبت علومها أدراج
الرياح فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها حتى صار الموجود
منها اليوم لا يقوم بخدمة أمة متمدنة ولا هو أهل لأن يبلغ به ما منزلته
تلك . ولذلك فإن كان ثمة هرم فإنما هو في الأمة لافي اللغة لأن
ما عرض لها من الهجر والإهمال غير لاحق بها ولا ملحق بها وهنا
ولا عجزاً وإنما هو عجز في السنة الأمة ومداركها وتأخر في أحوالها
واستعدادها ولو صادفت من أهلها البقاء على عهد أسلافهم من السعي

في سبيل الحضارة وتوسيع نطاق العلم لم تقصر عن مشايعتهم في كل
ملاقاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم الى مجارة العصر الحاضر .

ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك لم يزد فيها حرف
بل لم يكده يحفظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية على تناقص
هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم بما طرأ على أهلها من
الضغط والفاقة وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران
وذهاب الحضارة من بينهم حتى عادت حوائج كثير من أهل المدن
الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدوى والأكار وما دامت المعاني التي
يعبر عنها باللغة معدومة فلا سبيل إلى بقاء الألفاظ الدالة عليها إذ اللفظ
إنما يتخذ للعبارة عن الخواطر التي في النفس فلا يكون إلا على قدرها
بالضرورة ، وزاد على ذلك كله ذهاب ما كتب المتقدمون بعضه بالإحراق
كما تم في مكتبة قرطبة وكأن هذا في مقابلة ما وقع من مثله
بالإسكندرية وفارس ... وبعضه بالاجتياح والنهب فلا بقي في مكانه
فينتفع به المتأخر ، ولا احتفظ به الذي نهبه لجهله قيمته ، وبقي الشيء
اليسير نجده اليوم في مكاتب الأعاجم وأكثره مما اشترى من أيدينا
بالذهب ... فلا غرو أن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهاب هذه اللغة
من ألسنة الأعقاب حتى لو رام أحدنا إثارة دفاثنها وتعهدها بالتجديد
والإحياء لما وجد منها في البلاد إلا الشيء النزر لا يعدو في الغالب
علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكده أهل بلادنا يحافظون على سواه
على أنك لو طفت اليوم في جميع أنحاء البلاد التي كانت مباءة

للعرب ومعرضاً لحضارتهم وفنونهم لم تكذب تجد موضوعات توهم فيه آثار ذلك
القديم سوى الديار المصرية التي هي مستودع ذخائر السلف ومجمع شمل
علومهم في شمل بقاياهم والتي إن كان قد كتب لهذه اللغة أن تستأنف
البقاء مدة أخرى فإن مبعتها إنما يكون من ناحيتها وعلى أيدي رجالها
وإن سبقهم إلى إحياء رسومها بعض المجاورين لهم ممن اصطبقوا
صبغة العرب وليسوا منهم في شيء وشتان بين من يعنى بالأمر لضرورة
أحوجته إليه ومن تكون فائدته له وخسرانه عليه .

وقد كان عقد في هذه العاصمة - أعني مدينة القاهرة - مجتمع لغوى
تطالت إليه أعناق الناطقين بالضاد من جميع الآفاق العربية وتوقع
المتأدبون منه فوائد جمة مما لم تبرح النفوس متطلعة إليه والأمانى معقودة
عليه فاعترض دون تلك الثمرات ما عهد في أهل الشرق عامة والمصريين
خاصة من وناء الهمم وتخلف الثبات على حين لم يجزوا في هذا الشوط
إلا خطوات يسيرة أبانوا فيها عن رأي فطير وبضاعة مزجاة وصدرت
الآمال عنهم كما وردت لم تظفر منها ببلة بل تجرعت من اليأس ما زادها
على غلتها غلة .

ولا بأس أن نلم في هذا المقام بطرف من تاريخ هذا المجتمع
والكشف عن شيء من أعماله بياناً للغاية التي جعلوها نصب أبصارهم
واستنهضوا لها هممهم ، ثم المبلغ الذي أدركوه من ذلك والأمد الذي
استولوا عليه منه لا نريد بذلك تسوية لهم ولا غصاً منهم ولكن
الإشارة إلى أوجه التقصير فيما هموا به من هذا الأمر الخطير والبحث

في الخطة التي ينبغي سلوكها للوصول إلى المقصد الذي تمثل لهم بعد ما أوضحنا من الحاجة المناسبة إليه وما يترتب عليه من الفوائد التي أيسرها تدارك اللغة من السقوط ولحاقها بلغات الغابرين

لا جرم أن الأمور إنما تستتب بالرأى قبل العمل والحازم من إذا هم بمفعول نظر في غايته قبل مبادئه حتى يكون مدخله فيه تسديداً ومخرجه منه حميداً . فأول ما يؤخذ عليهم في أمر هذا المجتمع أنهم حصروا انتخاب المشتغلين به في عداد رجال مصر وحظروا أن يشاركون فيه غيرهم من سائر الناطقين بهذا اللسان وهو أمر قد خفي علينا وجه الحكمة فيه بل لم نجد لهم عذراً يخرجهم من المؤاخذه عليه، فإنه إن كان ذلك عن مزيد اعتداد بأنفسهم في كفاية هذا الأمر حتى أداهم إلى ترك الاعتداد بغيرهم فهي السوء التي لا يسترها إحسان ولا يشفع فيها فضل ولا مزية، بل هي السقطة التي تقضى وحدها على عملهم بالحبوط ومساعدتهم بالإخفاق . وذلك أن ما عقدوا العزم على إحداثه في هذا المجتمع من الزيادة والتبديل في ألفاظ اللغة أمر لا يستتب نفعه ولا تتحقق ثمرته إلا بأن يعتم استعماله بين المتكلمين بها وتتداوله ألسنتهم وأقلامهم حتى يلحقوه بأصل اللغة ويعتبروه في جملة أوضاعها . وعلى ذلك فمن لم يدعوهم من أولئك إلى مشاركتهم في الرأى ومشاطرتهم وجه الحكم فقد دعوه بلسان حالهم إلى متابعتهم فيما يرون والنزول على ما يحكمون وذلك أمر لا سلطة تعضده ولا يتسنى إلا برضى من يدعوهم إليه وارتياحه إلى موافقتهم عليه وهيئات أن

ترضى بذلك منهم وهم قد جعلوا يريدون إليه ما علمت من الاستحقاق
والازدهار... وإن كان ذلك طلباً للأثرة والانفراد بالمزية على غيرهم
فهو أمر في غير محله أيضاً وليس من النصفة ولا السداد في شيء،
وذلك: أما أولاً فلأنه لو كان الأمر الذي اجتمعوا عليه من شؤون
مصر الخاصة لم يكن في ذلك لأحد حجة عليهم ولا حق المطالبة
بالدخول معهم فيه ولكنه من الأمور الشائعة بين جميع الأمة على
السواء ليس بعضها أحق به من بعض فانفرادهم به دون سائرها
استبداد لا وجه له وداع إلى المنافسة والتخاذل ونقض عروة الوئام،
وأما ثانياً فلأن مدار العمل على سد ما طرأ على اللغة من النقص
 ووضع ألفاظ بإزاء المعاني التي حدثت في العصر المتأخرة وهناك من
الأوضاع والمصطلحات ما لو جمعت مفرداته في كل فن لبلغت أن
تكون مجلدات كثيرة. ولا يخفى أن هذا من الأعمال التي لا يضطلع
بها إلا العدد العديد في الزمن المديد مما يدعو إلى تضافر الأيدي
والاستكثار من العاملين مع مواصلة الجد وإدمان الاشتغال، ثم هو
مع ذلك ربما أتى علينا قرن بتمامه ولم نبلغ آخره، بل كيف نبليغ ونحن
لا نفرض إلى ذلك الزمن حتى يكون قد حدث من تلك الأوضاع
إضعاف الموجود الآن. وبعد فإن نقل هذه الأوضاع إلى لغتنا
لا يكفي فيه العلم بقوانين العربية والإحاطة بالألفاظ منها نستظهرها من
بطون الدفاتر بل من مقتضاه أن يكون أكثر المشتغلين به من العارفين
باللغات المنقول عنها والمطلعين على علوم أربابها وصنائعهم وسائر

فنونهم ليكونوا على يدنة من مواضع النقص المشار إليها وتحقيق
 المعاني التي ينبغي وضع ألفاظ لها مما يؤدي به المقصود على وجه
 وليس في مصر وحدها من هذه الطبقة الا رجال معدودون لا تحسبهم
 إذا كانوا قد جعلوا لهم مكاناً من هذا العمل كافين للاضطلاع به على
 طوله واتساعه وعلى ما يقتضيه من التفرغ وإدمان النظر : فقد كانوا
 والحالة هذه في أشد الحاجة إلى أن يكون لهم في كل قطر أناس من
 أمثال أولئك يواظرونهم في العمل ويكونون أعواناً لهم على النجاح
 وكان يبقى لهم من المزية التي حرصوا على أنهم هم الشارعون في تأسيس
 هذا المجتمع والداعون اليه وأن أرضهم ملتحق أشعته ومنبتق أنواره
 وهذا كاف في باب الأثرة وهو بما لا ينفسه عليهم منافس . وبالتالي
 فإنهم لو نظروا نظرة في التاريخ لأرثهم مثال ما هم فيه بما يسفر لهم عن
 وجه الرأي وينهج لهم سبيل العمل إذ ليست هذه أول مرة عبر فيها
 على الأمة مثل ذلك ودعت الحال إلى الإحداث في اللغة وإدخال شيء
 جديد بين أهلها . فكل يعلم ما فعل المأمون حين عرب كتب اليونان
 والفرس والسريان في الطب والحكمة والعلوم الطبيعية والرياضية
 وغيرها فإنه لما لم يجد في الأمة من يضطلع باستخراج هذه الكتب إلى
 العربية لم يتوقف عن استدعاء قوم من نساطرة العجم ليتولوا نقلها له
 لم يستنكف من ذلك ولا أنف من بياحه من العلماء الذين حشدتهم إليه
 من أطراف البلاد . وناهيك بهم من كانوا - يشاركوهم في العمل . وقد
 أفرد لهم مكاناً في بلاطه ووزع تلك الأعمال بينهم على ما يحسنه كل

فريق منهم ثم جعل لهم يوماً في الأسبوع يجتمعون فيه وتعرض أعمال
المعربين على علماء اللغة فيقرون منها ما وجدوه سديداً وينظرون في
غيره مما لم يقع المعربون على وجهه فيصححونه .

أما ما كان من ثمرات هذا المجتمع فزبدة ما اتصل بنا أنهم عقدوا
ست أو سبع جلسات استحدثوا فيها عشرين لفظة يازاء عشرين كلمة
من الألفاظ الأعجمية ولا بأس أن نذكر بعض هذه الألفاظ في هذا
الموضع تنمة لسياقة البحث .

فمنها قولهم « مرّحى ، و « أيحى » في مكان « برافو ، ، و « برحى ،
في مكان « فى » وهى كلمات تقال الأوليان منها لمن أصاب المرمى
والثالثة لمن أخطأه فنقلوها إلى مطلق معنى الاستحسان أو الاستهجان
وقد تكلفوا في هذه الألفاظ على ما نرى « وأبعدوا المرمى ، بما لا حاجة
إليه لوجود كثير فى كلام العرب من مشهور اللفظ وما أنوسه يغنى
عن اجتلاب هذه الكلمات ونقلها عن مواضعها . فمن قولهم فى
الاستحسان أحسنت وأجدت وأبدعت والله درك والله أنت والله
أبوك وما شاء الله كان وكذا وإلا فلا وما أشبه ذلك ، ومن هذا القبيل
قولهم بخ بخ وبه وزه بكسر فسكون ؛ وهذه الأخيرة من
مستدركات الزبيدى على القاموس نقلا عن الأغاني . ويقولون فى
التقبيح سوءة لفلان وقبحاً له وخزياً له وتباً له وأف له ولا أبأله
وخسئ الأبعد وخزى ولا درّ دره ونحو ذلك ، وكلها من الألفاظ

الوافية بالمراد على خلوها مما في تلك من الغرابة وما في بعضها من الاستهجان في السمع .

ومنها قولهم « عم صباحاً » « وعم مساءً » في مقابلة « بنجور » و « بونسوار » وهما مما لا داعي إليه أيضاً إذ لا أكثر من ألفاظ التحية عندنا فضلاً عن أنهما من قديم اللفظ الذي قد أميت استعماله منذ أزمان مديدة فلا تقبلان في هذا العصر . وبعد فلا نزيدهم علماً أن الذين يقولون بنجور وبونسوار ليس ذلك منهم عن افتقار إلى لفظ يرادفهما بالعربية فإن أجهل العوام يقولها في تحية الصباح نهارك سعيد أو صبحك الله بالخير مثلاً ، وفي تحية المساء ليلتك سعيدة أو أسعد الله مساءك ونحو ذلك . ولكن الداء الذي أرادوا علاجه بهاتين العبارتين ليس من الأدواء التي تعالج من هذا الكتاب ولا التي ينجع فيها هذا الضرب من العقاقير إنما علاجه تلقين فتياننا حب الوطن وتنشئتهم على عزة النفس والاعتداد بجرمة الذات حتى لا تنسفل أهواؤهم إلى التشبه بغيرهم ممن ليسوا بخير منهم أحساباً ولا أشرف خللاً وقد بقي من أعراض هذا الداء ما تجد استعمال هذه الألفاظ في جنبه سهلاً نسأل الله أن يلهمنا رشد أنفسنا وهو ولي الهداية .

ومنها قولهم « نمرة » في موضع « نومرو » وهذه لا تخلو من غرابة فإن كان القصد منها تعريب اللفظة أي تحويلها إلى صيغة توافق الأبنية العربية فهو مما سبقتهم إليه العامة يقولون كم نمرة هذا الثوب مثلاً ،

وإن كان مرادهم أن النمرة لفظة عربية بهذا المعنى فلا صحة له لأن النمرة في اللغة النسكة في الشيء تخالف لونه كما يرى في جلد النمر مثلاً فكان الأولى أن يبحثوا عن لفظة عربية توافق المعنى وإلا فهذه كغيرها من الكلم التي كانوا يضعونها اتفاقاً من غير أن يطالبهم بها مطالب فلم يكن عليهم بأس من تركها وإرجائها إلى فتح جديد .

ومنها «الحرّاقة» في تعريب «التوربيد» قالوا: وهي أي الحرّاقة سفينة فيها سرام للنيران يرمى بها العدو في البحر ولا يخفى أن هذه ليست في شيء من التوربيد إذ هو عبارة عن صندوق ونحوه من رقيق صفائح المعدن يحشى بالبارود ويرسل في قعر البحر حتى يصير تحت سفينة العدو ثم يفجر بناقض (زنبرك) أو سلك كهربائي فتتقذف السفينة صُعداً . والتوربيد في الأصل اسم لسلك كهربائي من لمسه خدرت يده وتسميه العرب بالرعاد وهو اللفظ الذي استعمله بعضهم في تعريب هذه الكلمة ولعله أولى .

ومنها «الوشاح» اختاروه للتعبير عن «الكوردون» الذي يتخذ للسيف بجامع الهيئة على أنه ليس تعريباً للفظة الأعجمية إذ هي في الأصل عندهم بمعنى القوة من قوى الحبل ثم نقلوها وإن لم يظهر وجه النقل إلى هذا السيف من منسوج الحرير ونحوه تشده النساء على أوساطهن ويزين به رؤوسهن وتجمع به أطراف السجوف وكلل الأسرة ويتخذ منه نجاد السيف وغير ذلك، والوشاح لا يصلح لشيء

من المذكورات إلا للمعنى الأخير فهو أخص من اللفظة المعربة ومع ذلك فلا بأس باستعماله لهذا الموضع .

ومنها «الطنف» لما يسمى «بالبلكون» إلا أنهم فسروه بالسقيفة التي تشرع فوق باب الدار وهي غير البلكون على أن اللفظة أوسع مما ذكروا ويراد فيها أيضاً الجناح وهو أحسن لفظاً وأدل على المراد .

ومنها «المشجب» لما يقال له عند العامة «شجاعة» وهو بالافرنجية «بورت مانتو» . «وحصب الطريق بالحصباء» مكان قولهم «وضع فيها المسكدام» . «والعطاف» و«المعطف» لما يسمى «بالاطر» و«الپاردسو» كذا من غير تعيين والأظهر أن ما اخترعوه يوافق الأول وأما الثاني فأليق ما يسمى به الدثار فإن كان يُتقى به ماء المطر فهو الممطر والممطرة .

ومنها «البهو» بمعنى «الصالون» و«القفاز» بمعنى «الجواني» و«البطاقة» بمعنى «الكارت» و«الشرطى» و«الجلواز» بمعنى «البوليس» وهذه كلها مما سبقوا إليه .

وبقيت ألفاظ أخر أرسلت من عفو الذاكرة ولم ينضجها الفكر فلا نطيل باستقصائها والكلام عليها . على أنه مهما يكن من أمر هذه الكلمات فلم يكن من المتعين أن يكون كل ما يضعونه وارداً مورد الإصابة ولا ينبغي أن يتوقع مثل ذلك من أى قوم تعاطوا مثل هذا الأمر الدقيق على ما يقتضيه من الإحاطة وبعد النظر وكثرة التنقيب

في أعطاف الحافظة وبين تضاعيف السطور ولا سيما أن تلك الألفاظ كانت تصدر من وضع الواحد ثم تنشر بلا بحث ولا تنقيح فلا عجب أن جاء بعضها مرمى للنقد . على أنهم لو مضوا على ما بدأوا به من ذلك وأدمنوا الاشتغال بالبحث والتقصيد لجاء فيما يضعونه فوائد لا تحصى ولخدموا اللغة خدمة سنية كانت تردّها عليهم شكراً جزيلاً وذكرآ على الأيام جميلاً ولكنهم لم يلبثوا بعد وضع هذه الكلمات أن تشاغلوا بإنشاد القصائد وإلقاء الخطب ثم ختم المجتمع على هذا القدر .

ومهما يكن من أمر هذا المجتمع فقد مضى على وجهه ودرجت بعده الأيام ودبت الليالي والحاجة في مكانها والرغبات متطالّة والخواطر هائمة والأقلام جافة واللغة على ما كان من عهد ما لم تستغن بتلك الكلمات العشرين ولا وجد بعد ذلك من أجرى لها ذكراً ولا أخطر للنظر في أمرها فكأن ذلك المجتمع إنما عقد لتثبيط العزائم عن نهضتها وقطع آخر عرق من الأمل ، وكأن أربابه نفر من الأطباء اجتمعوا للائتمار على عليل فكان قُصارى ما في طبهم أن قضوا باليأس منه ثم خرجوا وهم يقولون : عظم الله أجركم في الفقيّد .

فبقي الآن إما أن نسجل بموت اللغة وموت الآمال معها واليأس إحدى الغنيمتين ؛ وإما أن نستأنف العزم ونجدد السعى في إحياء ما اندثر منها وتدارك ما طرأ عليها من الشلْم وهو ما لا تزال الآمال فيه

منوطة بهم رجال هذا القطر إن نشيطوا له وتفرغوا للاشتغال به
وتنبهوا لمكان اللغة من الأمة وأنها هي عنوانها والفصل الذي تتميز به
من سائر الأمم، بل اللغة هي الأمة بعينها فكما تشخص تاريخها وعلومها
وعاداتها وعباداتها فإنها تشخص الأمة بنفسها وبها يشار إليها ويدل
عليها وذلك فضلا عن أنها هي مجمع ألفتها والوصلة الحسية بين آحادها
وجماعاتها فهي علة الضم الحقيقية بينها والجامعة الطبيعية التي بها يستتب
معنى المدنية، وإذا تفتنت للمراد من قولهم الإنسان مدني بالطبع شفت
لك عن حقيقة هذا القول وتبينت موضع اللغة من الحالة الاجتماعية.
واعتبر ذلك في الأمم الأوروبية لهذا العهد فإنها على اتحاد أكثرها في
النحلة الدينية وما يصل إليها من لحمه والنسب إنما تتميز الجنسية عندها
باللغة وهي الفصل الفارق بين أمة وأمة وعليها مدار الوحدة الوطنية
وصيانة المصلحة الأمية ومالم تتحد الأمتان منها في اللغة لا يؤمن
انتقاض إحداها على الأخرى ولو اتحدت بينهما المصلحة الوطنية
والجامعة السياسية. بل انظر إلى الناطقين بلساننا العربي فإنهم على
تباينهم في الأنساب والأديان والعوائد إلى ما لا تجد له مثيلا في العالم
كله وعلى ما بينهم من اختلاف الحال السياسية وتفاوت المصالح الذاتية
وتضافر دواعي الشقاق والافتراق لم تثبت لهم جامعة ينضمون بها
ويتألفون حولها سوى اللغة حتى لقد تجد من الدخلاء فيها من هو
أشد اعتصاما بها ومحافظة عليها من ورثها عن أوليته وانتهت إليه عن
غير كلاله.

بل عندنا اليوم ما هو أبلغ من ذلك وهو ما نراه من كثير من
قبياتنا الذين يتلقون العلم في المدارس الأجنبية فإنك تجد كل فريق
منهم قد أشرب الميل إلى الأمة التي يدرس في لسانها فمن تعلم في المدارس
الإنجليزية مثلاً خرج ميلاً إنجليزياً وكذا من درس في المدارس
الفرنسية أو الطليانية أو غيرها حتى تراه يباهي برجال تلك الأمة
ويتبجح بأخبار ملوكها وكبرائها وفضائل أهل العلم والشعر منها ويقتبس
كثيراً من أخلاقها وعاداتها ويتشبه بمشاهير أهلها ومن يقع في نفسه
منها موقعاً وربما أشرب عقائد بعض علمائها وفلاسفتها إلى غير ذلك مما
لا تكاد تفرقه فيه عن أحد أفرادها بل ربما بلغ من بعضهم أن يزع
إلى اللحاق بجنسيتها والانتظام في عداد أحادها فيطلب مشاركتها في
الوحدة الحسية بعد الوحدة المعنوية وهو نهاية ما يمكن تصوره من
الشواهد في هذا الباب .

وهذا الأمر مما تنهت له الأمم الفاتحة من قديم واتخذته قاعدة
تجرى عليها في تقرير فتوحها وتوثيق سلطانها واتقاء سورة المغلوبين
إذا حزبهم من ناحيتها ظلم أو سامتهم شيئاً من ضروب الخسف
وحسبنا شاهداً عليه ما هو جار ليومنا هذا في الجزائر وتونس من
البلاد العربية حيث أهمل تعليم اللسان العربي في المكاتب إلا بمقدار
ما يتوصل به إلى تلاوة القرآن وجعل كل ما سوى ذلك باللغة
الفرنسية حتى كادت العربية تتناهى في تلك الأقطار ولم يبق منها

إلا ما يتداوله العامة من اللفظ المبذوء والكلم السوقى وغابت عنهم
محاسنها وعلومها وتوارى عنها وآدابها وعلى الجملة فإنها صارت عندهم أمراً
تافهاً لا معنى له ولا رغبة فيه وهى سائرة فى طريق الاضمحلال بما
تغلب عليها من العجمة وشيوعها على ألسنة أهل البلاد وذلك فضلاً عما
يهرهم كل يوم من اقتدار الفاتحين وما يرون من آثار سطوتهم ونفوذ
شوكتهم وضخامة ملكهم وما لهم من ضروب التفتن فى العلم والاختراع
بما تتعاضمه نفوسهم يوماً بعد يوم وعن قليل ستصبح هذه اللغة عندهم
كأن لم تغن بالأمس ولم تسكن شيئاً مذكوراً . ولذلك كان من أوجب
الواجب فى المحافظة على بقاء الأمة وصيانة الجنسية بينها إحياء لغتها بين
عامة أهلها وتكثير سواد أهل العلم منها والتجافى بها ما أمكن عن
لغات الأعاجم إلا الخاصة الذين عليهم المعول فى نقل علومهم إلينا
ونشرها بلغتنا بحيث نلحق بهم فى الحضارة دون الجنسية ، وهذا إنما
يتم اليوم بأن تنهض الأمة بنفسها لهذا الأمر الخطير ويتجرد له عقلاء
سراتها وأهل العلم فيها لا يتكلمون فى ذلك إلا على أنفسهم ولا يصدر من
إلا عن عزائمهم وإلا فإن استنامتهم إلى من سلم إليهم قياد القلم وتهذيب
الأمة فى القطر لا يعد إلا ضرباً من التخدير بمصلحتهم والإعانة على
اضمحلالهم ، وما ظنك بقوم بعضهم مغلوب لسيطرة الأجنبي يعمل بما
يوعز إليه لا بما يراه وبعضهم منقاد لسلطان التعصب وهو هادم
لأركان العلم من قواعدها ذاهبٌ برسوم الجنسية من أصلها مُفرق
لهذه الشرذمة الباقية فى الج لا يُعرف له درك ولا ساحل وبعضهم

مقيم في ظلال الجهل والامية لا يميز الألف من الراء ولا التاء من الياء. ثم ليعلّموا أن العاملين اللذين يتنازعان الأمة لهذا الوقت لكليهما وجهة واحدة يلتقيان عندها وإن اختلف طريقهما وغرض واحد يرميان إليه وإن تباين موقفهما ألا وهو استئصال أرومة الجنسية والذهاب بآثار الوطنية فإن استيقظوا لما أرصد لهم وبادروا الأمر قبل موقعه والا فهذه لغتهم عن قليل ستسقط من عالم الأقلام وتستبدل برطانة أعجمية بل تصبح ألسنتهم أشبه بألسنة أصحاب الصرخ وأشرار الأمر بادية من الآن فليعتبروها ، وإذا مضى على هذا زمن يسير بقيت اللغة محصورة في المساجد والمحاكم الشرعية ولم تجد لها في المحادثات اليومية إلا على ألسنة أقوام من الفلاحين وأهل البادية؛ لا يُطلق اسم العربي إلا على شراذم من أولئك ، وبئس الخلف .

وصف شعر شكسبير

« تعريب محمد السباعي ، (١) »

شكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر أداه الينا الحظ في سكوت

(١) محمد السباعي : هو أحد كتاب هذا العصر الممتازين بالبراعة في الترجمة من الإنكليزية إلى العربية المعروفين بالتمكن في كلتا اللغتين على قلة المتمكنين فيهما معاً إلا أنه في ترجمته أميل إلى التندر بالغريب وتدوين التراكيب الجزلة منه إلى السلاسة والروقة ولعاً باللغة العربية وشغفاً بإحيائها؛ فمن لا ينظر إلى الكتابة بالعين التي ينظر بها إليها يرى في كتابته أحياناً من التعقيد والمشادة غير ما يراه أما كلمته هذه فهي مقتطفة من كتاب الأبطال لكارليل الذي ترجمه إلى اللغة العربية .

فتناولناه في سكوت كأنما هو شيء صغير الشأن قليل الخطر وإنه في الواقع النعمة لا تقدر والهبة لا يحد مقدارها ولا يحصر .
من أسباب عظمة شكسبير براعة تصويره للأشخاص والأشياء ولا أحسب أن إنساناً يماثله في تلك القوة المخترعة الثاقبة الهادئة فإذا نظر إلى شيء لم ينظر إلى ذلك منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميمه و كأن ذلك المنظور يتحلل أمامه في ذوب من الضياء فتتكشف له دلائل تركيبه وبواطن بنيانه ونحن نسمى ذلك ابتداءً واختراعاً وخلقاً شعرياً وما هو لو تأملت إلا النظر الدقيق المستوعب للشيء المحيط بظاهره وباطنه .

ماروايات شكسبير الاثمة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها ، وما صناعته بصناعة إنما هي وحى يتدفق به طبعه عفواً ويهطل به خاطره سجاً دراكاً^(١) .

إن شكسبير نأى تتناول له الطبيعة فتترنم فيه بأشجي نغماتها وتخرج منه أشهى أصواتها ، ولعل الأهم التي ستجىء بعد آلاف السنين ستجد في شكسبير هذا معاني جديدة وبياناً لا لغاز حياتهم .

كان لشكسبير حظه من الهموم والأحزان وقسطه من القروح والأشجان ، وأغانية تشف عما كابده من غصص الزمن ، وتجرحه من حرارة المحن . وقد أقال الرأي من زعم أنه كان خلواً من الأسمى صفواً

(١) الدراك : المتلاحق المتصل .

من القذى ، فأتى لرجل أن يصوّر أمثال هامليت وكوريلالاناس وماكبث (١) وغير هذه من القلوب المتألمة الا وقد عرف قلبه الكبير الألم .

إذا خيرنا بين أن نترك شكسبير أو بلاد الهند نقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير . فسيجيء يوم يصبح فيه أبناء بريطانيا مبعثرين في نواحي الكرة وحينئذ يكون شكسبير الملك الذي يضمنا جميعاً .

الشعر

« لمصطفى الرافعي ، (٢) »

أول الشعر اجتماع أسبابه . وإنما يُرجع في ذلك الى طبع صقلته

(١) أسماء أشخاص بعض روايات شكسبير .

(٢) مصطفى الرافعي : شاعر من شعراء العصر المجيد ، وكاتب من كتابه المتأدين ، ويذهب في شعره مذهب شعراء المعاني كالمتنبي وابن الرومي وغيرهما من الذين يحفلون بجمال المعنى قبل جمال الأسلوب فإن صح له الأول لا يبالي بالثاني على أن له في كثير من الأحيان خصوصاً في النسب ما يعد في طبقة الإبداع ، حسن تصور ، وبراعة نظم ، ورقة أسلوب .

(م ٧ — مختارات)

الحكمة وفكر جلا صفحته البيان . فما الشعر إلا لسان القلب إذا
خاطب القلب ، وسفير النفس إذا ناجت النفس ، ولا خير في لسان
غير مبين ولا في سفير غير حكيم .

ولو كان طير آيتغرّد لكان الطبع لسانه ، والرأس عُشه والقلب
روحنته ، ولكان غناؤه ما تسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء .
وحسبك بكلام تنصرف إليه كل جراحة ، وتضم عليه كل جانحة ويُجنى
من كل شيء حتى لتحسب الشعراء من النحل تأكل من كل الثمرات
فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

وكأنما هو بقية من منطق الإنسان اختبأت في زاوية من النفس
فما زالت بها الحواس حتى وزنتها على ضربات القلب وأخرجتها بعد
ذلك ألحانا بغير إيقاع . ألا تراها ساعة النظم كيف تتفرغ كلها ثم
تتعاون كأنما تبحث بنور العقل عن شيء غاب عنها في سويداء الفؤاد
وظلماته لذلك كان أحسن الشعر ما تتغنى به قبل عمله وهي طريقة
تفنن فيها الشعراء حتى لكان الحطيئة يعوى في أثر القوافي عواء
الفصيل في أثر أمة .

وترى المجيد من أهل الغناء إذا رفع عقيرته يتغنى ذهب في التحرك
مذاهب حتى كأنما ينتزع كل نغمة من موضع نفسه فيتألف من ذلك
صوت إذا أجال حلقه فيه وقعت كل قطعة منه في مثل موضعها من
كل من يسمع فلا يلبث أن يستفزه طربه ، كأنما انجذب قلبه ، وتهبوا

نفسه . كأنما أخذ حسه ، لافرق في ذلك بين أعجمي وعربي . ومن أجل هذا ترى أحسن الأصوات يغلب على كل طبع ، وإنما الشاعر والمغنى في جذب القلوب سواء ، وفي سحر النفوس أكفاء ، إلا أن هذا يوحى إلى القلب وذاك ينطق عنه ، أحدهما يفيض عليه والثاني يأخذ منه ، والويل لكليهما إذا لم يطرب هذا ولم يعجب ذاك .

والشعر موجود في كل نفس من ذكر وأنثى ، فإنك لتسمع الفتاة في خدرها ، والمرأة في كسر بيتها ، والرجل وقد جلس في قومه والصبي بين إخوته . يقصون عليك أضغاث أحلام فتجد في أثناء كلامهم من عبق الشعر ما لو نسيمته لفغمك^(١) ، وحسبك أن تكسر وسادك تتحدث إليهم فتراه طائرا بين أمثالهم وفي فلمات ألسنتهم وهو كأنما قد ضلّ أعشاشه ؛ ولقد نبغ فيه من نساء هذه الأمة شمس سطعن في سماء البيان ، وطلعن في أفق البلاغة ولا يزال الناس إلى اليوم يروون للخنساء وجنوب وعليّة وعنان ونزهون وولادة وغيرهنّ ، وبحسبك قول النّشواسى : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأةً منهنّ الخنساء ويلي .

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة لعددناه ضربا من قواعد الإعراب لا يعرفها إلا من تعلمها ولكنه يتنزل من النفس منزلة الكلام فكل إنسان ينطق به ولا يقيمه كل إنسان ، وأما ما يعرض له

(١) فغمه الطيب : سد خياشيمه .

بعد ذلك من الوزن والتقفية فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والإعراب . وإنك إنما تمدح الكلام بإعرابه ولا تمدح الإعراب بالكلام .

ولم أقرأ أجمع فيه من قول حكيم العصر ، وإمام الافتاء في مصر (١) : « لو سألو الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر » ولا فيما قالوه في الشعراء أجمع من قول كعب الأحبار : « الشعراء أناجيلهم في صدورهم تنطق أسنتهم بالحكمة » .

ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء الا الأبيات يقولها الرجل في الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو من قديم الشعر العربي :

اليوم يبني لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليت
أو كان قرني واحدا كفيته

وإنما قصدت القصائد على عهد عبدالمطلب أو هاشم بن عبد مناف وهناك رفع امرؤ القيس ذلك اللواء وأضاء تلك السماء التي ما طاولتها سماء ، وهو لم يتقدم غيره إلا بما سبق إليه مما اتبعه فيه من جاء بعده ، فهو أول من استوقف على الطلول ووصف النساء بالظباء والمهى والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى وفرق بين النسيب وما سواه

(١) يريد به المرحوم الشيخ محمد عبده .

من القصيدة ، وقرب مأخذ الكلام وقيد أوأبده وأجاد الاستعارة
والتشبيه ، ولقد بلغ منه أنه كان يتعنّت على كل شاعر بشعره .

ثم تتابع القارضون من بعده فمنهم من أسهب فأجاد ، ومنهم من
أكب^(١) كما يكتبو الجواد ، وبعضهم كان كلامه وحى الملاحظ وفريق
كان مثل سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها ، ولقد جدوا في
ذلك حتى أن منهم من كان يظن أن لسانه لو وضع على الشعر لحلقه ،
أو الصخر لفلقه .

ذلك أيام كان للقول غرر في أوجه ومواسم بل أيام كان من قدر
الشعراء أن تغلب عليهم ألقابهم بشعرهم حتى لا يعرفون إلا بها كالمركش
والمهلل والشريد والممزق والمتلمس والنابعة وغيرهم ، ومن قدر الشعر
أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت
الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس . وأيام
كانوا لا يهتثون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج . وكانت
البنات ينفقن بعد الكساد إذا شرب بهن الشعراء .

ولم يترك العرب شيئا مما وقعت عليه أعينهم أو وقع إلى آذنه
أو اعتقدوه في أنفسهم إلا نظموه في سمط من الشعر وأدخروه في
سقط من البيان حتى أنك لترى مجموع أشعارهم ديوانا فيه من عوائدهم
وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستعجبون حتى من دوابهم

(١) أكب : انصرع .

وكان القائل منهم يستمد عفو هاجسه وربما لفظ الكلمة نحسبها من
الوحي وما هي من الوحي ولم يكن يفاضل بينهم إلا أخلاقهم الغالبة
على أنفسهم . فزهير أشعرهم إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى
إذا طرب ، وعنترة إذا كلب ، وجريز إذا غضب ، وهلم جرا .

ولكل زمن شعر وشعراء ولكل شاعر مرآة من أيامه فقد انفرد
امروء القيس بما علمت واختص زهير بالحوليات واشتهر النابعة
بالاعتذارات وارتفع الكميث بالهاشميات وشمخ الخطيئة بأهاجيه
وساق جرير قلائصه وبرز عدى في صفات المطية وطفيل في الخيل
والشماخ في الحمير ، ولقد أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعره فيها
فقال ما أوصفه لها إني لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً ... وحسبك
من ذى الرمة رئيس المشبهين الإسلاميين أنه كان يقول « إذا قلت
كأن ولم أجد مخلصاً منها فقطع الله لساني » ولقد فتن الناس ابن المعتز
بتشبيهاته ، وأسكروهم أبو نواس بخمرياته ، ورفقت قلوبهم على زهريات
أبي العتاهية وجرت دموعهم لمراثي أبي تمام وابتهجت أنفسهم بمدائح
البحترى وروضيات الصنوبرى ولطائف كشاجم .

فمن رجع بصره في ذلك وسلك في الشعر ببصيرة المعري وكانت
له أداة ابن الرومي وفيه غزل ابن أبي ربيعة وصباية ابن الأحنف
وطبيع ابن برد ، وله اقتدار مسلم وأجنحة ديك الجن ورقة الجهم ونحر
أبي فراس وحنين ابن زيدون وأنفة الرضى وخطرات ابن هاني ،

وفي نفسه من فكاكة ألى دلامة ولعينيه بصر ابن خفاجة بمحاسن الطبيعة
وبين جنبيه قلب أبي الطيب فقد استحق أن يكون شاعر دهره
وصنّاجة (١) عصره .

وأبرع الشعراء من كان خاطره هدفا لكل نادرة فربما عرضت
للشاعر أحوال مما لا يعنى غيره فإذا علق بها فكره تمخضت عن بدائع
من الشعر فجاءت بها كالمعجزات وهي ليست من الإعجاز في شيء
ولا فضل للشاعر فيها إلا أنه تنبه لها ، ومن شد يده على هذا جاء
بالنادر من حيث لا يتيسر لغيره ولا يقدر هو عليه في كل حين .

وليس بشاعر من إذا أنشدك لم تحسب أن سمعته مخبوء في فؤادك
وأن عينيك تنظر في شغافه ، فإذا تغزل أضحكك إن شاء وأبكاك إن
شاء . وإذا تحمس فزعت لمساقط رأسك ، وإذا وصف لك شيئاً
هممت بلمسه حتى إذا جمته لم تجده شيئاً ، وإذا عتب عليك جعل
لذنب لك ألزم من ظلك ، وإذا نثر كنائنه رأيت من يرميه صريعاً
لا أثر فيه لقذيفة ولا مدية ولكنها فتحت عليها عينه أو ولجت
إلى قلبه من أذنه فاستقرت في نفسه وكأنما استقر على جمر وإذا مدح
حسبت الدنيا تجاوبه وإذا رثى خفت على شعره أن يجرى دموعاً
وإذا وعظ استوقفت الناس كلمته وزادتهم خشوعاً وإذا فخر اشم
من لحيته رائحة الملك فحسبت أنما حفت به الأملاك والمواكب .

وجماع القول في براعة الشاعر أن يكون كلامه من قلبه ؛ فإن
الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان
لم تتجاوز الآذان .

ولقد رأينا في الناس من تكلف الشعر على غير طبع فيه فكان
كالأعمى يتناول الأشياء ليقرها في مواضعها وربما وضع الشيء الواحد
في موضعين أو مواضع وهو لا يدري .

وأبصرنا فيهم كذلك من يجيء باللفظ المونق والوشى التنضير فإذا
نثرت أوراقه لم تجد فيها الا ثمرات فجة (١) .

ورأينا في المطبوعين من أثقل شعره بأنواع من المعاني فكان
كالخسنة تزيد من الزينة حتى سمجت فصرفت عنها العيون بما أرادت
أن تلتفتها به على أن أحسن الشعر ما كانت زينته منه وكل ثوب لبسته
الغانية فهو معرضها .

وهو عندي أربعة أبيات : بيت يستحسن ، وبيت يسير ، وبيت
يندر ، وبيت يُجن به جنونا ؛ وما عدا ذلك فكالشجرة التي تُفَض
ثمرها ، وجنى زهرها لا يرغب فيها إلا محتطب .

أما مذاهبه التي أبانوها من الغزل والنسيب والمدح والهجاء .
والوصف والرثاء وغيرها فهي شعوب منه وما انتهى المرء من مذهب
فيه إلا إلى مذهب ولا خرج من طريق إلا إلى طريق ؛ ألم تر أنهم في
كل واد يهيمون ؟ وما دامت الأعمار تتقلب بالناس فالشعر أطوار :

(١) الفج من الفواكه : الذي لم ينضج .

أونة تخطر فيه نسيمات الصبا من ما بين أفنان الوصف إلى أزهار الغزل
ويتسبب فيه ماء الشباب من نهر الحياة إلى مشرعة الأمل ، وطور آتراه
جم النشاط تكاد تَصْقِلُ بماء السيوف ، وتفرق بحده الصفوف ،
وحيناً تجده وقد ألبسه المشيب ثوب الاعتبار ، وجمله بمسحة من الوقار
وهو في كل ذلك يروى عن الأيام وتروى عنه وما أ كثر فنون الشعر
إذا رويتها عن أفانين الأيام .

وأما ميزانه فاعمد إلى ما تريد نقده فردّه إلى النثر فإن استطعت حذف شيء منه لا ينقص من معناه أو كان في نثره أكمل منه منظوماً فذلك الهذر بعينه أو نوع منه ، ولن يكون الشعر شعراً حتى تجد الكلمة من مطلعها لمقطعها مفرغة في قالب واحد من الإجادة .

ماهية اللغة

« لسعادة أحمد فتحي باشا زغلول، (١) »

عرف الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهوره إلى معونة الجهاز
المخصوص الذي يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك
الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع أو المدفوعة بالإرادة للتعبير عن
حركة من حركات النفس . ينتج من هذا أن الكلام يتنوع
باختلاف الشارات التي تدل على الأفكار وأن تلك الشارات تنقسم
إلى قسمين : طبيعية وصناعية .

فالأولى : هي التي تصدر عن الذات من حيث هي : أي بمقتضى
وجودها المادى . وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد
والرأس والعين وبقية الأعضاء ومثل الأصوات التي ليست ألفاظاً
والكلام أى المنطق .

(١) أحمد فتحي باشا زغلول : هو نابغة الأمة العربية علماً وفضلاً ،
ونادرتها ذكاء وفهماً ، وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة الفصيحة التي لا يضيع
فيها معنى ولا يضطرب فيها لفظ وما انتفعت هذه الأمة في عصرها الحاضر بعلم
أحد من علماء انتفاعها بمؤلفاته ومترجماته ويمتاز في كتابته بالبيان والإيضاح
والدقة في وضع الألفاظ بإزاء معانيها فلا يتجاوز إقليلاً ، ولا يتخيل إلا نادراً
ولا يغرب ولا يتندر بحال من الأحوال .

والثانية : خارجة عن الذات وهي من تأثير الإنسان في الماديات
الخارجة عنه وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى أن لها دوا مآطويلا
كان أو قصيراً كالأعلام والنقش والرسم والحفر والكتابة .

وما تقدم يتبين أن الكلام الطبيعي عام لكونه مفهوما بذاته من
جميع الناس ومن الحيوان أحياناً كما هو الحال بالنظر لشارات الأعضاء
وأصوات الغضب أو الاستحسان من غير أن يكون هناك اتفاق سابق
على مفهوم تلك الشارات. وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي أو الاتفاقي
لأنه عبارة عن مجموع الألفاظ المخصوصة الموضوعة للمعاني المخصوصة
وعن التراكيب أو الصيغ الناتجة من تأليف هذه الألفاظ لتوصل
إلى الذهن بواسطة الأذن أو العين معاني مخصوصة متفقاً عليها .

وقد يتأني أن يكون الكلام الصناعي عاماً أي أن كل الناس
يدركون المراد منه كالرسم مثلاً، وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة
بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

والصحيح أن اللغة هي مجموع العادات المخصوصة التي تجرى عليها
كل أمة في التعبير عن أغراضها بواسطة الكلام أو الكتابة، وقد تقدم
بيان معنى الكلام .

ولا يصح إطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع إلا إذا كانت النسبة
تامة بين اللفظ ومدلوله لأن قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة بحيث
أن الأذن أو العين ترسم في ذهن السامع أو القارئ صورة المدلول كما
هي ولا يتم ذلك إلا باجتماع شروط ثلاثة :

الشرط الأول — أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره أبداً .

الشرط الثاني — أن تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعاً له .

الشرط الثالث — أنها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فإذا اشتق منها مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها .

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقية بهذا الاسم ثلاثة أيضاً :

الأول — أن يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن تمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا إلا إذا سهل استعمال اللفظ بقدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لأجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنيل هذه المزية ، اللهم إلا لغة علماء الرياضة بل ان اللغات الأخرى لن تنالها أبداً .

الثاني — الملازمة وهي الخاصة الموجودة في الألفاظ والتراكيب أي الصيغ ، تلك الخاصة التي يدرك بها الفاهم نظائر المدلول ونقائضه والملازمة تقتضي تحليل الفكر الإنساني وذلك غير ميسور عادة في اللغات الأصلية إلا نادراً .

الثالث — اوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين ولصناعة ترتيب الألفاظ وتركيب الجمل ترتيباً وتركيباً يلتفتي معهما الإبهام ويرتفع الشك والالتباس . ومن اللغات ما تميل بأهلها إلى الإغراب في التعبير

وهذا هو السبب في ظلمتها وتعسر فهمها ، وكلما كان القول طبيعياً أى بسيطاً ازداد وضوحاً ، فالبساطة هي أمثل طرق الكلام على أنها طريقة العلم والواقع وهي التي يسهل بها التعبير عن الأفكار وحركات النفس كما ينبغي .

وكأني بكم وقد استنتجتم مما ذكرت إلى الآن خطر مذهب التجوز أو الاشتراك في اللغة وذاكرتم أنه يذهب بجمالها ويخفي من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها من الأمم الأخرى . سمعت كلاماً كثيراً في اللغات الأجنبية وأن لها أصلاً أو أصولاً ترجع إليها وتستمد روح التجدد منها فأهلها في حل مما يفعلون وأما نحن فلا أصل للغتنا وينبشون على هذه المقدمة نتيجة هي أنه يجب علينا أن لا نعرب كلمة أعجمية لنضيفها إلى لغتنا العربية .

الحق أني ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فإني أنظر إلى اللغة اللاتينية التي هي أصل لغات أمم أوروبا المعروفة بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها فأجد لها لغات ممتازة تماماً عن ذلك الأصل ، بل أجد فرنساوي من حيث هو لا يعرف كلمة واحدة من أصل لغته وكذلك بقية من ذكرنا وأرى أن كل لغة حية هي لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها تماماً فإذا استعاروا لمحدث جديد اسماً من ذلك الأصل فإنما هم يستعبرونه من لغة أعجمية بالنظر إلى لغتهم ألا ترون أنهم لا يقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها إلى اليونانية

القديمه وأحياناً يستعيرون كلمتين : من كل لغة كلمة وينحتونها
ويصقلونها ويدمجون هذا المزيج في لغتهم فيصير جزءاً منها ويفسحون
له في كتب اللغة محلا بين كلمتين أصليتين بحسب ترتيب حروفه الأبجدية .
إنهم يعملون أكثر من هذا . إن لكل بلد عادات في أكلها
وسكنها ولباسها وأطوارها ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم لمسميات
لا يعرفها قوم آخرون إلا أن التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه
المسميات أو تجعلها تشاهد في أماكنها من النازحين إليها فيرى أهل
البلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لأهل البلد الآخر
ولا يجدون من لغتهم نصيراً على التعبير عنه تماماً لكنهم لا يختارون
ولا يقصدون الاجتماع تلو الاجتماع ولا يفترقون شيعاً أو حزاباً بل يقدمون
على تناول المسمى واسمه ويترجون عليه من ساعته فيمتزج بلغتهم ويعرفه
الكل ويتحرون في حديثهم أن يلفظوه كأنهم في نطقهم به أهله .
والأمثلة على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة أجنبية . هم
يعملون ذلك حتى في العلوم فترى الحكيم الفرنسي وهو يقرر مذهبه
عند ما يأتي على ما يخالفه من مذاهب الألمان إذا وصل إلى معنى خاص
بأحدهم لم يفكر أن يعبر عنه بغير لفظه وهكذا ، ثم يذكر بهامش
كتابه معناه .

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يثير عاطفة الحنان
والإشفاق عليها بل ما ازدادت لغاتهم بهذا الإطلاوة ويسراً بل تكاد
هذه الطريقة تجري عند الأمم الغربية عادة لتكون الألفاظ الغريبة

عن لغتهم برهاناً على سعة مداركهم ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلاً على مصدر المسمى ومذكرة بجزء من ترجمته .

قالوا إن ذلك جائز عندهم لتماثل أحرف هجائهم واتحاد صورها وأشكالها وأما نحن فلا قبل لنا بعمل ما يعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشكالها ولست أرى في هذا الاعتراض إلا أنه دليل أحد أمرين فإما شعور بعجزنا عن المجازاة لفتور في هممتنا أو قصور في معارفنا وإما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورها محتاجة هي أيضاً إلى الإصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصور تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون . وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون .

نحن إما عرب أو مستعربون . وإما أجنب عن لغة العرب أو مولدون فإن كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد أن بادوا فليس من له أن ينازعنا في استعمال ما كان مباحاً لأبائنا من قبلنا وإن كنا أجنب أو مولدين فمن له أن يسيطر علينا ويحرمنا ثمرة الكد في حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان .

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها إلى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاءً في بعض المواضع ذللوها وأخضعوا الغريب عنها لأحكامها فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على إدراك ما طلبوا من نور وعرفان .

نسبنا نحن أن زماننا غير زمانهم فكانوا أصحاب حول وطول
وذوى مجد وسلطان ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء على أنهم
في عزهم وبعد فخارهم وتمسكهم من أنفسهم لم يعتزوا بلذتهم فنفروا
من العجمة لأنها عجمة بل استخدموها حيث وجب الأخذ بها تمكيننا
للقتهم وحذراً من أن يصيبها الوهن إذا قعدوا بها عن مجارة تيار التقدم
وهم أولوا الرأي فيه وخوفاً من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ
مركزهم العظيم بين الأمم التي كانت تعاصرهم .

أيجوز لنا أن نتخلف عن السير في طريقهم والاسترشاد بهديهم
والعمل بطريقهم بحجة أنهم انقرضوا وبادوا فلا حق لنا في متابعة
الرقى ولا يجوز أن نخطو بعدهم خطوة إلى الأمام لكن من الذي استأجرنا
حراساً من الخرس على هذه الوديعة وبأى قوة أخضعنا على الوقوف
هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال
العزائم أنقص في الأفهام أم قصر في الأجسام أم جهل بأننا من البشر
لنا كل حقوق الإنسان ! .

ليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه وإن أصبح عديم الجدوى
وإلا فأولى بنا أن نكف عن الدرس والمطالعة وأن نكتفي من كل
شئ بما ورثنا عن الآباء فنعيش كما عاش الأولون . غير أنى أرجوكم
أن تتعلموا الصبر فلا تجزعوا إذا أصابتكم مصائب التقدم فتركتكم
آخر القوم ولا تجزعوا إذا هصرتكم عوامل الرقى فنيتم بمن يقف
متفرجاً عليكم وأنتم كالصور المتحركة الناطقة لكنها تتحرك بحركة

هي عبارة عن اهتزاز الشيء مكانه وتنطق بلغة دائرة قد دخلت من العلم الذي أصبح دارجاً على السنة المتفرجين .

خاف خصوم مذهبنا على اللغة العربية وحسبوها طعاماً سهل التناول والهضم في معبد اللغات الأعجمية فاستجاروا من التعريب وصاحوا إننا لا نطيق اسماً أعجمياً يدخل عليها .

أليست هي تلك اللغة الحافلة بالألفاظ والتراكيب العالية والقول الفصيح المصونة بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وهي لم تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها في كل عام بل إن هذا العمل مما يؤيدها ويشد أزرها ويرفع مقامها بين اللغات فلا يطمع الأعاجم في اعتبارها من اللغات الميتة .

قالوا ذلك يفسد علينا لغة القرآن ولا خوف على القرآن مادام في الوجود مسلم ، ألا ترون أن القرآن محفوظ مصون عند من لم يعرف العربية من المسلمين ؟ إليكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا تلك أمم تعد خلقاً كثيراً من المسلمين لا يعرف الواحد منهم غير لغة أمته وهو مع ذلك يحرص على القرآن أشد من حرص الجبان على دمه ، أيعجزكم أن تحافظوا على القرآن بيمينكم وتفسحوا المجال في لغتكم للتقدم باليسار لتناولوا السعادتين وتكونوا من الناجحين في الدارين ؟ .

قالوا العلم نافع ، قالوا كثير منه مخالف للدين قالوا الحضارة تهددنا فلتنقها ، قالوا هي تخالف الدين . قالوا حدثت مستحدثات فسموها قالوا حرام عليكم ان كنتم قائلين . من جراء هذا قال الفرنج عنا انا قوم جامدون وما جودنا الا من الدين فصحننا مع هذا وقلنا لهم بل انتم قوم ظالمون . مالنا وللدين نجره في كل أمر ونقيمه حازا في وجه كل باحث حتى في الأمور التي يأمر هو بتناولها . يأمرنا الدين بتعلم ما خلق الله وأن نسير على سنة التقدم التي سنها للبشر ونحن كل يوم في إحجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب .

عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم في هذا الوجود ولا تقدم لكم إلا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما يبتغون ، لكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس المعقول ، ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجود والعجمة تهددها على السنة العامة وهي لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة ، أقيموا في وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين .

حقيقة الشعر

« للأمير شكيب أرسلان ، (١) »

الشعر قول ثقيل وعبء عقلي باهظ لا يستقل به سوى الخنازيد (٢)
القرح (٣) ، والمخاوير السبق . ولا يجيده الا الناحعون (٤) الكمل أولو
القوة الباهرة والمُسنة (٥) الوثيقة والسليقة الفائقة والطبيعة الصافية
التي لا تتاح إلا للآحاد ، ولا يؤتاها إلا الأفراد . يكاد قائله يتجرد من
عالم المادة بقوة نفسه ، وشفوف حسه . ويلحق بالملا النوراني في
مضاء عزمه ، وورنى زنده ، وسرعة فكره . ولو كانت الكهر بائية
شخصاً لكانت هي الشاعر .

(١) الأمير شكيب أرسلان : شاعر من عيون شعراء العصر ، وكاتب من
أقدر كتابه على البيان الفصيح واللفظ الجزل ، ويمتاز في الصناعتين بسرعة
البدئية والذهاب مذهب الطريقة البدوية في الأسلوب ، وهو أحد علماء
الأدب الذين لا ينطقون إلا عن علم راسخ وأدب مكين ، ولو كان للأدب عنده
من الحظ ما للسياسة لرفع من شأنه ما قصرت عنه أيدي سواه .
(٢) الخنازيد : الشاعر المجيد .

(٣) القارح من ذى الحافر : الذى شق نابه وطلع .
(٤) يقال : نخع بالأمر ، إذا كان به خيراً .
(٥) المنة : القوة .

وحسبك أن الأولين الذين لهم الأولوية في البيان كما في الزمان كانوا يحسبون الشعر قوة من وراء الطبيعة وربما جعلوا له شياطين، وكان الشعر في الجاهلية دولة ومملكة وإذا أجاده واحد تهيبوه تهيب الأمراء، وأجلوه إجلال الرؤساء. وإذا تذبذبوا في الإيمان برسول بهرتهم آياته، وأخفمتهم معجزاته، أحالوا إعجازه على الشعر كأنه الدرجة الثانية التي يمكن أن تنزل عنها الآيات من عتبة الوحي. نعم إن الشعر قوة روحية يفيضها الله على من يشاء من عباده فتخلق بالشاعر، تخلق الأجنحة بالطائر، وتطوف به في سبع سموات الخيال فيرى الطبيعة في أفخم مشاهداتها، وأشنع شرفاتها، وأبهى مجالها وأشجى أصواتها، وأذكى أعرافها. وينفث ما مشاهده من هذه المراتي المجسمة في قوالب من النطق فتسق الله بها لسانه الهائل فجاءت شبيهة بموضوعها وتحدر بها تحدر السيل في صلب وهتف المقام بالمقيم وطلب العلو بعضه بعضاً، وتجاذب البدائع، وصدقت نسبة الروائع ففصل الكلام عما شئت من فكر سام ومقام شريف وما أردت من معنى بكر ولفظ فحل، لذلك قيل: إن الشعر هو لغة تامة.

وإذا تغلغل الشاعر في أنحاء النفس وأحشاء القلب وهام في أودية الانفعال وأخذ يودي من هناك ما يلقيه إليه مضاعفاً هووى ملح وشوق هاف وحب شاغف وتمن وأصب وتوسل هالغ ورغبة ورهبة وإيمان كإيمان العجائز ثم أب من أودية إحساساته وأعطاف فراساته بذلك

إلى سامعيه : أشجى وأصبى ، وأرقص وأبكي ، وأحرق وروى ، ونضر
وأذوى ، وأياس وأرجى ، وأفقر وأغنى ، وأسعد وأشقى ، وبلغ من
كل مقام الغاية القصوى ، وجذب بأفنان سدره المنتهى .

فالشعر إذن مظهر المرء في أسنى خواطر فكره وأقصى عواطف
لبه وأبعد مرامى إدراكه والشعر هو رؤية الإنسان الطبيعة بمرآة
طبيعته ، فهو شعور عام وحس مستغرق يأخذ المرء بكليته ويتناوله
بجميع خصائصه حتى يروح نشوان خمرته أسير رايته ويريه الأشياء
أضعافاً مضاعفة ويصورها بألوان ساطعة وحلى مؤثرة تفوق الحقائق
وربما أزلت بها وصرفت النفس عن النظر إليها فهو أحياناً أحسن
من الحسن وأجمل من الجمال وأشجع من الشجاعة وأعف من العفاف ،
وان الظبي في قصيدة غير الظبي في فلاة بل غير الظبي في مُلاءة وإن
الأسد في منظومة غير الأسد في مفازة وذلك حيث كان الشعر كلاماً
يلقى بلسان الإحساس ونطقاً ينزل عن وحى الخيلة وأوصافاً يقضى بها
الشوق وإنما كانت المبالغة زيادة على الحقيقة لتمكين السامع من
الوصول إلى مقدار الحق والحرص على أن لا ينقطع منه قسم على
طريق الإلقاء وفي أثناء الانتقال فكأن هذه الزيادة جعلت لتمام
الفراغ الواقع بين المدرك والمدرك حتى لا يصل إلى الذهن إلا كاملاً
بكل قوته ولا يحل في العقل إلا بجميع حاشيته .

وللشعر سعة المذهب والتفنن في شعوب القول بحسب ما تقتضيه
المطالب فهو ملك الكلام يتصرف فيه كيف يشاء ، فيه تجسيم المجردة

وتجريد المجسم وتشبيه المجردات بالمحسوسات وتلطيف المحسوسات
الى درجة المجردات فتارة يحسّم المجرد حتى يكاد يحس ويُمس وتقع
عليه الأيدي وتنعكس أشعة نوره على العين وتهتز دقائقه فتهز
بالهواء طبلة الأذن وطور أهفهف (١) به الملبوس ويهلل حتى يشفّ
شفوف البلور ، ويسطع من ورائه النور ، فإذا شاء هلل وإذا شاء
أجزل وإذا شاء أذاب وإذا شاء أجمد وكأنه كيمياء الكلام يُركب من
أجزائه ما يريد ليبرم الصورة التي يرسمها الخيال .

وعليه فهما يكن من ذلاقة المنطق وقوة التأدية وعلو اللسان المترجم
به ذلك الشعور السامى فأنى للكلام أن يحيط بهاتيك الانفعالات وأنى
للشاعر أن يتغنى لسانه بكل ما يتغنى به جنانه وأين الثريا من يد
المتناول فإن اللغة رموز محدودة وإشارات مخصوصة وهى تطمع أن
تعبّر عما فى النفس البشرية والنفس البشرية عالم بنفسه لا تدرك له
البصيرة أفقاً وبحر لا تعرف له قراراً ولذلك كان أشعر الناس أمكنهم
من هاتيك الخيالات وتلك العواطف أن يزفها فى أبهج حلاها وأسطع
ألوانها، هذا هو أتم الناس لغة .

فكيف لا يكون بعد ذلك الشعراء أمراء الكلام وملوك الألسنة
ولا يكون لهم التصرف باللغات واليد العليا فى النزاع والإثبات والشعر

(١) هفهفه : جعله مهفهفاً ، وهو الضامر أو الرقيق .

يبقى بقاء الشمس ويسير مسير الأرض ، وقد رواه الخلف عن السلف
وتدارسه الناس منذ أيام العرب البائدة وحفظوا شعر جديس وعاد ،
وقد محيت رسوم إرم ذات العماد . وكان من آل امرئ القيس ثلاثون
ملكاً بادوا وباد ذكرهم وبقي ذكره وحده بما أمسكه من شعره وممكنه
من قوله السائر في الأعقاب ، المتسلسل في الأيام تسلسل النطف في
الأصلاب ، وأى رجل من اليونان بقي ذكره بقاء ذكر هو ميروس مع
كون بعضهم شك في مجرد وجوده ، بل أى صغير من صغار العرب
لا يسمع بذكر المتنبي ولا يُحل اسمه في أوائل الأسماء التى تطرق
ذاكرته ويتعلمها منذ طفوليته وقد لا تعرض له أسماء أشهر الملوك إلى
زمن كهولته .

نعم إن الشعراء هم سدنة هياكل البيان وبهم تحفظ اللغة ومنهم
يعرف تاريخ العقل البشرى وعليهم معول القلوب إذا أصدرتها
الكروب ، وإن أبقي آثار الأدميين هو القول وأبقى أصناف القول
هو الشعر لأن النثر كما يقال يتناثر ثناثر الشرر . والنظم يرسخ رسوخ
النقش في الحجر . بل قد تمحى النقوش من صفحات الحجر ولا تمحى
من رؤوس البشر .

مقابلة

بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي

« للشيخ نجيب الحداد ، (١) »

Generalities

الشعر هو الفن الذي ينقل الفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال ،
والكلام الذي يصور أرق شعائر القلوب على أبداع مثال ، والحقيقة
التي تلبس أحياناً أثواب المجاز ، والمعنى الكبير الذي تبرزه الأفكار
في أحسن قوالب الإيجاز ، وأخفى وجدانات النفس تتمثل للمرء فيحسبها
سهلة وهي منتهى الإبداع والإعجاز . بل هو الأنة التي تخرج من قلب
الشكلان ، والنخمة التي يترنح لترديدها الطروب الذشوان ، والشكوى التي
تحفف لوعة الشاكي ويأنس بها المحب الولهان . بل هو الحكمة يجدها
الحكيم فيبرزها بما يليق بها من محاسن اللفظ ، ويوازن بين أجزائها

(١) الشيخ نجيب الحداد : كاتب من أحسن كتاب هذا العصر ، وشاعر
من أرق شعرائه ، ومترجم من أقدر المترجمين على الترجمة السهلة الفصيحة
السائغة ، ولقد مر على وفاته بضع سنين ولم أر بين السوريين ولا المصريين
من سلك مسلكه في ترجمة الروايات الإفرنجية ، ولو لم يكن له من الآثار
إلا رواية « غصن البان » ورواية « الفرسان الثلاثة » لكفاه .

موازنة تجبب ورودها على الأذن وتقرب منها من الحفظ ، والجمال
 تراه العين فتحب أن تحفظ ذكره فتبقيه صورة ماثلة يراه بها من لم
 يكن قد رآه ، ومن نظر في تاريخ الشعوب وسيرة الأمم لم يجد شعباً
 ولا أمة بلغت غاية من المدنية أو تأخرت درجات في الهمجية ، إلا كان
 للشعر منها نصيب وللنظم بين أفرادها سجية . يدل ذلك على أن الإنسان
 شاعر كما هو ناطق بالطبع وأن الطبيعة تقتضى التوازن والانتظام
 في عناصرها وسائر كائناتها وأحوالها ، وما أحسب الشحورور يغني
 والقمرى ينوح إلا ولهما من انتظام تغاريدهما طرب ومن وزن
 الحانها سرور هو مسرة الشعر في النفس وطيب أوزانه على الأذن
 وخفة تقطيعه على الحواس ، وما الغناء لولا توازن نسباته وتشابه
 إيقاعه إلا صوت يمل لا معنى له ولا تأثير فيه .

ولقد أولعت بهذا الفن منذ الصبا وصرفت له من أوقات الفراغ
 برهة طويلة قرأت فيها دواوين العرب ونظم المجيدين من شعرائهم ثم
 قرأت كثيراً من شعر الفرنسيين وشعر غيرهم منقولاً إلى لغتهم كشعر
 اليونان والرومان والإنكليز والألمان والاطليان وكلهم من شعراء الدنيا
 المعدودين الذين لم تُترجم أقوالهم إلى اللغة الفرنسية إلا لشهرتها
 وإبداع ناظميها مثل هوميروس وفرجيل وناس ودانتي وشكسبير
 وشيلر وأمثالهم من أئمة الشعر الإفرنجي الذين تضرب بهم الأمثال
 ويستشهد بأقوالهم في كل مقال . وقد سألتني من لا تسعني مخالفته أن

He has been asked to write his opinion

أستعين بما توصلت إليه من قراءة الشعرين العربي والإفرنجي على وضع
مقالة أبين فيها المقابلة بينهما وأتكلم عن الفرق بيننا وبين أهل الغرب
في معاني الشعر وأنواع إيرادها وأذواق ناظميه وطرائق البيان في
مآخذها وإبراز المقاصد منه إلى ما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية
والمعنوية عند كل من الفريقين هو ولا شك مطلب عسير ونية (١)
بعيدة تقف دون غايتها سوابق الأقلام . وتحسّر دون إدراكها بصائر
الافهام . إذ ينبغي للكاتب أن يعلم لغة كل شاعر من هؤلاء الشعراء
ويعرف منزلته الشعرية في أهل لسانه ويكون قادراً على الحكم في شعرهم
وبيان الفرق بينه وبين الشعر عندنا مما يستلزم علماً كبيراً وخبرة واسعة
بجميع هذه اللغات .

ولكنني لست في شيء من ذلك ولا أنا في هذا البحث من حيث
الفصاحة اللفظية والتراكيب اللغوية بل أنا أتعرض للكلام فيه من
حيث المعاني الشعرية التي وقفت عليها منقولة إلى اللغة الفرنسية عن
جميع هذه اللغة وأقابل بينها وبين الشعر العربي من هذا الجانب المعنوي
فقط أي من حيث إبراز المعاني العقلية التي تدلّ على مقدرة الشاعر
ومنزله من النبيل والحكمة مع بيان شيء من قواعد الشعر في لغة
الفرنسيين التي عنها أنقل كلها رأيت من شعر الجميع ممثلاً فيها بتمام

(١) النية : الوجه الذي ينويه المسافر .

معانيه ، وما أنكر أن نقل الشعر إلى النثر وتصوير المعاني الشعرية في
قوالب نثرية ولا سيما إذا كانت تلك القوالب من غير اللغة التي وضعت
فيها مما يحط قدر النظم وينزل به عن رتبة البلاغة التي كان يمتاز بها في
لسانه الأصيل ولكن الشعر الإفرنجي قد يكون واحداً تقريباً من هذا
القبيل إذا أكثر اصطلاحاتهم الكلامية وضروب تعابيرهم اللفظية قلما
تفاوتت في درجات البيان ووجوه الإيضاح والتعبير لأنها كلها ترجع
إلى أصل واحد وهو اللغة اللاتينية التي هي أم لغاتهم جميعاً وعنهما يشتق
أكثر ألفاظهم ومسمياتهم وطرق الإنشاء عندهم بحيث أنك لو نقلت
كتاباً من الطليانية مثلاً إلى الفرنسية لم تكدر تحتاج في نقله إلى
الزيادة على ترجمة الألفاظ بأعيانها ومواضعها دون تغيير يذكر في
أسلوب العبارة أو تنسيق مفرداتها على الوجه النحوي إذ النحو في
كلتا اللغتين متقارب لا يكاد يتباين إلا في النادر وضروب البلاغة
الإنشائية متشابهة لا يكاد يختلف فيها الذوق عن الذوق إلا اختلافاً
يسيراً في مواضع لا تذكر ، وبخلاف ذلك اللغة العربية وغيرها من
اللغات الشرقية فإن النقل عنها مثل النقل إليها يستلزم تبديل العبارة
كلها بجميع وضعها تقريباً وتقديم كثير من ألفاظها أو تأخيرها وربما
أدى الأمر بالناقل إلى تغيير الأصل بجملة إلى معنى يقاربه لعدم
اتفاق المعاني بين اللغتين وتباين أذواق أهلها في وجوه التعبير
وأساليب المجاز وطرق الاستعارة مما يرجع إلى مألوف كل من
الفريقين في حال الحضارة وهيئة الاجتماع ولذلك كان أكثر الأشعار

الإفرنجية المنقولة الى اللغة الفرنسية لا يفقد من جمال معانيه الشعرية شيئاً سوى ما كان عليه من طلاوة النظم ورونق القالب الشعري وكان من وقف على تلك الأشعار منقولة الى هذه اللغة كأنه وقف عليها في لغتها من حيث دقة المعاني وابتكارها ودرجة ناظمها في مقام الشاعرية وذقك لما قدمناه من اتفاق أكثر هذه اللغات في أصولها وقرب المشابهة بينها في بيان العواطف والوجدانات ولا سيما وأن أصحابها في نظمهم إنما يعولون على دقة المعاني وحقائق الأفكار أكثر مما يعتمدون على رشاقة اللفظ وزخرف الأساليب إذ لغاتهم أضيق من لغتنا كثيراً وقلما تختلف أنواع التعبير عندهم بالنسبة الى اختلافها واستفاضتها عندنا بحيث أنهم لا يجدون لإبراز المعنى صيغة أو صيغتين إلا وجدنا له نحن عشر صيغ أو أكثر نتفنن بها في إبرازه، وتختلف درجة الشاعرية عندنا باختلاف الإجادة والتقصير فيها وهي المزية التي امتازت بها لغتنا العربية عن غيرها من سائر اللغات ..

ولا بأس قبل الدخول في هذه المقابلة التفصيلية بين أشعارنا وأشعارهم أن أورد للمطالع نبذة إجمالية عن أصل الشعر عندنا وعندهم ودرجات ارتقائه في سلم الكمال من حيث نشأته الى هذا العهد وما تقلب عليه من أحوال المعاني وشؤونها بتقلب الأيام على أصحابه من الشعوب إذ هو مرآة الأخلاق وتاريخ ما كانت عليه الأمم في مراقب تقدمها وحضارتها الى الآن، وأبدأ من ذلك بما يقوله الإفرنج عن أصل الشعر عندهم وكيفية تدرجه ووصوله إليهم على سلسلة أول حلقاتها بدء

الشعر في العالم منذ عهد آبائنا الأولين وآخرها ما صار إليه على عهد شعرائهم في هذا العصر نقلا عن فكتور هيجو أكبر شعراء الفرنسيين وأشهرهم في هذا الفن قال :

Three Ages - poetry

إن الهيئة الاجتماعية التي تعمر الأرض اليوم لم تكن هي نفسها التي كانت تعمرها من قبل بل إن المجتمع الإنساني قد نشأ ودرج وشب كما ينشأ الواحد من أفرادها فكان صبيا ثم صار رجلا ثم نحن الآن نشهد شيخوخته الكبرى . ولقد كان قبل الأوان الذي يسميه المعاصرون عهد الخرافات أو أن أقدم منه يسميه السلف العهد العتيق وأولى به أن يسمى عهد الأولين وبه تحصل عندنا ثلاثة عهود للمجتمع البشري ، من يوم نشأته إلى هذا العصر ، ولما كان كل مجتمع له شعر بخصوصه يمتاز به عن سواه فقد رأينا أن نبين هنا ما كان من المزية الشعرية لكل عهد من هذه العهود الثلاثة التي هي أطوار الحياة الاجتماعية من بدء نشوئها وهي عهد الأولين وعهد الخرافات والعهد الحاضر وهو يشمل ما كان من الأعصر الوسطى إلى الآن .

فقد خلق الإنسان جديداً في العهد الأول وخلق الشعر معه بالطبع إذ هو مفطور عليه فكانت أشعاره الأناشيد والأغاني الروحية طبقاً لما كان يرى حوله من عجائب الله وآياته ، ثم هو قد كان قريب العهد بصنع الله له فكان شعره الصلاة والابتهاال وكان لعود النظم عنده ثلاثة أوتار لا يرن على سواها وهي الخالق والخلقة والنفس ، ثم إن

الأرض كانت قفراً خالياً ينقسم سكانها إلى أسر لا إلى قبائل ويسمى
حكامها آباء لا ملوكاً وكان العيش فيها على دعة وسعة ليس فيه اجتياز
أرضٍ مخصوصة ولا شريعة ولا نزاع بل هو عيشه رعاة رحل هي
مهد كل حضارة ومدنية ولكنها لم تكن في شيء منهما على الإطلاق
وكان فكر المرء فيها كحياته أشبه بسحابة سارية تتغير أشكالها وتختلف
مجاريها باختلاف ما يهب عليها من الرياح وهذا هو الإنسان الأول
بل الشاعر الأول ويدعى عهده عهد الخليقة أو عهد الأولين .

ثم تدرج العالم في مراقي فطرته الكمالية فانسع نطاق العمران
وامتدت حدود الاجتماع فصارت الأسرة قبيلة ، والقبيلة أمة وشعباً
والتف كل هذا المجموع على قطب واحد جعله مركز عمرانه فذشأت
من ذلك الإمارات والدول وقام المجتمع المدني مقام القبائل الراحلة
واختط المصر الواسع مكان الحلة الصغيرة وشيد القصر الرفيع مكان
الخيمة المضروبة وبنى الهيكل العظيم في موضع خيمة الاجتماع وبقى
أولئك الرؤوس رعاة ولكنهم صاروا رعاة شعوب بدل القطعان
واستبدلوا عصا الراعي بالصولجان . ثم ضاقت الأرض بسكانها
وشعوبها فصدم بعضهم بعضاً فكانت من ذلك الحروب والغارات وكان
الشعر مرآة لكل تلك الأمور تنعكس عنه وتلوح صورها فيه فانتقل
بها من حد بيان الأفكار إلى حد وصف الحوادث وتصويرها فانتظم
في سلكه تاريخ العصور والشعوب والدول وتدوين المواقف والحروب

Homer

والحكايات وخرج من ذلك هو ميروس الشاعر اليوناني المشهور وفي قصائده وحدها صور تلك الأعصر كلها وبيان وقائعها وحوادثها ووصف مشاهيرها وأبطالها وآلهتها طبقاً لما كان عليه الشعر في ذلك الحين من الجمع بين الدين والدنيا وحقيقة التاريخ وأوهام الخرافات.

myths?

Christianity

ثم دخل العالم بعد ذلك في حال جديدة هي النصرانية التي درجت من مهد الشرق فكان الغرب مجتمع أنوارها وهدمت مباني تلك الخرافات القديمة ووضعت أساس المدنية الصحيحة على آثارها وأعلنت الإنسان أن له حياتين حياةً فانية وحياةً خالدة وأنه مثل حياته مؤلف من عنصرين حيوان ونطق ونفس وجسد وفصلت بين النسم والأجسام فصلاً بعيداً ووضعت بين الخالق والمخلوق فرقاً شاسعاً فارتقى بها عقل الإنسان من حال إلى حال وتحولت أخلاقه التي هي تلو عقائده من صيغة إلى صيغة أخرى وانتقل الشعر عنده من دائرة الوهم إلى حد الحقيقة ومن الخيال الخرافي الكاذب إلى المعنى الحسي الصحيح حتى بلغ ما هو عليه في هذا العصر ، اهـ .

modern period

The East

أما الشعر العربي فلم يكن في شيء من تاريخ الشعر الإفريقي في تباعد أطواره وشدّة التباين في تنقله من حال إلى حال على ما بينه الكاتب الفرنسي فيما نقلناه من كلامه وإنما هو شعر منفرد في نفسه نشأ في بلاد العرب بخصوصها وأجراه الله على ألسنة العرب وحدهم دون غيرهم لم يأخذوه عن أحد متسلسلاً كما أخذ الإفريقج شعرهم عن اليونان

Arabic did not change much even
when Bedouin life was substituted by civilized life
— ١٢٨ —

والرومان ومن قبلهما ولم يأخذ أحد عنهم كما أخذ عن غيرهم بل بقي
منحصر آفيهم تناولوه إرثاً عن الطبيعة في بداوتهم ولم يورثوه أحداً
من غير قبائلهم والناطقين بلسانهم وجل ما كان من تقلب أطواره عندهم
أنه لما انتقل إلى الحضر أو لما انتقلت بدواة العرب إلى الحضارة المدنية
لم يطرأ عليه سوى تغيير بزمته بتنقيح بعض ألفظه وتخفيف السهل
المانوس منها وإطراح الكلم الوحشي الذي تأباه رقة الحضارة وآداب
اجتماعها وأما ما سوى ذلك من نسق نظمه وديباجة معانيه وطرائق
إنشائه وبيان المقاصد منه فإنه لم يكدهم تغيير في شيء منها إلا ما دعت
إليه حالات الحضارة في بعض مصطلحاتها ومستحدثات عاداتها بل هم
لا يزالون على المجرى العربي القديم في وصف الديار والبسكاء على
الأطلال والنشيب بالمحبوب وتقديم الغزل والنشيب بين أيدي ما يقصدونه
من الأغراض ونظم الحكم والأمثال في أثناء ما يعرض لهم من صنوف
الكلام وربما خرجوا عن ذلك إلى ما أحدثته عندهم الحالة من وصف
الرياض والقصور ومجالس الشراب وأمثالها مما لم يكن معروفاً في
الجاهلية أو كان مخصوصاً بالمترفين منهم ممن اتفقت لهم مثل تلك الحالات
وبالجملة فهم قوم جرى الشعر على ألسنتهم كاملاً فيما نرويه عنهم إلا إذا
كان قبل ذلك شيء لم يبلغنا مما لم ينقله لنا التاريخ ولعل أول ما نطقوا
به منذ هذا النوع المعروف بالرجز وهو منزلة بين الشعر والنثر يلتزمون
في كل بيت منه قافيتين فقط على نحو ما نراه في الشعر الإفرنجي ليومنا
هذا ثم تطرقوا منه إلى سائر الأوزان يلتزمون فيها القافية الواحدة

في جميع أبياتها . وكان شعرهم في أول أمره مقصوراً على حوادث
أنفسهم والإبانة عما يُمكنه الشاعر من شكوى أو وجدان أو حكاية
واقعة غرامية أو حماسية يبرزون المعاني الشعرية في ذلك كله كما تصور
لهم نفوسهم مجردة عن الاختلاق ودعوى غير الحقيقة وحكاية
حوادث وهمية بما درج عليه المولدون بعد ذلك ، وإذا خرجوا إلى
المدح لم يمدحوا الرجل إلا بما فيه ولم يذكروا من حسناته إلا ما صدر
عنه فعلاً كما أنهم إذا رثوا مفقوداً لم يرثوه إلا بما تنفجع به قلوبهم من
الحزن عليه وبيان أخلاقه وصفاته كما نرى ذلك في قصائدهم الجاهلية
والمخضمة كقصائد زهير في هـ ر م بن سنان وقصيدة كعب في مدح
الرسول واستعطافه ، وأمثال ذلك فإنك لا تجد هناك اختلافاً في المدح
ولا تطرفاً في الإطراء ولا إفراطاً في الثناء إلا ما جرى على طريق
الاعتدال ولم يخرج عن حد المقبول السائغ في الإفهام على غير ما صار
فيه المدح بعد ذلك من الغلو الزائد وكثرة التشعب في إبراز المعاني
الخيالية والصور الوهمية والخروج تارة إلى المحال حيث يجعل المادح
مدوحه حاكماً على الدهر ويضع في يديه أزمة الأقدار ويقرب عليه
تناول النجوم لو أرادها ويوصل حد حكمه إلى الشمس والبدر توسعاً
في المعاني وتفنناً في إيرادها وتصويرها كأنهم لما انتقلوا من حالة
البداوة الجاهلية التي هي البساطة والفطرة إلى حالة الحضارة التي هي
سلم الارتقاء ومدرجة التأنق في سعة العيش وترف النعمة ورأوا
غير ما كانوا يألفونه من أبهة المُلْك وزينة الحضارة انتقلت معانيهم
الشعرية أيضاً على هذا الذوق تدرجاً معهم في مراقي المدنية وجعل

الشاعر يزخر ف معاني شعره كما يزخر ف منزله ويتفنن ف إبراز مقاصده
كما يتفنن ف طعامه ولباسه ويرتقي بها ف سلم الخيال الذي هو تلو الحقيقة
كما ارتقى ف سلم الحضارة التي هي رديف البداوة والفطرة إلى أن بلغ
الشعر عندنا مبلغه المعروف لهذا العهد لم يتحول عن حقيقة أصله

ونسق نظمه إلا هذا التحول النسبي . Comparison between East & West.

أما الفرق الفاصل بين الشعر عندنا وعندهم فعلى نوعين: لفظي ومعنوي، FORM.

أما اللفظي فهو ما تعلق بالوزن والقافية فإن وزن الشعر عندهم يتألف
من الأهجية اللفظية وهي كل نبرة صوتية تعتمد على حرف من حروف
المد سواء كان ذلك الحرف وحده أو مقترناً بحرف صحيح ويسمون
هذه الأهجية ف اصطلاحهم الشعري «أقداماً» وبها تنقسم أبحر الشعر
عندهم على حسب أعدادها ف البيت فيكون أطولها ما تركب من
اثني عشر هجاء وهو ما يسمونه الوزن الإسكندري نسبة إلى الإسكندر
وأقصرها من هجاء واحد فقط بحيث يسوغ للشاعر عندهم أن ينظم
القطعة يوزن أول أبياتها اثني عشر هجاء ثم أن ينزل فيها بالتدريج إلى
أن يختتمها بهجاء واحد على ما يشبه بعض التواشيح الغنائية عندنا تقريباً،
ولكن أكثر الأوزان شيوعاً بينهم هو الوزن الإسكندري ومنه
أكثر قصائدهم ورواياتهم ولكن يشترط ف البيت الذي يكون من
هذا الوزن أن ينتهي كل شطر منه عند الهجاء السادس بحيث لا تنقطع
الكلمة ف وسطه إلى سطرين بخلاف الشعر العربي الذي يجوز وصل
السطرين منه بكلمة واحدة وهو المعروف عندنا بالمدور . ولكنهم

feet

Alexan-
drine

caesura

يخالفون العرب في هذا القيد بأنهم يصلون بين البيت الأول والثاني في المعنى واللفظ جميعاً بأن يجعلوا الفاعل قافية للبيت ويضعوا مفعوله في أول البيت التالي ، بحيث يضطر القارئ له ألا يقف عند القافية بل يصلها بما بعدها في الإلقاء ، وهو المذهب الذي أنشأه فيكتور هيجو أخيراً وعليه أكثر شعرائهم اليوم ؛ وبخلاف ذلك العرب فإن هذا يُعد عندهم من العيوب ولا يتساحون بوقوع شيء منه في أشعارهم ولو وقع في كلام أخل شعرائهم كالنابغة الذبياني حيث يقول :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ ، إني شهدت لهم مواقف صادقات شهدت لهم بصدق الود مني

لا يخفى أن إقامة الوزن في الشعر الإفرنجي على عدد الأهجية مما يسهل نظمها كثيراً ويبيح للشاعر أن يقدم ويؤخر في ألفاظ البيت ما شاء ويضع في أثنائه اللفظة التي يريد ما ولا يختل معه الوزن عكس الشعر العربي الذي يعتمد وزنه على التفاعيل من الأسباب والأوتاد فإن تقديم الحرف الواحد أو تأخيره قد يؤدي إلى اختلال الوزن بحملته أو ينقل البيت من بحر إلى بحر آخر كما هو معروف عند أرباب هذا الفن . وبما نخالف الإفرنج فيه مخالفة لفظية مسألة القافية فإنها عندهم لا تلزم الشاعر في أكثر من بيتين ولذلك كان شعرهم أشبه بالأراجيز عندنا على ما قدمناه قريباً ولكن لهم فيها قيداً آخر لا وجود

له عندنا وهو أنهم يقسمون القوافي إلى مؤنثة ومذكرة ويقتضون أن تكون كل قوافي القصيدة مؤنثة فمذكرة على التوالي بحيث لا يتوالى على قافية مذكرة أو مؤنثة ، ويريدون بالقافية المؤنثة ما كانت مختومة بحرف صحيح فهم أبدأ يعاقبون بين هذه القوافي إلى ختام القصيدة .

وإنما جعلوا أبيات شعرهم على قواف متعددة لأن لغتهم ضيقة قليلة الألفاظ لا تتسع لالتزام قافية واحدة في القصيدة الطويلة على خلاف الشعر العربي الذي له من اتساع لغته واستفاضة ألفاظها أكبر نصير وأوفى مدد على تعدد قوافيه والتزام الحرف الواحد فيها ومن الغريب أنهم مع توسعهم في القافية بكثرة تغييرها وعدم التزامها وجواز تكرارها نجدهم أكثر الناس شكوى من صعوبتها وقلة الظفر بالمحكم المتين منها ، حتى أن فولتير نفسه وهو من أكبر شعرائهم كان يتظلم منها ويسمى النير الثقيل والظالم الشديد وأن شاعرهم بوالولما امتدح مولير الشاعر الروائي الشهير قال « علمني يامولير أين تجد القافية » ولا تنكر أن شعراء العرب يفتخرون بالقافية في شعرهم ويتباهون بالوقوع على المحكم منها ويمدحون شاعرهم بأن القوافي تنقاد له وأنه يضعها في أماكنها ، ولكن شتان بين من يفخر بالقافية وهو يلتزمها في كل أبيات قصيدته وبين من يفخر بها ويعدها نيراً ثقيلاً وهو لا يلتزمها إلا في كل بيتين من أبياته .

40.112

Voltaire

Bolton

Molire

ثم إن عندهم خلا ذلك نوعاً من الشعر يسمونه «الشعر الأبيض» وهو الذي لا يلتزمون فيه قافية بل يرسلونه إرسالاً ولا يتقيدون فيه بغير الوزن ، وأكثر شيوع هذا النوع عند الإنكليز وعلميه أغلب منظومات شاعرهم شكسبير أخذاً عن الشعر القديم. ومن اصطلاحهم في النظم أنهم يخالفون بين أبيات القصيدة في قوافيها بأن يفرقوا بين كل بيتين من قافية واحدة بيتين آخرين من قافية أخرى على ما يشبه نسق الموشحات الأندلسية عندنا إلا أنهم توسعوا في المقارنة بين الأوزان توسعاً زائداً حتى صاروا ينظمون المقطوع الواحد من الشعر على عدة أوزان مختلفة لا ينطبق مجموعها على الذوق السماعي إذ بينما الأذن تسمع وزناً في بيت إذ بها قد انتقلت فجأة إلى وزن آخر ومنه إلى غيره دون أن تستقر على وزن معلوم وهو مما لا يوجد عندنا إلا في بعض الموشحات المذكورة التي لم يعد أحد ينسج على منوالها في هذه الأيام .

هذا يحمل ما نبين الإفرنج فيه من حيث اصطلاح الشعر اللفظي ومقتضيات قواعده وأوضاعه ، وأما الجهة المعنوية فأول ما يخالفوننا فيه أنهم يلتزمون الحقائق في نظمهم التزاماً شديداً ويبعدون عن المبالغة والإطراء بعداً شاسعاً ، فلا تكاد تجد لهم غلوّاً ولا إغراقاً ولا تشبيهاً بعيداً ولا استعارة خفية ولا خروجاً عن حد الجائز المقبول من المعاني الشعرية في جميع وجوهها ومقاصدها فهم من هذا القبيل أشبه بالعرب في جاهليتهم إذا مدحوا لم يبالغوا إذا وصفوا لم يُغربوا وإذا شهبوا

the western poets are moderate
like the pre-Islamic

The Arabs have moderation some time & extravagance
at other times which this man considers an advantage

— ١٣٤ —

لم يُبعدوا في التشبيه وإذا رثوا لم يتعدوا صفات المراثي وأخلاقه في
المعاني السهلة المقبولة على خلاف ما صار إليه شعر العرب بعد الإسلام
من الإغراق والخلو والمغالاة في الوصف إلى ما يفوت حد التصور
والإدراك مما أشرنا إليه في فاتحة هذا المقال. غير أننا إذا خالفناهم في
أكثر هذا الأمر فنحن معهم على اتفاق في بعض أطرافه أي أنه يجوز
عندنا كل ما يجوز عندهم من هذا النحو ولا يجوز لديهم كل ما يجوز
لدينا منه بحيث كنا جامعين شعرهم من هذا القبيل وزائدين عليه
ما انفردنا به دونهم من ذلك الإغراق ، وكنا نقدر أن نقول
« أعذب الشعر أ كذبه وأحسنه أ صدقه » وهم لا يقدر أن يقولوا
إلا أن أحسن الشعر أ صدقه فقط . ومن وقف على ما في ديوان الحماسة
من شعر العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ووقف على شعر الإفرنج
اليوم رأى أن لافرق بين الشعرين في بساطة المعاني وصدق التشبيه
وحقائق الوصف ، وعجيب كيف يكون كمال الشعر عند الإفرنج
في عزة مدنيته وتمام حضارتهم مشابهاً لبدء نشأته عند العرب في إبان
جاهليتهم وخشونة بداوتهم على أننا إذا شابهنا الإفرنج في شعر جاهليتنا
من حيث البساطة والتزام الحقائق وبيانهم كثير آ في شعرنا الأخير من
عهد المتنبي إلى اليوم من حيث الإغراب في المعاني والمغالاة في الوصف
بما يخرج الكلام عن حد الحقيقة أحياناً أو يلبس الحقيقة الصغيرة منه
الثوب الطويل الصافي من المجاز والإيهام حتى يكاد ينكرها الخاطر
وتبدو له على غير وجهها المعروف إلا أن ذلك لا يرد في شعرنا إلا

simpler
truth

the Arabs are only extremists & artificial
when they deal with - ۱۳۵ - love poetry & Eulogy....

من بعض الوجوه المعدودة كالغزل والمدح وأشباههما مما يوافق الخيال
ويجری مع وهم النفس ويقصد به تصوير الوجدان الخفي أكثر مما
يقصد به تقرير الحقيقة الراهنة ولذلك تفنن فيه شعراء العرب وتسابقوا
إلى الصور الخيالية منه يصورونها في كل قالب ويأتون بها من كل
سبيل وقد آنسوا ميدان الخيال فسيحاً فجالوا ووجدوا مجال القول ذا
سعة فقالوا وساعدتهم أساليب اللغة واتساع تراكيبها وبلاغة تعبيرها
وجزالة ألفاظها ووفرة الاستعارات والكنايات فيها فأرسلوا أفراس
قرائحهم مطابقة العنان وأجالوا بصائرهم في سماء المعاني فاستنزلوا النجوم
من العنان. وأما ما سوى ذلك من تقرير الوقائع وإيراد الحكم وضرب
الأمثال وتصوير الحقائق ووصف المشاهد فإنهم لا يكادون يخرجون
عن حد الطبيعة ولا يحيدون عن محجة الصدق والقصد ولا يأتون إلا
بما تلقوه البداة ويمليه الجنان على اللسان فهم من هذا القبيل يشبهون
الإفرنج وان لم يشبههم الإفرنج من هذا القبيل ثم إن اصطلاح
الإفرنج أن لا يقدموا شيئاً بين أيدي أغراضهم الشعرية بل يأتون بها
اقتضاباً من غير تمهيد ولا مقدمة على خلاف ما يفعله أكثر شعراء
العرب من تقديم الغزل والنسيب والحكم وأمثالها أمام ما يقصدون
من المدح أو الرثاء إلى أن يخلصوا منها إليه، إلا أن ذلك ليس بالأمر
اللازم عندنا وكثيراً ما يأتي الشاعر بغرضه في مفتتح قصيدته دون
توطئة ولا تمهيد. وما يخالفوننا فيه أنهم يتجافون عن الفخر في
قصائدهم ولا يستعملون المدح في كلامهم بل يعدونه عيباً ونقصاً

The
straight
subject

Most of the Arabs
dwell for analogy
prelude etc.
but some don't

They differ from us in that
they consider flattery a negative
value

بخلاف العرب الذين صبروا على هذا الأمر دهرأ طويلاً وجعلوا له
في أشعارهم باباً خاصاً ، على أنه من كونه مباحاً عند العرب فهو اليوم من
المذاهب المرغوب عنها لما في طبيعة العصر من إبانته إلا إذا دعت
إليه ضرورة تدفع الشاعر إلى مثله في مقام النضال والمدافعة عن
الأحساب .

ومما فاق الإفرنج فيه في مقام الشعر وانفردوا به دوننا نظم
الروايات التمثيلية واعتدادها من أول أبواب الشعر وأسمى درجاته
وأشدها دلالة على براعة الشاعر وحسن اختراعه وهم مصيبون في هذا
الاعتقاد كل الإصابة لأن في نظم الروايات الشعرية من الدلالة على
الفضل والإبداع أكثر مما في نظم الديوان من القصائد والمقطعات
إذ هي تقتضى حسن الاختراع في تأليف حكايتها وبراعة النظم في وضع
أبياتها ولطف التصور في بيان شعائر تمثيلها واختلاف حالاتهم ودقة
تبويب فصولها وتوثيق عقدتها ووصل بعضها ببعض مما يستلزم
روية طريفة وعارضة شديدة وقدرة فائقة في التصور والنظم
والتأليف على غير ما تقتضيه القصائد والمقاطع المستقلة التي يقصد
بها الناظم غرضاً واحداً فيأتي به في أبيات معدودة لا يضطر فيها
إلى عقد حكاية ولا إلى تمثيل عواطف متعددة ولا إلى إقامة
نفسه في موقف كل شخص من أشخاص الرواية يتكلم بلسانه
وينطق عن شعوره ويضع في دوره التمثيلي ما كان ينبغي أن يقوله
صاحب الدور الأصلي . وقد انتقل هذا الفن إلينا في هذه الأيام

dramas

The
so
dramas
are
informal
have

واشتغل به جماعة منا نظموا فيه الروايات الشعرية وأخصهم المرحوم
المأسوف عليه الشيخ خليل اليازجي في روايته المروءة والوفاء إلا أننا
لم نبلغ فيه مبلغ الإفرنج بعد ولا وصلنا إلى ما وصلوا اليه من درجة
كماله واتقانه .

ومن الفرق بيننا وبينهم في نظم الشعر أننا نفوقهم في وصف
الشيء وهم يفوقونا في وصف الحالة أي أننا إذا وصفنا الأسد أو الفرس
أو القصر أو الفتى الجميل أو الغادة الحسناء أتينا في ذلك بأحسن مما
يأتون به وتوسعنا فيه توسعاً لا يقدرون هم على الإتيان بمثله .
وانهم إذا وصفوا حالة من قتال رجلين أو معركة جيشين أو مقابلة
محبين أو غرق سفينة أو مصاب قوم جاءوا في ذلك بأحسن مما نجىء
به وتوسعوا فيه بما لا نقدر أن نسبقهم بمثله . ومثيل ذلك أن المتنبي
وصف الأسد بما لا يقدر إفرنجي على وصفه بمثله ، وهيجو وصف
معركة واترلو بما لا يقدر شاعر عربي على الإتيان بنظيره فهم بذلك
أقدر على تصوير الوقائع ونحن أقدر على تصوير الأعيان لأننا إذا
وصفنا الشيء بأننا من بيان صفاته إلى أدقها وأخفها وتوصلنا من
إدراك معانيه إلى أصغرها وأدناها ، حتى لا نبقى منه باقية ولا نفوتنا
منه حقيقة وصف ، وهم إذا وصفوا حالة أو موقفاً توصلوا إلى أخفى
دخائله وأبانوا عن أدق خفاياه وبسطوا لعين الفكر ما لا تكاد تبصره
عن الحس من غوامضه وسرائره وذلك لأنهم يتبعون وجدانات
النفس إلى أقصاها فلا يفوتون منها جليلاً ولا دقيقاً ، وهي المزية التي

We can describe a thing better
They can describe a situation better

يعتبرون الشاعر بها ونحن نشير الى تلك الشهائر إشارة إجمال ونترك
الى القارئ تمام التصور والتفصيل .

هذا ، ولو تتبعنا بيان كل فرق بيننا وبين الإفرنج من مثل البديع
اللفظي والمعنوي مما لا وجود له عندهم والتفنن في إيراد المعاني على
أساليب كثيرة مما انفردنا به دونهم وأوردنا على كل ذلك شاهداً من
كلامنا وكلامهم لضاق بنا المجال وخرج بنا نطاق البحث إلى دائرة
أوسع من دائرة الموضوع تستغرق كتاباً بأسره ولكن الذي يؤخذ
من جملة ما أوردناه أنهم قوم امتازوا عنا بشيء وامتزنا عنهم بأشياء
وأنتا قد جمعنا من شعرهم أحسنه ولم يجمعوا من شعرنا كذلك وهي
ولا شك ميزة اللغة العربية التي اختصت بما لم تختص به لغة سواها
من غزارة مواد اللفظ ووفرة ضروب التعبير واتساع مذاهب البيان
حتى لقد سماها الإفرنج أنفسهم « أتم لغة في العالم » وكفى بذلك بياناً
لفضلها على سائر اللغات ودلائل على فضل شعرها على سائر الشعر
والله أعلم .

نقد ديوان شوقي

« لمحمد بك المويلحي » (١)

- ٩ -

الانتقاد قائد الاجتهاد والإحسان ، ورائد الإجابة والإيقان
وهو للإنسان بمنزلة الصيقل للصوارم والصيرم للدرهم . ولولا النقد
لما امتاز الصحيح من الفاسد ، ولا تبين الحال من العاقل
ولما قيل للإنسان في كل عمل يعمل أحسن وأصبت ، ولوقف الناس
في سبيل الإحسان ولم يهتدوا إلى مواضع الخطأ ومواقع الزلل .

(١) كتب هذا النقد في أعداد متفرقة من جريدة مصباح الشرق ،
فنشره على حسب ترتيبه هناك ، وهو يتضمن نقد مقدمة الديوان وجزء قليل
من الديوان نفسه ثم انقطع النقد بعد ذلك ، والغرض من نشر هذه الرسالة
هنا الإتيان بمثال حسن من أدب الانتقاد ودقة النظر فيه وجمال أسلوب
كتابته ، أما ما وراء ذلك من صحة أوجه الانتقاد جميعها أو صحة بعضها دون
بعض فهو مبحث آخر لا دخل له في موضوع الاختيار .

ومحمد بك المويلحي : من أقدر كتّاب هذا العصر على الكتابة في
الأخلاق ، وانتقاد العادات وله في الترسل ما لا يكاد يجاريه فيه مجار وأسلوبه
في المتأخرين أشبه شيء بأسلوب الجاحظ في المتقدمين ، ويمتاز في كتابته
بالاعتماد في كل ما يكتب على العلم الجم والأدب الغزير والتاريخ الصحيح .

ولا يكون الإحسان ظاهراً متبليجاً والإيتقان واضحاً متألّقاً إلا عند إطلاق الانتقاد وصدق القول ، وقد كان الرجل في إقبال دولة الفصاحة وعز مقام الأدب إذا أنشأ رسالة أو نظم قصيدة عرضها على نقاد الكلام فاستحسنوا منها الحسن ونهوه إلى القبيح فيحذف منها ما لم يرضوه أو يرجع إلى تهذيبه وتنقيحه فترسخ فيه ملكة الإيتقان ما تكرر عليه الانتقاد حتى بلغ بكثير من الشعراء أنهم لم يكونوا يعرضوا قصائدهم على مدوحيههم إلا بعد أن ينتقدها ويرضاها من كان مكلفاً على أبوابهم بوظيفة الانتقاد من أساندة الكلام وجهابذة البيان ، وهذا أبو تمام - وناهيك بعلو قدره في الشعر - قد وفد على عبدالله بن طاهر بخراسان فدحه وكان عبدالله لا يجيز شاعراً إلا إذا رضى به أبو العميث وأبو سعيد الضرير وكانا على بابه لا انتقاد الشعر وكانا ربما أسقطا القصيدة بحملتها إذا لم يرضاها البيت الواحد منها فقصدتهما أبو تمام وأنشدهما القصيدة التي أولها :

هن عوادي يرسف وصواحيبه فعزماً فقدماً أدرك السؤال طالبه
فلما سمعها هذا الابتداء أسقطها فسألها استتمام النظر فمر بقوله :
وركب كأطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه
فاستحسننا هذين البيتين وأبياتاً أخرى منها وهي :
وقلقل ناي من خراسان جاشها فقلت اطمئني أنضر الروض عازبه

إلى سالب الجبار بيضة ملكه وآملهُ غادِ عليه فسالبه
فعرضا القصيدة على عبد الله وأخذها له الجائزة عليها .
كذلك كان انتقاد الشعر والأدب في ذلك العهد بهذه المنزلة
العالية من الاعتبار والاهتمام وبه راجت به سوق الأدب وصفا
جوهر الشعر .

ثم إنك إذا التفت إلى حال الغربيين اليوم وجدت الانتقاد عندهم
أنفع الآلات لتقدم العلوم والفنون وارتقاء المخترعات والمبتدعات
فلا تخلو جريدة عندهم من عاملين موظفين أو ثلاثة أو أربعة لانتقاد
ما يكون له قيمة من تأليف أو تصنيف أو ابتكار أو ابتداع حتى إن
المؤلف الذي لا ينتقد تأليفه منتقد منهم يعد نفسه ساقط المنزلة بين
أقرانه .

ومن نسكد الدنيا على الأدب في مصر أن أرباب الجرائد فيها لم
يلتفتوا يوماً إلى هذا العمل النافع بل جعلوا ديدنهم التغالى وسوء
المبالغة في مدح ما يظهر في الوجود من رسالة كاتب أو قصيدة شاعر
أو تأليف مؤلف أو تعريب معرب بقطع النظر عما إذا كان ما مدحون أهلاً
للمديح وجديراً بالثناء ونسوا أن هذه العادة ينتج عنها أمران
مذمومان : أحدهما أن مدح الرجل في وجهه - وصفات الجرائد مدح
في الوجه - أمر غير مرضى طالما نهى عنه الناهون . وحذر عنه
المحذرون . قال عليه الصلاة والسلام : إذا مدحت أخاك في وجهه

فكأنما أمررت على حلقة موسى رميضة (١). وقال صلى الله عليه وسلم
« لو مشى رجل إلى رجل بسيف مرهف كان خيراً له من أن يثنى عليه
في وجهه ». وقال أيضاً لرجل مدح رجلاً في وجهه : « عقرت الرجل
عقرك الله » ، ووجه الذم لهذا المدح أنه يندشأ عنه .

ولما كان حضرة الشاعر الأديب أحمد بك شوقي عزيز المنزلة عندنا
نحب له التقدم في الأدب والترقى في أساليب البلاغة لما نأمنه فيه من
الدكاء وحسن الذوق والانطباع الفطري على محبة الشعر وكنا نتمنى
له أن يكون شعره كله لؤلؤاً لا يخالطه حصي ، وذهباً خالصاً لا يشوبه
بهرج وكان الانتقاد - كما قدمنا وكما يعلمه - خير واسطة إلى الإحسان
والإتقان والإجادة والإصابة ، لا بدع أن اخترنا معه سلوك هذا
السبيل سبيل الانتقاد على ديوانه الذي أهدى إلينا نسخة منه عناية به
واعترافاً بقدره ولم نفعل به ما نفعله بغيره من المطبوعات بما لا يستحق
في نظرنا الانتقاد فلا يكون له نصيب عندنا إلا السكوت عليه . ونحن
لا نشك أن حضرة الشاعر الفاضل وهو العالم بمزية الانتقاد في الشرق
والغرب لا بد أن يقبل ذلك منا أحسن قبول ويتبع هذه الحكمة
البالغة والموعظة الحسنة « أمر مكياتك لا أمر مضحكاتك » .

قيل لأفلاطون : مالك تعارض سقراط في أقواله وأنت تحبه ؟
قال : أحب سقراط وليكني أحب الحق أكثر منه ؛ وعلى ذلك نبداً
في ما بدا لنا الكلام عليه من ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقي بك
ونسأل الله أن نكون من الداخلين فيمن استغفر الله لهم في آخر
إعجاب المرء بنفسه واغتراره بمنزلة فيرى كل شيء في نفسه حسناً
ويمتليء بالباطل اختيالا وعجباً . قال بعضهم لرجل رآه معجباً بنفسه :
يسرنى أن أكون عند الناس مثلك في نفسك وأن أكون عند نفسي
مثلك عند الناس . فتمنى حقيقة ما يقدره ذلك الرجل ثم تمنى أن
يكون عارفاً بعيوب نفسه كما يعرف الناس عيوب ذلك المعجب
بنفسه . وقالت الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد حسائد عقله ومن
رضى عن نفسه كثر الساخط عليه . ويزيد على ذلك أن الممدوح
يعتقد في نفسه الإحسان والإنقان والإصابة والإجادة فتقعد همته
عن العمل ويكتفي بالدرجة التي وصل إليها متظلاً بظلال
ذلك المدح .

ومن كلام عمر رضي الله عنه « المدح هو الذبح » قالوا : لأن المذبح
ينقطع عن الحركة والأعمال وكذلك الممدوح يفتر عن العمل ويقول
قد حصل في القلوب والنفوس ما استغنى به عن الحركة والجد ، ومن
أمثال الخرافيين « إذا صار لك صييت بين الحصادة فأكسر منجلك » .

وثاني الأمرين المذمومين أن المدح على حسب العادة غش للناس
من لا يتكلفون تعب الفكر فيما إذا كان العمل يستحق المدح
أولا يستحقه فيعتمدون على أقوال المديح ويغفلون عن قيمة الممدوح
في نفسه وكلا الأمرين تغرير بالناس لا يخفى ما فيه من الضرر على
العلوم والآداب .

ختم مقدمته بقوله : « وأنا استغفر الله لي ولأهلي وللمن ينظر إلى هذا
الكتاب بعين الكريم المتجاوز أو المنتقد العدل » .

صدر الشاعر ديوانه بمقدمة طويلة تكلم فيها عن الشعر وعن نفسه
أما المقدمة من حيث صناعة الإنشاء ومن حيث اللغة فإنها تدل على
أنه شاعر لا ناثر وتدل على أنها كانت تحتاج إلى إعادة نظر للتنقيح
والتصحيح ولو أنه كان يحسب للانتقاد حسابا ولم يعتمد على الإطراء
والمدح وحده من أولئك الذين يدعون أن الانتقاد مما يثبط الهمة
لكان تأملها بنفسه مرة بعد مرة أو كان عرضها على من ينتقدها له
وثقة الإنسان بنفسه مجلبة للخطأ ، فإذا نظرت في الصحيفة الأولى
وحدها وجدته يقول فيها عن الشعر : « قاله امرؤ القيس واصفاً
وبها كياً وضاحكاً وبها كياً وناسباً وغازلاً » . والغازل هنا من قولك :
غزلت المرأة القطن والكتان وغيرهما - من باب ضرب - غز لا مدته
وفتلته خيطانا ، ولا يكون امرؤ القيس « غازلاً » إلا إذا كان غزلاً
أمراس الكتان في قوله :

فيالك من ليل كان نجومه بكل مزار الفتل شدت بيدبل
 كأن الثريا علقت في حصامها بأمراس كتان إلى صم جندل
 أما إذا كان غرضه الغزل محركا فلا يأتي اسم الفاعل منه غازلا
 وإنما يقال رجل متغزل وغزل ككتف وغزيل وقال في الصحيفة
 نفسها عند كلامه على قصيدة أبي فراس :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر
 « ليس إلا عقدا توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه
 تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية ، وكان
 الصواب أن يقول (سليقة العربي وملكة الشاعر) لأن الملكة لكل
 الناس والسليقة للعربي خاصة ، قال شعرائهم :

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سلبق أقول فأعرب
 وفي الصحيفة نفسها خطأة من حيث التأريخ اذ قال : « أما بعد فما
 زال الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم ، وأمراء العرب وأشرافهم
 كانوا بمعزل عن نظم الشعر وكانوا يأنفون من قوله ويعدونّه غير
 لائق بمقاماتهم ، وحكاية حجير مشهورة ، وهى أنه غضب على ابنه
 امرئ القيس لما سمع أنه ينظم الشعر فأمر خادما له يذهب به ليقطله
 ويأتيه بعينيه أمارة على قتله فرحم الخادم الغلام فندسه في جبل ورجع
 الى مولاه بعينى ظي .

وأما ما ينقل عن علي عليه السلام من تلك الأشعار فكذب عليه
 (م ١٠ — مختارات)

هذا من حيث اللغة والتاريخ في صحيفة واحدة وأما من حيث الكلام عن الشعر فإنك تراه في المقدمة مضطرباً متناقضاً فتارة يرفع الشعر العربي الى درجة عالية كقوله :

« وكان أبو العلاء المعري يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة في منظومه ويشرح حالة النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة :

فلا هطلت على ولا بأرضى سحاب ليس تنتظم البلاد

وقابل بين هذا البيت وبين قول أبي فراس :

معلتي بالوصل والموت دونه اذا مت ظمناً فلا نزل القطر
ثم نزل الى الأول كيف شرع سنة الإيثار وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس . وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية ، علم أن شعراء العرب حكماء لم تعزب عنهم الحقائق الكبرى ولم يفتهم تقرير المبادئ العالية وأنهم أقدر الأمم على تقربها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل صور البيان » .

وتارة ينزل بالشعر العربي إلى أدنى دركة فيقول :

« إني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أسمى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للأحياء

يخذون فيها حذو القدماء والقوم في مصر لا يعرفون من الشعراء إلا ما كان مدحا في مقام عال .

ثم قال في موضع آخر عن الشعراء حتى عن آخر المتأخرين .
« وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثل المحتذى في شعراء الأمم كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل ، ومنتخذه رسلاً في الهوى ووسائل ، وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها وواصف بدائعها وحلاها ، وكالبهاء زهير سيد من ضحك في القول وبكى ، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى ، وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعزهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثه في سهولته لا نصر فوا عنه وهو كما هو . »

ومن كان نظره في البهاء زهير ورأيه فيه هكذا كيف يكون رأيه في خول الشعراء كسليم بن الوليد ، وأبي تمام ، والبحتري ، وابن الرومي والأرجاني . ثم هو بعد ذلك ينزل بالشعر العربي إلى أن يقول :

« ثم طلبت العلم في أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وأنى لا أؤدى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها وإذا كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغى إبادة كالأفعوان لا يطاق لقاءه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد

المديح من أوربا مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر
الإمكان .

ومعنى هذا أنه وجد نور السبيل إلى الشعر العربى فى أوربا من
أول يوم وأنه وجد فى مصر أوهاما كالشعبان لا يؤخذ إلا بالحملة
فاحتمل عليه بقصائده على الأسلوب العربى الأوربى الجديد لإبادة تلك
الأوهام التى تمكنت من الأمة العربية وهذا أغرب ما روى لأن الشعر
ألفاظ ومعان فالرجوع إلى العربية والأخذ عن أهلها واجب من جهة
الألفاظ . أما من جهة المعانى فقد طالعنا ما قدرنا على مطالعته من
شعر الغربيين فلم نجد لهم أطول باعاً من الشرقيين فى المعانى بل الشرقيون
يفوقونهم فيها وهم إلى الآن لا يزالون فى المعانى عيالاً على اليونانيين
والفرس والعرب ينتحلونها ويزينون بها أشعارهم ، وأما من جهة
المواضيع الشعرية والتغنى بالطبيعة ووصف الكون مما يشير إليه فى
مقدمته فهو يشهد نفسه : « أن شعراء العرب حكماء لم تعزب عنهم
الحقائق الكبرى ولم يفتهم تقرير المبادئ العالية وأنهم أقدر الأمم على
تقريبها من الأذهان وإظهارها فى أجلى وأجمل بيان » وقد قال شعراء
الشرق ما قالوا فى هذه الأبواب فما على الشاعر الجديد إلا أن يتصفح
دواوينهم فيجد فيها ضالته التى يفتشها فإن رآهم قد فاتهم شيء أو أغفلوا
باباً فى الشعر لم يفتحوه فليقرعه وليتحف به أهل زمانه والكون
والطبيعة أمامه فى كل زمان ومكان وهو فى غنى عن التطوح بالشعر
إلى أرض أوربا ليستنير بنور هداها ويحتذى الصراط المستقيم بها .

هذا ما رأيناه في القسم الأول من مقدمة الديوان وسنتبعه بما
تراه في القسم الثاني الذي خصصه الشاعر الفاضل للكلام عن نفسه
ونحن لا نشك في أنه يحمل كل كلامنا في هذا الباب على أحسن محمل
فما غرضنا إلا خدمته وخدمة الأدب معه وهو الأدب خير مساعد
ومعين .

— ٣ —

من الأقوال الماثورة « أعوذ بالله من قولة أنا ، .
و « إذا أردت أن يثنى عليك فلا تثن على نفسك ، .
سلك الشاعر الفاضل في مقدمته في الكلام على نفسه مسلكاً لم
تسلكه الشعراء من قبله في دواوينهم بل كانوا يتركون لغيرهم الكلام
عنهم وغاية ما رأيناه من المؤلفين للكتب العربية أنهم إذا أرادوا
الكلام على أنفسهم فلا يتكلمون إلا عن أصولهم في الأدب لا عن
أصولهم في النسب فيذكر الواحد منهم ممن أخذ وعمن تلقى وعلى من
قرأ وماذا حفظ . أما الشاعر الفاضل فقد ذكر لنفسه أصولاً أربعة
في النسب ولم يذكر له أصلاً واحداً في الأدب إذ قال : « أنا إذا عرني
تركي ، يوناني ، جرکسی بجدتي لأبي ..! أصول أربعة : في فرع مجتمعة ،
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وكل من قرأ كلامه في مقدمته يراه يدور على أربعة أشياء :
الزهو ، والسهو ، والحشو ، وسلامة النية .

فمن قوله في الزهو : « معذرتي إلى الفريق الأول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون إليها فإذا متّ فليأخذوها من أهلي إذا جدهم الحرص عليها . وللآخرين أقول إنني لا أزال في أول النشأة وإن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلي من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها لكنني لا أثق بيومي الآتي وأخاف بعدى رجوم الظن وضلات الأحاديث » .

هذا هو الزهو المضاعف ! وصور الملوك كما لا يخفاه في أيدي الناس وصور العلماء والشعراء في هذا العصر في صدور كتبهم ودواوينهم وتكهنه بحرص الناس على صورته بعد موته من ذلك الزهو أيضا . ومن قوله في هذا الباب في ذكر جده وجدته (حتى توفي جدي وهو وكيل لخاصة الخديوى إسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشا لا إحسانا) وقوله حاكيا عن نفسه في المدرسة التجهيزية (فكنت التلميذ الثانى لهذه المدرسة وأنا فى الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شهن قد حصل لى من النظارة على المجانية بوجه الاستثناء لا عن حاجة إليها) .

ومن الزهو أيضاً قوله (أخذتني جدتي لأمي من المهد وهى التى أريتها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتني لوالدى وكانت تحنو على فوق حنوها وترى لى مخايل فى البر مرجوة . حدثتني أنها

دخلت بي على الخديوى إسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى، وكان بصرى لا ينزل من السماء لا اختلال أعصابه فطلب الخديوى بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب أشغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى اصنعى معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت هذا دواء لا يخرج إلا من صيدلتك يامولاي . قال جىء به إلى متى شئت إني آخر من ينثر الذهب فى مصر .

من كان طيب عينيّه إسماعيل وصيدليته خزائن مصر وهو فى الثالثة من عمره لا بدع إذا كان الزهو نرب صباه ورفيق حياته !

وختم باب الزهو قوله عند الكلام على وفاة أبيه : « كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات فكان لى عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتمت منظومى ومنشورى مانشر منها وما لم ينشر قد كتب بعضه بالخبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد لفته فى ورقة كتبت عليها هذه العبارة « هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوروبا فكنت كأنى أراه وإنى أمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدى من يعنى بشئونه وربما لا يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب . »

على هذا فالشاعر فى رأى أبيه خاتم الشعراء والأدباء .
ومن باب السهو عن حسن التعبير قوله عن أبيه فى مناقب جده « ثم تداولت الأيام ، وتعاقب الولاة الفخام ، وهو يتقلد المراتب العالية .

ويتقلب في المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا للبحارك
المصرية فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى في
(سكرة الشباب) ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت في ظله
وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراى فى ضيق حتى أندب
تلك السعة فكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من
فضلات الموتى .

سكرة الشباب بإراء ضياع المال من والده سهو عن حسن التعبير
كان يحل أدبه عند تعبيره عن الإرث بفضلات الموتى سهو أيضا عن
حسن التعبير يعز سماعه على الوراثين لأن الإرث رزق من أظهر
الأرزاق منذ خلق الله آدم فلا يقال لضى ورث مالا ولا لملك ورث
ملكاً : أنه يقتات من فضلات الموتى .

ومن هذا الباب قوله عند ذكر جده وجدته ، وكان الخديوى المشار
إليه (إسماعيل) يقول عنهما لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته ولو
لم يسمه أبى حليما لحلمه لسميته عفيفا لعفته .

السهو فى التعبير هنا لا يغتفر للأديب . سأل أحد الأمراء أديباً
فقال أينما أكبر ؟ فقال له الأديب : حضرت زفاف أمك المباركة على
أبيك الطيب . هنا تحرز الشاعر من خطابه بأنا أكبر منك أولاً وتحرز
ثانياً فلم يقل أمك الطيبة بل هرب منها إلى ما هو أليق بالأدب .

ومن باب السهو في التعبير قوله عن المظفور له توفيق باشا « فتحلى
الحليم بصورة الغضب ، وليس الغضب حلية يتحلى بها ، ومنه قوله عند
تبشير المرحوم توفيق باشا له بتعيين أبيه مفتشاً في الخاصة الخديوية
والوعد بتعيينه هو أيضاً » ثم مد إلى العزيز يده فقبلتها واجماً وقد غلب
على السرور حتى أنساني الشعر وكان ذلك وقته .

التعبير بالواجم هنا في غير موضعه تقول وجم الرجل وجوماً سكك
على غيظ ، وقيل : سكك وعجز عن التكلم من كثرة الغم والخوف ،
والواجم العبوس المطرق لشدة الحزن ، يقال : مالى أراك واقفاً
واجماً ، وهو واجم ودمه ساجم .

ومن باب سلامة النية ما يحكيه عن المرحوم الشيخ علي الليثي من
قصة المنام والخرق في الاسلام قال : حدثني سيد ندماء هذا العصر
المرحوم الشيخ علي الليثي قال : لقيت أباك وأنت حمل لم توضع بعد
فقص عليّ حلماً رآه في نومه فقلت له وأنا أمازحه ليولدن لك ولد
يخرق كما تقول العامة خرقاً في الاسلام ، ثم اتفق أني عدت الشيخ في
مرض الموت وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي
يقول هذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقي فوالله ما قالها قبل في الإسلام
أحد ، قلت : وما تلك يامولاي قال قصيدتك في وصف (البال) التي
تقول في مطلعها :

حف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

وكل من عرف المرحوم الشيخ على الليثي وما كان عليه من الميل إلى إرسال النكات المستظرفة أدرك لأول وهلة موضع النكتة في مسألة الخرق في هذه القصيدة المتفرجة ولو كان غرضه غير التنكيت لقال (لم يقل مثلها الشعراء) ولم يقل (لم يقل أحد في الإسلام) فحملها الشاعر الفاضل بسلامة نيته محمل التقريظ والإطراء.

ومما يدخل في هذا الباب ما نقله عن المرحوم الشيخ على الليثي أيضاً عند تكلمه على اختلال أعصاب بصره « وكان المرحوم الشيخ على الليثي كلما التقت عينه بعيني ينشد هذا المصراع للبتني :

« محاجر مسك ركبت فوق زئبق »

وأما الحشو في كلامه فنذكر منه شيئاً يدل عليه فمن ذلك قوله عند ذكر استدعاء المرحوم توفيق باشا له من ساحة عابدين « خرجت قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي » .

ومن قوله عند الكلام عن دراسته في باريس « أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر عليّ وتعمل بإشارتي في الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا في سكرات الحمى تقول : أفى مثل هذا الشباب تذهبون ثم تكفكف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومنّ عليّ بالشفاء » .

ومن أمثال هذا الحشو كثير مما لا ينتفع به القارئ ولا يستفيد

منه السامع ويضيق بنا المقام عن سرده . وقد آن لنا أن ننتهى من نقد المقدمة ونبتدىء بنقد الشعر وموعدا الأعداد الآتية .

— ٤ —

اختفت عادة الانتقاد للكتب عن الناس وألفت أذهانهم التقريظ مدحاً وإطراءً أفصار الانتقاد مهجوراً بينهم غريباً فيهم حتى ظنوه ذاماً وحسبوه غاباً ولما وضعنا ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقي بك موضع العناية والاهتمام به وشرعنا في انتقاده قياماً بخدمة الأدب على عادة الجرائد الغربية في هذا الباب وهم الناس في أننا قصدنا ذلك من وجه التحامل ولقد أخطأوا في وهمهم فإن صحبتنا مع هذا الصاحب الفاضل لم تزل على ما كانت عليه من الصفاء ولم يؤثر عليها الانتقاد شيئاً لعلنا بأن الانتقاد دأب على ما قيل لا على من قال ولذلك استغفرنا قيام من قام للرد علينا مستتر الاسم تحت الألف والراء كدنا نسيء الظن بصاحبنا وهممنا بالرد عليه لولا أن جمعنا وإياه مجلس فسألناه عن ذلك الكاتب فتبين لنا من أنه لم يكن يعرفه وأنه لا يقول بقوله وأن ما كتبه كان على غير علم منه وأنه لا يزال يقدر الانتقاد قدره ويحمله على حسن الاهتمام بديوانه فمن أجل هذا عدلنا عن النقد على الرد وطرحناه في جانب المساحة والإغضاء كما جرت عليه عادتنا مع من يتهافت علينا ويتحرش بنا لأننا لا نرى في الكلام معه

من فائدة للقراء بل نجد من الحكمة أن نمر باللغومر الكرام تأدب بأدب
القرآن الكريم في قوله عز وجل (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)
والآن نأخذ في نقد الشعر سائلين حضرة الشاعر الفاضل أن
يكون دائم الاعتقاد في محض نصيحنا وصفاء مودتنا وأن لا يحمل شيئاً
من كلامنا يحمل السوء وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه (لا تظنن
بكلمة تخرج من أخيك المسلم سوءاً وأنت تجدها في الخير مجملًا) .
قال حضرة الشاعر الفاضل في أول الديوان من باب (الأدب
والمديح) .

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يخرهن الشناء
قوله خدعوها يفهم منه أن المشبب بها غير حسناء لأن الخداع
لا يكون بالحقيقة وإذا أردت أن تخدع الشوهاء ، فقل لها حسناء وهو
ينافي قوله في البيت الثاني :

ما تراها تناست اسمي لما كثرت في غرامها الأسماء
وخدعوها بمعنى ختلوها وأرادوا بها المكروه من حيث لا تعلمه
ويعجبنا من هذه القصيدة قوله :

يوم كنا ولا تسل كيف كنا تهادى من الهوى مانشاء
وعلينا من العفاف رقيب تعبت في مراسه الأهواء
جاذبتني ثوبى العصى وقالت أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله في خداع العذارى فالعذارى قلوبهن هواء

وهذا من بديع الكلام وجيد الشعر .

ومما نعهده من محاسنه ونراه من المعاني المبتكرة :

سعت لك صورتى وأتاك شخصى وسار الظل نحوك والجهات
لأن الروح عندك وهى أصل وحيث الأصل تسعى الملحقات
وهبها صورةً من غير روح أليس من القبول لها حياة
ومما نعيبه عليه قوله من أبيات :

وقطعة خد بينما هى جنة لعينيك يارائى إذا هى نار
لأن القطعة بغير الخد أنسب، ولو قال صفحة خد لكان التعبير
أحسن وأجمل

أما بقية الأبيات فهى من رائق الشعر ورقيقه وهى :

إذا برزت ود النهار قميصها يُغير به شمس الضحى فتخارُ
وإن نهضت للمشى ود قوامها نساء طوال حولها وقصار
لها مبسم عاش العقيق لأجله وعاشت لآل فى العقيق صغار
ومما ينتقد عليه قوله فى أبيات :

وكل ذى همة شريف يقوم للخلق بالخدمة
لأن لفظة «خدمة» ليست من اللغة العربية فى شيء .

٥

قال حضرة الشاعر الفاضل شوقي بك من قصيدة في باب الوصف
من ديوانه يصف ليلة راقصة في سراى عابدين :

أقبلت شمس ضحى ما لها منتقب
الظلام رايتها وهى جيشه اللجب

تشبيه الظلام بالراية لهذا الجيش اللطيف جيش شمس الضحى
لا مناسبة له إلا إذا أراد أن يشبهه بجيش خراسانى يقوده أبو مسلم
تحت الراية السوداء ، والعجب لهذه الشموس المسفرة التى ليس لها منتقب
كيف أنها لم تمزق هذه الراية .

وقال منها فى وصف العزيز :

فهو بينهم عمر والوفود تنتدب

تشبيه العزيز بعمر رضى الله تعالى عنه فى هذا المجلس مجلس
الطرب والعزف والرقص والقصف والقذود والحدود والصدور
والنهود والنحور والعقود غير لائق بالمقام إلا إذا أراد الشاعر بعمر
عمر ابن أبى ربيعة .

وقال منها :

فهى آنة صعد وهى آنة صلب

لا يقال فى اللغة « آنة » بل يقال « آونة » وهى جمع « الأوان » ،

أو الوقت والحين يقال هو يفعل ذلك آونة وأتا آتية آونة بعد آونة .

ومن قوله بعد أن وصف المائدة «البوفيه» .

والطعام حاضره والمزيد منتهب

بارد ومن عجب يشتهي ويطلب

كذا البيت وليس من العجب أن يشتهي البارد ويطلب .

وقال منها :

والخصور واهية بالبنان تنجذب

سالت الأكف بها فهي أغصن نهب

الغصن لا يجمع في اللغة إلا على غصون و غصنة وأغصان ، ومطلع

هذه القصيدة من المطالع البديعة وهو :

حف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

ومن محاسنه فيها قوله في الخمر :

راحة النفوس وهل عند راحة تعب

يانديم خف بها لا كبايك الطرب

ومن المحاسن أيضاً قوله :

تنجلي ولي خلق ينجلي وينسكب

ومنها في وصف « السراي » :

أشرقت نوافذه فهي منظر عجب

واسـتـنار رفرفه والسيجوف والحجب

تعجب العيون له كيف تسكن الشهب

البیان

« لأحد الأدباء المعاصرين ،

قال لي أحد الوزراء الأذكياء ذات يوم : إنني لتأتيني أحياناً رِقَاع الاستعطاف فأكاد أهملُها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة لولا أن الله تعالى يلهمني نيات كاتبها وأين يذهبون . ولولا ذلك لكنت من الظالمين .

ذلك ما يراه القارئ في أكثر المخطوطات التي يخطها كاتبوها في رسائل الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .
هزلٌ في موضع الجدّ ، وجد في موضع الهزل ، وإسهاب في مكان الإيجاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ؛ وجهلٌ يفرق ما بين العتاب والتأنيب والانتقام والتأديب ، والاستعطاف والاستخفاف . وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السّوقه والأسراء . والعلماء والجهلاء ، حتى أن الكاتب ليُقيم في الشوكة يُشاكُّها ، مناحة لا يقيمها في الفاجعة يُفجعُ بها ، ويكتب في الحوادث الصغار . ما يُكبر أن يكتب مثله في الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوّه ، ويناجي أجيره . بمثل ما يناجي به أميره .

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متفرقة ، واختلفوا في شأنه
اختلافاً كثيراً ولا أدري علام يختلفون ، وإلى أين يذهبون وهذا
لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشبه وجوهها ، ولا تشعب
مسالكها .

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس وتصويره في
نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ولا يقصر
عنه . فإن عُلقت به آفة من تينك الآفتين فهو العي والحصر .

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر
الأساليب فأغصوا بها صدور كتاباتهم وحشوها في حلوقها حشواً
يقبض أوداجها ويحبس عليها أنفاسها . فاذا قُدِّر لك أن تقرأها
وكنْتَ بمن وهبهم الله صدرأرحباً ، وفؤاداً جلدأ ، وجناناً يحتمل
ما حمل عليه من آفات الدهور ورزاياه . قرأت متناً مشوشاً من متون
اللغة ، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات .

وجله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول والتبسط في الحديث
واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع . فلا يزالون يجترون
بالكلمة اجترار الناقة بجرتها (١) ويتلهظون بها تلهظ الشفاه بريقتها

(١) الجرة : ما يجتره الحيوان .

حتى تسفل وتبذل وحتى ما تكاد تُسيغها الحلق ولا تطرف
عليها العيون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .
ولقد يخيل لي أن أكثر الكتاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم
أكثر مما يكتبون للناس وإن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية
التي تتأجلج في نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ويأنس بوحده فإني
لا أكاد أرى بينهم من يحسن أن يضع قلمه على أذن السامع وضعا محكما
فينفت في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه وهو اجس نفسه .

البيان صلة بين متكلم يفهم وسامع يفهم . فبمقدار تلك الصلة
من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط ، فإن
أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك
واحرص الحرص كله على ألا يخذلك عنها خادع فتستقط مع الساقطين .

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب
اللغة العربية . ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً
عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم ومدحهم
وهجوهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم . وقبل أن يعرف كيف كانوا
يعاتبون ويؤنبون ، ويعظون وينصحون ، ويتغزلون ويسبون
ويستعطفون ويسترحمون ، وبأى لغة يحاول أن يكتب كتابته إن لم
يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جوانحه حتى يتدفق
مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قرطاسه .

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابي
والهمداني والحوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ثم أقرأ
ما خطه هؤلاء الكتّابون في هذه الصحف والأسفار بما يشعر به المنتقل
دفعاً واحدة من غرفة محكمة نوافذها مسجلة ستورُها إلى جوف يسيل
قرأ وصرأ، ويتفرق ثلجاً وبردأ .

ذلك لأنني أقرأ لغة لاهي بالعربية فأغبط بها ولا هي بالعامية
فأنفك بأحماضها ومجونها .

رأيت أكثر الكتّابين في هذا العصر بين اثنين . إما رجل يستمد
روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشا كلها في أساليبها من المؤلفات
الحديثة والروايات المترجمة . وربما كان كتاب تلك المخطوطات
أحوج إلى الاستمداد من قارئها ، فإذا علق بنفسه تلك الملكة
الصحفية ألقى بها في رُوع قارئ كتابته أدون بما أخذها فيدلى به
أخذها كذلك إلى غيره أسمع صورة وأكثر تشويها ، وهكذا حتى
لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كرم
الغداة ومصر العشي . وإما طالب قُصاري ما يأخذه عن أستاذه نحو
اللغة وصرفها وبديعها وبيانها ورسمها وإملاؤها ومفرداتها ومتونها
ومؤلفاتها ومختلفاتها وأمثال ذلك من آلاتها وأدواتها . أما روحها
وجوهرها فإن أكثر أساتذته البيان علماء غير أدباء . وحاجة طالب

اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ويوحى له بسرها ويفضي إليها بلبها وجوهرها ، أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها . وعندى أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان . فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيد إلا من أستاذ كملت أخلاقه وحسنت آدابه كذلك طالب البيان لا يستفيد إلا من أستاذ مُبين .

ولا يُقَدِّفَنَ في رُوع القارىء أنى أحاول استلابَ فضل الفاضلين أو أنى أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان فما هذا أردت ولا إليه ذهبت . وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليلٌ في بلد يقولون عنه إنه مهد اللغة العربية ومرعاها الخصب .

وبعد فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربى سبيلا إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منشورها ومنظومها والوقوف بها وقوف المثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج ، فاذا رأيت أنك قد سُخِّفْتَ بها وكلفتَ بمعاودتها والاختلاف إليها وأن قد لَدَّكَ لك ما لَدَّ للعاشق من زورة الطيف في غرّة الظلام فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب ، فامض لشأنك ولا تَلَوْ على شيء مما ورائك حتى تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تحدثنك نفسك أني أحملك على مطالعة المنشآت العربية
 لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه فإني لا أحب أن تكون سارقاً ولا
 مختلساً . على أنك إن ذهبت إلى ما ظننت أني أذهب إليه في نصيحتك
 لم يكن دركك دركاً ، ولا بيانك بياناً . وكان كل ما أفدته^(١) من ذلك
 أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين أجزائها ،
 وبردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها ، وإنما أريد أن تحصل لنفسك ملكة
 في البيان راسخة تصدر عنها آثارها بصورة واحدة حتى لا يكون
 شأنك شأن أولئك الذين قد علقت ذاكرتهم بطائفة من منشور العرب
 ومنظومهم فقتنعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا . فإذا
 جدّ الجدّ وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيء من هواجس نفوسهم
 رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا عن دفائنهم فإني وجدوا بينها ما يدل
 على المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً وحشروه في كتابتهم
 حشراً . وإلا فإما أن يتبدلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة
 أو يهجروا تلك المعاني إلى أخرى لا علاقة بينها وبين سابقاتها
 ولا حقائقها . فهم لا بد لهم من إحدى السوءتين . إما فساد المعاني
 واضطرابها أو هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحرص الحرص كله على ألا تكون واحداً منهم ، واحذر أن

(١) أفاد واستفاد بمعنى : حصل على الإفادة .

تصدق ما يقولونه في تلبس العذر لأنفسهم عن ذلك من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة ، وأنهم ما لجئوا إلى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها ، فاللغة العربية أرحب صدرأ من أن تضيق بهذه البسائط من المعاني بعد ما وسعت من دقائق العلوم مالا قبل لغيرها باحتماله وقدرت من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وضمائر السرائر على الذي عيّنت به اللغات القادرات .

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها والتغلغل في طياتها . واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التي لا تتلج صدرأ ، ولا تشفى أواما .

وكل ما يؤخذ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على إعلام لهذه الهنات المستحدثة وهو في مذهبي أقل الذنوب جرماً وأضعفها شأنأ مادمننا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ، أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق . فالأمر أهون من أن نحارفيه وأصغر من أن نقضى أعمارنا في الوقوف ببابه والأخذ والرد في شأنه والمساجلة والمناظرة في اختيار أقرب الطرق إليه وأجداها عليه .

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك

ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب لأن حسن الاختيار طلبه تتعثر بين يديها الآمال ، وتقطع دونها أعناق الرجال . فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس لهم ذوقاً سليماً ، وقرينة صافية ، وملاحة في الأدب ، كأنها مصفاة الذهب . فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقرينة خصبة لبنة صالحة لنماء ما يليق فيها من البذور الطيبة عدت وبين جنبيك ملاحة في البيان راسخة يتناثر منها منشور الأدب ومنظومه تنائر الورد والأنوار ، من حديقة الأزهار .

الموازنة بين الشعراء

د. للشيخ محمد المهدي، (١)

قد رأيتُ السواد الأعظم من المفضلين متسرعاً في الحكم جائراً
فقد يحكم للشاعر بالسبق وهو لم ير من كلامه إلا القصيدة أو القصيدتين
عما استجيد من كلامه وقد يحكم على غيره بالتأخر عنه لأن الذي رآه
من كلامه كان دون الذي رأى من كلام السابق ولو اطلع على كل
ما قال الشاعران وعلى أسباب قولهما وقارن بين معانيهما المتحدة
الموضوع وأساليبهما ومقدار تأثيرهما بالحوادث التي قالاً فيها الشعر
وحاذى البديهة بالبديهة والروية بالروية لعدل عن حكمه ولما أطلق
القول في التفضيل بل قال فلان أشعر في قصيدة كذا ومعنى كذا
والآخر أجود في كيت من جهة المعنى أو الديباجة أو حسن التصوير
ولا يسوغ له أن يحكم على الإطلاق إلا بعد أن يستقرى المحاسن

(١) الشيخ محمد المهدي : هو أحد علماء اللغة العربية في هذا العصر ،
وكبير من كبار أدبائها ، وفرد من أفراد مؤرخيها ، ويمتاز بحسن الذوق
ودقة النظر في الانتقاد ، وهو - وإن كان لا يكتب إلا قليلاً - فإنه ينسب
الفضل في تخرج كثير من كتاب هذا العصر ، وتقويم ملكاتهم وتهذيب
أذواقهم .

والمساوىء ، ويقارن بين ما لكل من الشاعرين منهما حتى إذا ما وجه أحدهما أنضر ديباجة وأبلغ معنى وأغزر فنوناً وأحضر بديهة وأقل مسقطاً وأكثر غوصاً على المعاني وأجمل أخذاً وأوفر مادة حكم له على الآخر حكماً يؤيده الدليل الصحيح والذوق السليم لا يحكم كثير من المفضلين الفضوليين ، ومنهم جماعة من النحاة عرضوا قوانينهم على بعض الشعر الذائع كشعر النابغة فلم يتفق مع بعضها ففضوا من فضله ونسوا أن قواعدهم محكومة بشعره لا حاكمة عليه ومنهم آخرون جملة المعاصرة والمنافسة على الخط من شعر أقرانهم ، وقد قلدهم في ذلك بعض المؤلفين نخاضوا في أقدارهم وهم لا يشعرون ، وقد ينتقد الحضري البدوي فيعيبه لاختلاف الذوقين وربما كان البدوي في باديته أشعر من الحضري في حضارته .

ولا بد أن يكون الوازن من أهل الذوق الصحيح والاطلاع الواسع محيطاً بكل ما قال الشاعران بعيداً عن الهوى والتقليد دقيق النظر في المقابلة بين المعاني والألفاظ فيقارن المفردات والأساليب والمعاني المخترعة وحسن الخيال وقبحه والبراعات والمخالص والمقاطع والأخذ والابتداع وأن يذكر تعليل كل تحسين أو تقبيح بما يقنع حتى يرسم للنظر ما يهيء له الحكم فلا يسعه قبل أن يأتي على الموازنة إلا النطق بالحكم قبل سماعه كما فعل أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى في كتاب الموازنة بين أنى تمام والبحترى فإنه قال : لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر لكنى أقارن بين قصيدتين من

شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى
فأقول أيهما أشعر في تلك القصيدة وذلك المعنى ثم احكم أنت على
جملة ما لكل واحد منهما إذا استطعت علماً بالجميل والردى. ثم ذكر
مساوى الشعارين فسرد سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط
شعره وقبح استعاراته وتجنيسه واضطراب وزنه ثم ذكر ما وجدته
من ذلك للبحترى وقارن بين ما افتتح به القول من الوقوف على الديار
ووصفها والسلام عليها والدعاء لها إلى غير ذلك ونبه على الجيد وفضله
على الردى وبين علل ذلك، ثم قال: وبقي ما لم يمكن إخراجه إلى البيان
وهو ما لا يعرف إلا بالدربة ثم ضرب المثل بالفرسين والجاريتين
تساويان في كل شيء من الصفات الحسنة ومع هذا يفضل إحداها
على الأخرى المجربون ولا يستطيعون بيان ذلك، ثم ذكر ميزان
الموازنة لمن لم يكن من أصحاب الذوق السليم فتحته النظر في الوجوه
التي يفضل بها الأئمة شعر أوس بن حجر على النابغة الجعدي مثلاً فإن
عرفها فضل على مقتضاها وحكم حكماً مقبولاً وإلا فحسبه أن يكون
مع الجمهور.

أما فائدة المقارنات فتحصيل ملائكة الأدب وصحة النقد وكشف
القناع عن المحاسن لتحتذى والمقايح لتجتنب، وكما أن اللسان لا يمرن
على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم
الصحيح ولا يحول في ميدان فسيح من المعاني ولا يقدر الأشياء قدرها

إلا بالمقارنات التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكماً
غير مزعزع ولا مدافع، ولو أن المتقدمين عنوا بهذا الموضوع عنايتهم
بسواه لما بقي كثير منا مضطرباً اضطرابهم في مقادير الشعراء .

ضرورة التعريب

• للشيخ محمد الخضري ، (١)

يقولون إن الحق في التعريب إنما كان لأمة سلت وبادت فلم
يبق لها من أثر وإن ما كان يباح للأعراب في بواديه على قلة حاجتهم
لا يباح مثله لنا في القرون المتأخرة على كثرة الحاج ، وهذا كله بنوه
على قاعدة لا أساس لها وهي تشبيه اللغة بالدين في التمام، فكما أن الله

(١) الشيخ محمد الخضري : شيخ من جلة شيوخ العصر ، وعالم من
أكبر العلماء بالشرعية والتاريخ والأدب ، وكاتب من أفراد الكتاب معروف
بالماتنة والدقة وجمال الأسلوب وقوة الحجج ، ويمتاز باستنارة ذهنه وحبسه
للاصلاح وبغضه للجمرد على كل قديم في العلم أو الدين ، وله في الاجتماعيات
والمباحث الدينية من الرسائل ما يسمو به إلى منزلة المصلحين .

سبحانه أتم دينه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فكذلك العرب قد أتمت وضع لغتها ولم يبقَ من بعدهم من يحق له أن يضيف إليها كلمة جديدة ، كما أنه ليس لمسلم أن يضيف على دينه حكماً جديداً .

لكن الفرق بين الأمرين ظاهر فإن الدين وضع إلهي شرعه من له حق التشريع والإلزام وهو الله سبحانه وتعالى وأتم وضعه على قواعد راسخة وأساس ثابت فلم يبقَ لأحد مجال أن يزيد على هذه القواعد أو ينقص منها ؛ أما اللغة فالمقصد منها الإبانة والإفصاح وهي من وضع الأفراد يتجدد بتجدد الحاجات .

وليس من قصدي أن أبحث الآن في أمر اللغات أمي توقيفية أم وضعية فإن ذلك مما فرغ منه العلماء وانتهى بهم البحث إلى الرأي الثاني حتى أن كثيراً من أصحاب الرأي الأول قالوا إن المراد بما وضع أولاً هو الكلمات التي تدل على مثل السماء والأرض والهواء مما هو موجود منذ وجد الإنسان ، أما ادعاء أن الألفاظ الدالة على المخترعات والمحدثات مما عليه الإنسان الأول آدم صلوات الله عليه فهو مكابرة للبحسوس .

ومنى ثبت أنها تتجدد بتجدد الحاجة فالمحتاج من المتمسكين بها متى علم أصولها ولهجتها له إحق التعريب بالضرورة كما كان هذا الحق لسلفه .

ولا أدري ما الفرق بين من علم اللغة تليقناً من أبيه وأمه وبين

من علمها من معلم غيرهما واعتادها بعد ذلك في كلامه وكتابه حتى
صارت له ملكة بحيث يمكنه أن يقف ساعة فيخطب بها من غير أن
يحيد عن طريقها ويكتب كتاباً صحيحاً يُقرأ في ساعات أو أيام ؟

إن الذين يخالفونني في الرأي ويقولون بالتوسع في استعمال
المفردات لا ينجون من تغيير الأوضاع والدلالات العربية .

هم بلا شك يتفقون معي أن حق التغيير للحاجة ثابت لنا ، ومتى
اتفقنا على نيل هذا الحق لم يبق إلا التخير بين سهل وأسهل ومفيد
وتام الإفادة . ولا مرأ في أن اللفظ الذي وضعه واضعه للدلالة على
شيء اخترعه أسهل في الدلالة وأتم في الإفادة لأنه وضع بإزائه تماماً
كما وضع لفظ الإبريق بإزاء تلك الأداة التي نعرفها بخلاف الكلمة التي
تقصدها من موات اللغة فإنها إما أن تكون موضوعة لشيء هو أعم
فنخصصها ويلزمنا إيجاد القرينة للدلالة على ما نريد فنحتاج إلى لفظ
وقرينة وإما أن تكون مستعملة في شيء فيه مجرد مشابهة كما بين الأتومبيل
والسيارة فنحتاج لاستعمال لفظ واحد للدلالة على معنيين أو معان كثيرة
فالسيارة استعملت للدلالة على معنى هو القافلة أو الركب فإذا قلت
جاءت سيارة هل يفهمني المخاطب بمجرد لفظي ؟ أظن لا ، بل لابد مع
ذلك من كلمة أخرى مبينة للمراد .

لا أدري ما المانع من أن يدخل في اللغة ترام ويقال أترم وأترم
كما قالوا الجام وألجم وملجم !

إن الكلمة التي نريد اصطياًداها قد وضحها واضعها بالضرورة لتدل
على معنى خاص فإذا نحن أخذناها واستعملناها في شيء جديد لم نتمكن
قد جربنا على لغة العرب لأننا خالفنا أوضاعهم ومقاصدهم فهم وضعوا
بشكى وجمزى مثلاً للناقاة السريعة فإذا جعلنا كلمة منهما بإزاء التزام
نكون بلا شك وضعنا وضعاً جديداً لم يسبقنا إليه سابق . واجتلاب
مثل هذه الألفاظ بالنسبة لمخفوط اللغة كوضع ألفاظ جديدة مؤلفة
من أحرف اللغة فسيان في الاعتراض على رأيهم أن نقول للترام
بشكى وأن نقول له ترام لأنهما كلاهما استبداد بوضع اسم لمسمى
لم يكن له وجود قبل الآن إلا أن وجه الضرر في الأول ظاهر كما يتضح
وجه المنفعة في الثاني فإننا في الأول نجرى على خطة لا أساس لها مع وصف
الخروج عن أوضاع المتقدمين وفي الثاني نجرى على خطة اتبعها سلفنا
مع الوضاحة التامة في الإسم والمسمى ، ولا أدري بعد ذلك ما الذي
يدعونا إلى تعسف الطرق ولعلمهم يرون في ذلك رأياً فيقولون إننا
باتباع الطريق الأول حافظنا على ما بين دفتي القواميس فلم نخذ عنه قيد
شبر ولم نخرج عما نطق به العرب في بواديهم وفي ذلك من احترام
الآباء وإقناع الناس بغنى اللغة العربية وثروتها حتى لا يهزأ بنا هازي .
فيقول إن لغة تربو عدة كلماتها على الثمانين ألفاً محتاجة إلى ما يكملها
ويسد ثلثة فيها .

أما دعوى أن هذا محافظة على ما هو عندنا فغير صحيحة لأنها
إنما تكون بالمحافظة على الاسم والمسمى الذي اللفظ بإزائه وإذا لم نفعل

ذلك كنا قد خيلنا على الناس تخيلاً لا قيمة له وارتكبنا في التغيير
من أوضاع القواميس ما لا يخفى، لأننا إذا كتبنا لفظاً من هذه الألفاظ
التي اخترنا التوسع فيها واستعملناها شيئاً جديداً نذكر في قواميسنا معنيها
القديم والحديث فنكون قد ابتدعنا وأودعنا السامع والمتعلم في حيرة
أم نترك ذكر المعنى القديم ونقتصر على الحديث. ووصف هذا بالإفساد
في لغة المتقدمين واضح لا يحتاج إلى بيان وخير منه أن نذكر لفظ ترام
مثلاً بعد الاتفاق على لفظها ونذكر بجانب معناها وإنيهما عرب للدلالة
عليه ونبين تاريخ تعريبها فيكون ما وضعه المتقدمون معروفاً وحده
وما ألحقه باللغة المتأخرون معروفاً وحده هي المحافظة الحقيقية على
ماورثناه من سلفنا.

وأما أن يغتر مختبر بكثرة ألفاظ اللغة حتى لا يحتاج إلى مزيد
ففيه غلطتان كبيرتان فإن الثروة المزعومة لا نقول بها، لأننا إن طرحنها
المترادف ما وجد معنا بعد ذلك أكثر من الثالث بهذا العدد فكثيراً
ما نجد المعنى الواحد له اسمان فأكبر إلى خمسمائة اسم كما قالوا في السيف
والخمر والهر والعسل وما شاكل ذلك وهذه ليست بثروة.
والثروة التي أسلم بها إنما هي في أسماء المعاني وليست داخلية في
موضع بحثنا.

وأما عدم الحاجة إلى مزيد فهذا لا تدعيه لغة من لغات الأمم الحية

لأن الأمم كلها كثرت حاجاتها وتجددت اضطرت إلى المزيد من الألفاظ
في اللغة وهذا هو سر الحركة الدائمة في لغات الإفرنج بحيث ترون
بجامعهم في شغل دائم لا يأنفون أن يجدوا يوماً ما في لغتهم كلمة زائدة
دلت على معنى جديد، وأكثر أحوالهم الاستعارة من غير لغتهم . وإذا
كنا نرى عقولنا قد وقفت عن الاختراع فانا نرى أنفسنا في حاجة
إلى استعمال مخترعات المخترعين والتعبير عنها .

أدوار الشعر العربي

لأحد الأدباء المعاصرين ،

كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة البيضاء النقية
لا تعبث الحضارة بجمالها ، ولا تغير المدنية في وجهها ، تطلع الشمس في
آفاقها فتتسبط على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها من حيث
لا تعترض في سبيلها من المظلات سحب ، ولا من السقوف حجب ،
وينبت نباتها حيث يجرى ماؤها لا تعبث فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير
ولا تقويس ولا تعريج ويجرى ماؤها في سبيله متدفقا حيث ينساب
به تسلسله وإطراده لا تلوى به عن قصده الحفائر ، ولا تنصب في وجهه
القناطر . ويهيم وحشها في جبالها وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس
الأول عرين موصود ، ولا الآخر قفص محدود . والشعر من وراء
ذلك كله مرآة صافية مجلوة تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها
وجواهرها .

ينطق العربي بما يعلم ، ويقول ما يفهم ، ويصور ما يرى ، ويحدث
عما تمثل في نفسه حديثا صادقا لا تكلف فيه ولا تعمل لأن كل ما هو
محيط به من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب ومرافق وأدوات
على الفطرة السليمة الخالصة ، فأحرى أن يكون شعره كذلك .

ذلك كان شأن شعر العربي والعرب على فطرتهم، وذلك معنى قولهم
الشعر ديوان العرب لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية وتمثال
خواطنهم الحقيقية والخيالية فإن ظن ظان أن التماثيل والنصب
والمخطوطات والمنسوجات والصور والتماثيل وبقايا الآثار وقطع
الأحجار التي تراها في خرائب اليونان والرومان والفينيقيين والفراعنة
أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب
قلنا له ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وتحدث المؤرخون
بعبث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته أما الديوان العربي فصورة
صحيحة وآية مقدسة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس فانتقلت الأمة العربية
من بداوتها إلى حضارتها وهاجر معها شعرها بهجرتها فطلع جديش
المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان بشار وأبو نواس فطرقوا
معاني لم تكن مطروقة ومنجوا مناهج لم تكن معروفة فقلنا لا بأس
بالشعر العربي أوسع من أن يضيق بحاجات أمته في جميع شؤونها
وحالاتها حتى جاء أبو تمام شيخ المحسنات اللفظية فسلك إلى أكثر
معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المزخرف فغفر في
الشعر العربي ثغرة ألح عليها الساترون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم
حتى صيروها باباً أفوه لا يمنع ماوراءه ولا يدفع ما أمامه ، فأصبح
الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي والسراج
والجزار والحلي وأمثالهم أشبه شيء بتلك الآنية الفضية أو الصيلية

التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ظهراً
زاهياً وبطناً خاوياً لا تشفى غلة ولا تبض بقطرة ولا تسمن ولا تغنى
من جوع . ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون من هذه
المنزلة فجاءوا بشيء هو أشبه الأشياء بتملك المقاييس والتفاعيل التي
وضعها الخليل ميزانا للشعر لا يروق لفظها ولا يفهم معناها .

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر بضعة قرون وقفة لا يتحرك
عنها ولا يتحلحل حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلاً في هذا
العهد الأخير أخذوا بيده ونشروه من قبره ونقضوا عنه غباره
فأصبحنا نرى في إيراد الكثير منهم أجسام أبي نواس وأبي عبادة
وأبي تمام والشريف وبشار لا فرق بينهم وبينهم إلا أن هؤلاء مقلدون
يتبعون الآثار وأولئك مبتدعون يفترون الأبيكار .

وصف كتاب النظرات

« لحافظ إبراهيم »

(وهو كتاب أرسله الكاتب إلى المؤلف)

قدم أحد أقبال اليمن إلى دار الندوة فبصر فيها بصاحب الشريعة الإسلامية وهو إذ ذاك غلام مرأوق فقال لمن حضر من القوم إن هذا الغلام تارة ينظر إليكم بعيني لبوة وتارة بعيني عذراء خفزة . فلو أن نظرتي الأولى كانت سهماً لا تنظم أفئدتكم فؤاداً فؤاداً . ولو أن الثانية كانت نسماً لأنشرت أمواتكم . وكذلك أراك في نظرائك إلى قومك أيها الكاتب الكبير . فلو لا أنك غير معصوم وأن الله قد أجل مقام النبوة عن الأشباه والنظائر لقلت ما أشبه هذه بتلك والسلام .

الإنشاء والعصر

« إبراهيم بك المويلحي » ، (١)

سمعنا كلاماً يجرى في كثير من مجالس الباحثين المدققين أولى الأدب والفضل عن السبب الذي وقف بصناعة الإنشاء والتحرير عند هذا الحد من الضعف والخنول مع تزايد المدارس وانتشار التعليم وكثرة المطابع واتساع دائرة المطبوعات وإطلاق حرية القول وتعدد فنون المطالب والمواضيع في هذا العصر خاصة . وما بالنّا نرى دوائر بقية الصناعات العالية تتسع وتنمو على نسبتها ودوائر الكتابة والإنشاء تضيق وتنكمش وتنحط ولا ترتفع فلا يمضي عام ولا يمر حول إلا ونجد دائرة الطب والهندسة أو المحاماة قد دخل فيها عدد ليس بقليل من الأطباء أو المهندسين أو المحامين وينقضي العام في أثر العام ولا نسمع بظهور كاتب واحد ينضم إلى دائرة التحرير من بين أولئك الآلاف المؤلفة من طلبة العلوم العربية في المدارس وغيرها . وما لنا نجد أهل تلك الصناعات يسلكون سبيل الاتقان والاحسان في دائرهم على كل

(١) إبراهيم بك المويلحي : لا أكون مبالغاً إن قلت إن المرحوم إبراهيم بك المويلحي هو شيخ الكتابة العربية في هذا العصر وإنه هو الذي علم الكتاب كيف يرقون بلغتهم إلى الميزة التي وصلت إليها اليوم . وكيف يودعون في كتاباتهم النكات البديعة والمعاني المستطرفة ، ويخرجون بها من ذلك الجمود القديم .

حال بممارسة العمل ومزاولة الصنعة ونجد أهل صناعة الإنشاء قد وقفوا عند حد محدود ونقطة معينة لا يتعدونها ولا يتخطونها وارتضوا لهذه الصناعة العالية وذلك العلم النفس أن يبقى على الضعف والخنول ويقم على النزول والهبوط .

ولا يقال هنا إن قلة الفائدة المادية من هذه الصناعة هي التي تصرف بوجوه الطلبة عن طريق الإتيان فيها والتضلع منها فإنها صناعة عامة تطلب لذاتها ويزدان بها غيرها من الصناعات ، وحسن النطق والتعبير أمر يرغب فيه كل إنسان وأعظم وجوه التفاضل بين البشر تنصرف إلى قوة البيان وحجة اللسان .

وليس الاشتغال بالصناعات الأخرى التي يطلب بها الرزق ويستعان بها على كسب المال لسد حاجات المعيشة مما يمنع من ممارسة تلك الصناعة الشريفة ويشغل النفس عن التحلي بمزاياها الجليلة فالقاضي يحتاج إليها والمحامي ينتفع بها والحاكم لا يستغنى عنها ، وجميع أرباب الوظائف المتنوعة والمناصب المختلفة لا يخلون من الرغبة فيها بل لو نزلنا إلى بقية أهل الحرف والمهن من التجار والصناع وباعة الأسواق لوجدناهم يتطلعون إلى المشاركة فيها ويتمنون الحظوة بها وهم في هم الحرفة وكده المهنة ، وقد علمنا أن الرجل من أهل العصور السالفة يكون خبازاً وشاعراً مجيداً ويكون جزاراً أو كاتباً أديباً ويكون حداداً وخطيباً بليغاً . يلافكون السبب إذن في انحطاط صناعة الإنشاء والتحرير وقلّة

عدد المشتغلين بها راجعاً أبداً إلى ضعف الفائدة المادية منها وتحول
النفوس عنها لالتماس الربح من وجوه الصناعات الأخرى ولا لفقد
الرغبة فيها لذاتها فإنها زينة كل صانع وحلية كل ناطق وغرة كل علم
وفن، وإنما السبب عند جمهور الباحثين هو سوء طريقة التعليم والتلقين
للعلم العربي بين طلبة المدارس وضعف العناية في اختيار الكتب
النافعة للتدريس . وليس هذا في نظرنا السبب الوحيد لما نشاهده من
التأخر والانحطاط في صناعة الإنشاء والتحرير وقلة العاملين فيها فإنك
مهما جئت به من التحسين والتعديل لطريقة التعليم لا ينفع في تربية
ملكة الإنشاء في أذهان التلاميذ التي عليها المعول في حسن الصناعة لأن
المدة لدرس اللغة العربية في المدارس لا تكفي لغير الحصول على أصول
اللغة وقواعدها ولا تفيد في تكوين الملكة لشيء صالح، ولا يخفى عن
عليك أن الطالب يتجرع هذه القواعد والأصول في الدرس ولا يكاد
يسمعها ولا يتناولها إلا كما يتناول المحموم مر الدواء ولا تمكث في
صدره إلا ريثما يمجيها عند أخذ الشهادة وإن هي ثبتت في حفظه ورسخت
في فكره فلا تكون على صفحات قلبه إلا كما هي على صفحات الكتب
لا يدرك وجوه استعمالها ولا يعلم أبواب التصرف بها والتطبيق عليها
فإذا جئت له بصحيفة من كتاب لم يتوقف في إعراب ألفاظها على وجه
الإحكام والصواب ولكنك إذا طلبت منه أن يقرأها لك سرداً لم
يسلم على لسانه سطر واحد فيها من اللحن وإذا أخذته على كتابة بضعة
أسطر في أي شأن كان لم تخرج من يده خالية من الخطأ ؛ على مثل هذا

يخرج المتخرجون في المدارس سواء الفائز منهم بالشهادة والخائب فيها ثم ينصرف كل واحد منهم إلى ما ينصرف نحوه من الأعمال والأشغال التي تلهيه عن كل صحيفة وكتاب ولا يجد أمامه مجالاً لنمو ملكة الإنشاء ولا في وقته متسعاً للانكباب على مطالعة الكتب النافعة في إتقان الصناعة ولا يرى بين يديه ما يبعث فيه الشوق ويحيي الرغبة لممارستها ومزاوتها فإذا هو انتهى في يومه من عمله إلى بيته اشتغل فيه بأهله وإذا خرج إلى السوق اشتغل فيه بالناس والناس قد أصبحوا جميعاً في شغل شاغل وهم متواصل من ضروب هذه المعيشة الحديثة وفنون المدنية الحاضرة فقل أن ترى فيهم من يجلس لمطالعة في كتاب أو يلتفت إلى محاضرة في أدب أو يحفل بمناظرة في فن فيأخذ معهم في طريقهم ويسير على نهجهم فتتلاشى منه ملكة العلوم بدل أن تنمو ، وتنقص رغبته فيها بدل أن تزيد والفكر إذا لم يجد ما ينهه خمد ، والذهن إذا لم يصادف ما يحركه جمد .

أما إذا ما ابتلاه الله بالدخول في خدمة الحكومة فقل يا ضيعة العلم والأدب ويا بؤس صناعة الإنشاء والتحرير ويا زوال ملكة الإفصاح والتعبير إذ يلتقي هناك لساناً جديداً ولغة حديثة لا يهتدى فيها إلى قاعدة ولا ترتبط برابطة ولا تفضل لغة البرابرة إلا بأنها تسطر دونها وتدون فيضطر المسكين أن يمحو من ذهنه جميع ما تعلمه وتلقاه من قواعد اللغة وأصولها ويحمد الله في نفسه على زوال الحاجة إليها وحسن خلاصه من عناء التذكرة لها وطول الاشتغال بها ، ولو أنه ذهل يوماً وجاء في

بعض عمله بجملة صحيحة وعبارة مستقيمة اللغة وانحرف عن ذلك
اللسان المصطلح عليه شيئاً قليلاً لأصبح عرضة للنهك عليه والاستهزاء
به بين العمال فيعمد إلى التوبة من الذنب ويمتنع عن معاودة الإثم ولا يجد
له من سبيل إلا أن يجرى معهم في مضمارهم ويأخذ بلسانهم فيأمن
من مكرهم .

فأنت ترى على هذه الحال أن السبيل إلى تربية ملكة الإنشاء
قبل الخروج من المدرسة غير ميسرة وبعد الخروج منها متعذرة وأن
مزاولة الأعمال ومخالطة الناس تعين على زوالها وتبعث على خوارها .
إلا أنه قد بقي لدينا مع ذلك باب كان يرجى منه النجاح في نمو تلك
الملسكة والتدرج إلى انقائ صناعة التحرير وهو باب الصحف والجرائد
فإن الناس إن كانوا قد غفلوا عن مطالعة الكتب وأهملوا النظر في بطون
الدفاتر فإنهم استبدلوها في أوقات فراغهم بمطالعة الجرائد المنتشرة
على الأيدي في كل يوم وأصبحت النفوس متولعة شديدة التولع على
أخبارها والتسامر بأقوالها وصارت بينهم شيئاً من لوازم المعيشة في كل
يوم لا يصبرون عنها ولا يستغنون عن تلاوتها وأقاموها لديهم مقام
كل سفر وكتاب وتعلقت نفوسهم بهذا الشيء الحاضر على الدوام
بين أيديهم في كل مكان فكان المأمول أن طول انكبابهم على مطالعتها
عند كل صباح ومساء ينتهي على مرور الزمن فيهم باكتساب ملكة
الإنشاء وسرعة الوصول إلى المنزلة الرفيعة في حسن التعبير والتجوير
ولكن من سوء الحظ أن الجرائد السائرة لم تلتفت إلى هذا الغرض

الجليل ولم تعمل لهذا المقصد النبيل ولم ير أربابها أن يتعبوا أنفسهم
ويكدوا خواطرهم للتفنن في بلاغة القول وفصاحة التعبير وانتقاء
الألفاظ وتنويع التركيب وتجديد الأسلوب وما شابه ذلك من محاسن
هذه الصناعة التي تشوق النفوس وتطرب إليها القلوب وتأخذ بمجامع
اللب ويلطف تناولها على المملكات وتحن القرائح إلى اقتباسها وتحرص
الأذهان على اقتنائها فتتولع النفوس بمحبة الاشتغال بها وتنصرف
الأفكار إلى الترقى في مراقبها وتتسكون فيها من إدمان المطالعة بضاعة
نفيسة تذهب بالناس إلى طلب التزيد منها فيحلوهم الرجوع إلى مراجعة
كتب الأقدمين ويلذ لهم صرف أوقاتهم في اجتناء ثمراتها وينتهي بهم
الامر إلى التوغل في أبواب الصناعة والوصول إلى جميل الاحسان
والانقائ فينبغ فيهم النوابع من الفصحاء والبلغاء ويكثر بيننا عديد
الكتاب والأدباء .

بل رأينا أرباب الجرائد قد وقفواهم أيضاً في باب التحرير عند حد
محدود وقعدوا عند نقطة معينة وداروا بأقلامهم في دائرة واحدة
لا يخرجون منها ولا يتوسعون فيها وكادوا يصلون في وحدة التعبير
واصطلاح التحرير وتكرير الجمل والألفاظ بعينها في كل يوم وفي كل
ياب إلى مصطلح من اللغة يشابه مصطلح لغة الحكومة وإنما يفضلته
بسلامته من اللحن وحده على وجه عام . وقد صارت تلك الجمل
والتراكيب المعينة لطول إعادتها وتكرارها راسخة ثابتة في جميع

الأذهان فلا يشتغل فسكر كاتبها في تسطيرها ولا يحتاج جامع حروفها
إلى مراجعتها ولا يعن قارئها بنظره في مطالعتها فهي مشتركة في الأذهان
ومتتملة للأنظار وقد اهتدى بعض أصحاب المطابع إلى سبك كثير
من تلك الجمل والمركبات قطعة واحدة في قوالب من نحاس تخفيفاً
للعمل واسترباحاً للوقت . وإذا شعر أرباب الجرائد يوماً بهذا الإخلال
والإفساد في الصناعة قالوا إن لنا فيه عذراً واضحاً وشفيعاً ظاهراً
وهو أننا إذا سلكنا طريق التفنن والإبداع في التحرير والانشاء
عسر على القراء فهم ما نكتبه لهم فلا يستريحون إلى المطالعة
ولا يستفيدون من المواضيع ، فنحن مضطرون إلى الوقوف عند هذا
الحد البسيط ، وفاتهم أن الواجب على المجيدين الذين يضعون أنفسهم
أمام القارئ في موضع الهادي والمرشد ومقام المربي والمعلم أن
يرفعوا بذهن القارئ إلى درجة أذهانهم لا أن ينزلوا بأفكارهم إلى
درجة أفكاره .

نقد الدرة اليتيمة

« للشيخ إبراهيم اليازجي »

أهديت إلينا نسخة من هذه الرسالة الأنيقة وهي من تأليف الكاتب البليغ المشهور عبد الله بن المقفع أودعها فنونا من الحكمة وآداب المخالفة والمعاشرة وما ينبغي للإنسان أن يتزينا به من الأخلاق في مصاحبة الحكام ومخاللة الأصدقاء ومدارة الشائئين والحساد وما يسلكه من الطرق لا تقاء الأعداء وأصحاب الطوائل والتسبب إلى النيل منهم ورد كيدهم إليهم . وكل ذلك مما لقنته التجربة وأعانت عليه الحنكة وأرشدته إليه ذكاء قلبه وتوصل إليه بعين النقد والاعتبار وتتبع الأمور بالنظر الصادق والقلب الحافظ بحيث كان لا تمر به واقعة ولا يجري أمامه أمر إلا تمثل فيه عبرة وانتزع منه حكمة واستفاد به من سعة عقله وبعده نظره وغزارة علمه وقوة عارضته وما عرف به من بلاغة الكلام وسحر البيان والحكمة الرائعة ، وكيف لا وهو معرب كتاب « كلیلة ودمنة » المشهور الذي لو لم يكن له فيه إلا أنه كساه من ديباجة لفظه ووشى بيمانه ما كان به نسيج وحده في التصانيف العربية فضلا عن المعربة وما لا يزال به على الدهر جديداً لا تبليه الليالي ولا غيره الأيام لكفاه دليلاً على غزارة فضله ورأسته بين أرباب البلاغة وأمرأ الإنشاء .

ولا بأس أن نورد هنا لمعة يسيرة في المقابلة بين كلامه في هذه الرسالة وعبارته في تعريب كيلة ودمنة لا نقصد بذلك غير فائدة النقد وما يترتب عليه من استخراج الحقائق وإرشاد البصائر فإن من تتبع الكتابين بالنظر النقاد وتصفح أسلوبهما بالذهن الشفاف واعتبر به ضمهما ببعض فلا جرم أنه يرى كلامه في كيلة ودمنة أخلص ألفاظاً وأنى ديباجة وأنصع ألواناً وأشد انسجاماً، تُرى عبارته هناك جوهر أصافياً ونسقاً مطرداً لا يتوقف دونها الفهم ولا تجهد عندها الروية ولا يعترض بمانه فيها لبس ولا إشكال . وإذا اعتبر كلامه في الدرة وجد كثيراً منه غير خالص من التعقيد والاضطراب قلق الأسلوب صعب الاستخراج غير نضيج على الجملة ولا منقح العبارة . بلى إن النسيج في كلا الكتابين واحد وطبقة الكلام لا تختلف ولكن هناك من الاندماج والسلاسة وانقياد الأغراض واضطراد السبك ما لا تجده هنا . ولعل ذلك إذا تتبعت أسبابه وارد من كثرة تداول الأيدي لذاك دون هذا فكان مثله مثل الدينار الذي كثر التعامل به وطال تنقله من يد إلى يد حتى أزلت الأيدي حرشته وعاد أملس ناعماً وذلك أن كتاب كيلة ودمنة قد رزق من الشهرة والاستحسان وإجماع العقول على إشارته ما لم يرزقه كتاب في بابيه وهو إلى اليوم أشهر من نار على علم . ولأنك أدري متادباً إلا وقد أطلع عليه وشغف به وطالما كان موضع ارتياح الملوك والرؤساء والعلماء والأدباء وقد كثرت عنايتهم به وخدموه خدمة لم يخدمها كتاب فما منهم إلا من انتسخه أو استنسخه فضلاً عن نظمه من شعر شعرائهم فكان

الناسخ من أهل الذوق والبصر بالإنشاء إذا رأى فيه منقفاً أزاله أو
أوداً أقامه فلم يغادروا فيه عبارة نافرة ولا لفظة قلقة ولا تركيباً ثقيلاً
بحيث أنه على تهادى الزمن وتكرر النسخ تم تهذيبه وتنقيحه . الذي
يدلّك على صحه ما نقول أنك لا تكاد تجد نسختين منه تتواطآن على
لفظ واحد حتى أن دسّاسي كان بين يديه سبع نسخ منه كل واحدة مباينة
للأخرى . وهذا مما يدل على فضل هذا الكتاب ولا يغض من
قدر معربه شيئاً إذ الكلام لا يزال كلامه والأسلوب أسلوبه وبمقابلته
بالدرة التي نحن في الكلام عليها يظهر لك مصداق ذلك وتري أن ديباجته
مع ما تبدل عليها من النقوش والزخارف لم يتبدل متنها ولا تنسكروا
لونها ولكنها مازالت تعرف لأول لمحّة لا تخيب عن معرفة الناقد
وتمييز العارف .

على أنا لا ننسكروا أكثر ما في عبارة الدرة من السقم والاضطراب
إنما ورد عليها من قبل الناسخ وشتان ما بين صنيعهم هنا وصنيعهم
هناك ولكن كل ناسخ إنما فعل بمقدار علمه فإن الذين نسخوا هذه
الرسالة لم يعدوا في إلا أكثر حال سائر الناسخين ممن لا علم لهم
بما ينسخون . والذين تولوا نسخ كتيبة ودمنة كان الكثيرون منهم من
حول أهل الإنشاء والمعرفة بأسرار اللغة وأساليب الكلام فلا عجب
أن جاء كل من نسخ الكتابين على ما وصفنا والله أعلم .

وإثباتاً لما ذكر وتنزيهاً لعهد المؤلف عن كثير مما جاء في هذه الرسالة

ننقل هنا بعض المواضع التي أشرنا إليها مما أفسده تحريف النساخ وما لعله اجتمع إليه من أغلاط الطبع التي هي فاشية في كتبنا العربية لا يكاد يسلم منها كتاب . والتي هي ولا جرم أعظم ضربة على المصنفين والكتاب فمن ذلك ما جاء في صفحة ٩ وهي الصفحة الأولى من الرسالة « غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتحل في آرائهم والمنتفى من أحاديثهم فإن قوله «المنتحل في آرائهم» غريب في هذا الموضع لا يستقيم له معنى ولا هو مما يحتمله سياق الكلام وصوابه «المنتحل» بالخاء المعجمة وهو بمعنى المنتقى الوارد بعد مع تبديل لفظ «في» بلفظ «من» وهو الوجه السديد الذي لا غبار عليه كما ترى .

ومن ذلك في صفحة ١٠ «في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامه وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مأخذهم» فإن هذه المخالفة في صيغ الضمائر لا وجه لها بل منها ما يفسد المعنى كما ترى والوجه إيرادها جميعاً بلفظ التذكير والإفراد عوداً على العلم .

وفي صفحة ١١ «واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها (أي بالإمارة) فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته» فقوله «من العجب» لا معنى له في هذا المقام كما ترى ولا ما ذكره بعده مما فيه عجب إذ أكثر الناس على هذا السبيل من إظهار الدعة واللذة . بل الأظهر أن الأصل «من العجز» فأبدله الناسخ سهواً أو عمداً لأنه لم يفهم معنى العجز هنا وهو نقيض الجرأة فأنتم بذلك المعنى وتشوّهت صورته كما ترى .

وفي صفحة ١٣ «لئلا ينتشر من ذلك ما يجترى به سفيه أو يستخف له شأن» ولا معنى للشأن هنا كما ترى والصواب «شأن» .

وفي الصفحة نفسها «واعلم أنك ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم» شكت الشين من «شغلت» بالضم فتسكر المعنى واضطربت سلسلة الكلام لأن «ما» صارت على هذا شرطية زمانية والمتصود أن تكون اسماً موصولاً يرجع إليه ضمير محذوف بعد شغلت وذلك على حد قوله بعد «وما صرفت من مالك بالباطل فتدته حتى تريده للحق وما عدلت به عن كرامتك إلى أهل المقص أضربك في العجز عن أهل الفضل» .

وفي صفحة ١٦ «لا يلومن الوالى على الزلة من ليس بمتهم على الحرص على رضاه» والصواب «في الحرص» .

وفي صفحة ١٨ «لا يعرفك الولاية بالهوى في بلدة من البلدان ولا قبيلة من القبائل فيوشك أن تحتاج فيها إلى حكاية أو مشاهدة فتتهم في ذلك» وفيه خطأ يعلم الله مكانه وإلا فهذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن قلم المؤلف . ثم إن قوله «في بلدة من البلدان» فيه تحريف بزيادة التاء على بلدة لأن فعلة لا تجمع على فعلا ن وإنما البلدان جمع بلد مثل حمل وحملان وجمع البلدة بلاد .

وفي صفحة ٢٠ «لا تحضرن عند الوالى كلاما لا يعنى ولا يؤمر بحضوره إلا لعناية به أو يكون جوابا بالشيء سئلت عنه» وفي هذا

الكلام من الاضطراب والابهام مالا يخفى ولا تعين حروفه على معرفة أصله بيد أن قوله « جواباً بالشيء » فيه تكرار حرفين وصوابهم « جواباً لشيء » .

ومثله في صفحة ٢٢ « إذا قال لك السائل ما إياك سألت أو قال لك المسألة يعادله بها دونك » .

وفي صفحة ٢٤ « فليست عليه مؤونة في تبذل يتبذل له عنده وفيه زيادة لام والصواب « يتبذله عنده » .

وفي الصفحة نفسها بعد ما ذكر « أو رأى يستزله منه » والصواب « يستزله » .

وأمثال ذلك كثيرة في الكتاب ذاهبة كل مذهب ما بين نقصه وتبديل وإحالة لبعض الكلم عن مواضعه مما تنكرت به صور التراكيب والتبست وجوه المعاني وذهب ما فيه من النصاحة والسبك وأنت خير بأن ما يوصف من الكتب بالسقم والغثاثة أو بالتكلف والتعقيد لا يستلزم أن تكون كل عبارة فيه كذلك ولكن الجملة الواحدة بل اللفظة الواحدة في الصفحة إذا مزنت في غير منزلها فقد تكون كافية لأن تחדش رونقها وتشوه سائر ما فيها من المحاسن كالوجه الجميل إذا كان على إحدى عينيه كوكب أو في إحدى وجنتيه قرحة فقد تنبؤ العين عن النظر إليه وإن كان سائرهما سليماً لا عيب فيه . (م ١٣ - مختارات)

لا جَرَمَ أن ذلك لما يشعر له بالأسف كل من عانى هذا الشأن
(أى شأن الكتابة والتأليف) وتمثل ما بذل المؤلف رحمه الله من الإغراق
فى النظر وتحرى من الصحة ، الإحكام فى وضع هذا الكتاب الذى هو
نتيجة تجاربه وثمره عقله ومعرض بيانه ، وكم مثله من السلف ممن
لو عادوا اليوم وعانوا ما صارت إليه مصنفاتهم وما منيت به من صنوف
الجدع والصلم لتمنوا أنهم لم يجرؤوا فيها قلماً ولم يعملوا فيها فكراً .

فأله أيها الناس فى أمانات أولئك الأفوام إنكم كنتم عليها أنتم
المؤمنين . وأنهم ليسوا بشاهدى أمركم فأرحمهم إنهم كانوا للرحمة أهلاً
وكانوا من المحسنين . واعلموا أن ما وقع إليكم من تلك الأوراق
ليس مما أنبت التراب ، وسقاه السحاب ، وأنضجته الشمس والضباب ،
ولكنه مما أضنيت فيه الأجساد وأفنيت العيون بالسهاد وصدعت
لأجله الرؤوس ، وأذيت الأدمغة عن صفحات الطروس وأنه لما
بيعت به الأعمار فلا تبيعوه ببيع الرخيصة . وبذلت لأجله الدنيا وهى
أحق ما ضن به حريمس وإنما فعل أربابه ذلك بغية الذكر حتى إذا
فئت أعيانهم عاشوا بالآثر ، ولكى يعرفوا بصور عقولهم إذا ذهبت
الأجساد وبقيت بين أيدينا منهم تلك الصور . تالله ما الأرضة التى
تأكل الكتاب فتمزقه بداد ، ولا النار التى تحرقه فتصيره إلى الرماد .
ولا الماء الذى يغرقه فيضرب بينه وبين الوجود بالأسداد بأضر عليه
من يحرف عباراته ، ويبدل حسناته ، ويسخ محاسن آيانه ، وإن

ذهاب الكتاب جملة بداهية من نوازل القدر ، وضياح فضل مؤلفه
وما يرجو أن يبقى به من جميل الأثر . لاهون على قلبه من أن يلشر
بعده بين أيدي الناقدين . وقد حمل عليه من العيوب ما يجعله عرضة
للمفنديين ، وغرضاً لسهام المنددين .

عصمنا الله مما نزل به أعلامنا إنها الزلة الباقية على كرور الليالي
وكفانا شر من يفسد آثارنا من بعدنا إنه كفى العبد ما يتوقع من
فساد كيانه ومصيره إلى الانحلال . وحسبنا الله وكيلا ولا حول ولا
قوة إلا بالله .

جوهر الشعر

« لإبراهيم بك الموياحي »

تمضي القرون والدهور والناس يقولون الشعر وينشدونه ويسمعونه
ويشرحونه وينقدونه ، وهم مذاهب شتى في تعريفه ، فإذا بحث الباحث
في أقوالهم لم يقف منها على تعريف للشعر تراح إليه نفسه . والباحثون
المدققون ينظرون إلى الشعر وتأثير وقعه في النفس من وجهين من
حيث هو كلام موزون ومن حيث هو حالة من حالات النفس .

أما الوزن فهو تأليف عدة أصوات على نمط تحس بها الأذن صوتاً
أثر صوت حتى إذا أنت على الأخير منها تذكرت أولها واستخلصت
من هذا التأليف وحدة تلتقطها دفعة واحدة وهو ما يسمونه في عرف
الموسيقيين بالتنسيق والانسجام وهو في تأليف الأصوات لحاسة
الأذن يماثل التعادل والتوافق بين أشكال الأجسام لحاسة البصر .
فالبيت الموزون ظرف موسيقي في الشعر كتصبة النافخ في آلات
الطرب .

وأما من حيث هو حالة من حالات النفس فنقول إن في النفس
مسحة علوية هي الجمال والهاء الباطني تظهر عليها عند صفاء النفس
وخلوها من شوائب الأكدار ولما كان ذلك لا يلتصق بها إلا حيناً بعد

حين ظننته شيئاً طارئاً عليها من الخارج فلماذا نسب القدماء تجلي ذلك
إليه والجمال إلى أرواح أخرى تمتزج بالنفس. فكان شعراء اليونانيين
الرومانيين يسمونها (الموز) (Les Muses) ويفسرونها بألهة الشعر
وطالما كانوا يستدعونها عند إرادة قول الشعر وهذا (هومير) ،
(أزبوت) و (سيمونيد) و (سفوكل) و (أوريبيد) و (فرجيل)
و (الكريس) و (هوراس) كلهم ينادون تلك الآلهة ويستعينون بها
على زعمهم في مطالع قصائدهم كما تراه في شعرهم .

ومذهب العرب في أن لكل شاعر شيطاناً يلقي إليه الشعر مذهب
مشهور والشعراء كافة عليه ، قال بعضهم :

إني ولو كنت صغير السن وكان في العين نبوءة عني
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن

وقال حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم :

إذا ماترعرع فينا الغلام فما أن يقال له من هوه
إذا لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينا الذي لا هوه
ولي صاحب من بني الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هوه

وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى (مسحل) ولهم شيطان
المخبل (عمرو) قال الأعشى :

ادعوت خليلي مسحلاً ودعوا لهم جهنماً جدعاً للهجين المذمم

وقال آخر :

لقد كان جنى القرزدق قدوة وما كان فينا مثل فحل المخبل
ولا في القوافي مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل
وقال أبو النجم :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أثنى وشيطاني ذكر
وأنشد بعضهم لبعض الرجاز :

إن الشياطين أتوني أربعة في غلس الليل وفيهم زوبعة
وقال الفرزدق يصف قصيدة له :

كأنها الذهب العقيان حبرها لسان أشعر خلق الله شيطاناً
فاذا تجلى جماع الروح في الإنسان وصفت نفسه وكانت ممتلئة من
قبل بأطراف المعارف والفنون مطلعة على التواريخ والحوادث
والقصص والمحاضرات والنكات وبدائع المشاهد الطبيعية والصناعية
وكان لها من التجارب نصيب وافر وكان لها وقوف على مختلف الطبائع
والأخلاق فاضت منها المعاني البديعة فاذا وضعها في الألفاظ المحكمة
التي لا تطوّل المعنى ولا تقصر عنه فأفرغها في قالب الوزن اجتمع
حسن المعنى مع انسجام اللفظ في انسجام الوزن فذلك هو بيت الشعر.

والشعر هو إظهار ما خفي من الحقائق المغنوية وتوضيحها للسامع
يحمليها عليه بوجوه مختلفة وتجديد ما خلق تكرر النظر إليه بهامه من
الموجودات كما قال امرؤ القيس في وصف الأسنّة التي يراها الإنسان

كل ساعة • ومسنونة زرق كأنياب أغوال • فكسادا كساء قشيباً من
من التأثير وجعل لبها في النفس سلطاناً جديداً . ولو خيرت الحقيقة
أن تشرف على الناس من أجل مكان لما اختارت إلا أن تشرف عليهم
من بيت الشعر .

الحسن يظهر في شيتين رونقه بيت من الشعر أوييت من الشعر
وعلى ذلك فالشعر موجود في غريزة كل إنسان وكل إنسان شاعر
وليس كل ناظم شاعراً ويوجد الشعر في المنشور كما يوجد في المنظوم
إذا نشأ عنه تأثير في النفس ومثل ذلك ما نراه من الشعر في كلام البدوي
وقد سئل عن مقدار غرامه بصاحبته فقال (إني لأرى القمر على
جدارها أحسن منه على جدران الناس) وكقول الآخر (ما زلت أرى
القمر حتى إذا غاب أرتنيه) وكما نراه في قصة محمود الغزنوي وقد فتح
بلداً فجاء أهلها يظلمون منه أن لا يكسر أصنامهم وعرضوا عليه إلا
عظيماً فاستشار بعض خاصته فأشاروا عليه أن يبيعها منهم إلا واحداً
قال له : (أتريد أن يقال بعدك إن إبراهيم عليه السلام كسر الأصنام
ومحمود بائع الأصنام) ففعلت هذه الكلمة في نفسه فعلا رفض به
ما كان محتاجاً إليه من تلك الكنوز التي عرضوها عليه .

ومن الأول وزن ما ليس بشعر كما نراه في كثير من القصائد التي يقيدها
فيها أربابها ألفاظاً بقيود الوزن فيضعون ذلك الظرف الموسيقي
ما يذهب بحسن انسجامه كما يتوضح ذلك جلياً في أشعار المتون التي

ربطوا بها قواعد العلوم بالوزن ليسهل حفظها وسواها من نظم الشعراء
الذين لم يكمل الاستعداد في نفوسهم لسلطان الشعر .

وصف نهج البلاغة

للشيخ محمد عبده، (١)

أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب (نهج البلاغة) صدقة
بلا تعمل . أصبته على تغير حال ، وتبليبل بال ، وتزاحم أشغال ،
وعطالة من أعمال ، فحسبته تسلية ، وحيلة للتخلية ، فتصفحت بعض
صفحاته وتأملت جملا من عباراته . من مواضع مختلفات ، ومواضيع
متفرقات ، وكان يخيل لي في كل مقام أن حروبا شبت ، وغارات
شنت ؛ وأن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة . وأن للأوهام

(١) الشيخ محمد عبده : هو - رحمه الله - أ كتب العلماء وأعلم الكتاب
في هذا العصر بل لا أعرف فقها بعد انقضاء دولة الأئمة المجتهدين في صدر
الإسلام أقدر منه على الكتابة الأدبية ، وله في كتابته مزية العلو والمثانة وسعة
المادة اللغوية والاقتدار على الحجة التي لا تدفع .

هرامة (١) وللريب دعارة (٢). وأن جمافل الخطابة، وكتائب الذرابة،
في عقود النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج (٣) والقويم
الأملج (٤) وتملج (٥) المهج، برائع الحجج، وتفؤل دعارة الوسوس.
وتصيب مقاتل الخوانس (٦). فما أنا إلا والحق منتصر، والباطل
منكسر، ومرج الشك في محمود، وهرج الريب في ركود، وأن مدبر
تلك الدولة، وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير
المؤمنين علي ابن أبي طالب. بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى
موضع أحس بتغير المشاهد، وتحول المعاهد، فتارة كنت أجدني
في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية، في حلال من العبارات الزاهية.
تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية، توحى إليها
رشادها وتقوم منها منادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جود
الفضل والسكال، وطورا كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة.
وأنياب كاشرة، وأرواح في أشباح النور. ومخالب النسور، وقد
تحفزت للوثاب نم انتضت للاختلاب، فجلبت القلوب عن هواها.
وأخذت الخواطر دون مرماها، واغتالت فاسد الأهواء وباطل

(١) العرامة : الشراسة . (٢) الدعارة : سوء الخلق .

(٣) الصفيح : السيف ، والأبلج : اللامع البياض .

(٤) الرمح الأملج : الأسمر . (٥) لتملج : ليمتص .

(٦) الخوانس : خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء .

الآراء ، وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً ، لا يشبه خلقاً
جسدانياً ، فصل عن الموكب الإلهي . وانصل بالروح الإنساني خلقه
عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد
النور الأجل ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس . بعد استخلاصه
من شوائب التليس . وآفات كآتي أسمع خطيب الحكمة ينادي
بأعلاء الكلمة ، وأولياء أمر الأمة . يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم
مواضع الارتياب . ويحذرهم مزلق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق
السياسة . ويهديهم طريق الكياسة . ويرفع بهم إلى منصات الرئاسة .
ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير .

باب الأدب والحكمة

قسم المنظوم

الكرم

لحاتم الطائي، (١)

أماوى إن المال غايـ ورائـ ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً حل في مالنا النذر
أماوى إما مانع فبئـ وإما عطاء لا ينهيه الزجر
أماوى إن يصبح صدى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضربي وأن يدي مما بخلت به صفر

الإيثار

لحاتم الطائي أيضاً،

وما أنا بالساعي بفضل زمامها لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

(١) حاتم الطائي : هو أحد شعراء الجاهلية المجيدين ، وأكثر شعره في تأييد ذلك الخلق العظيم خلق الجود والإحسان الذي كان متجسداً به .

وما أنا بالطاوى حتمية رحلها لا بعثها خففاً^(١) وأترك صاحبي
إذا كنت رب اللقبوص فلا تدع رفيتك يمشي خلفها غير راكب
أنحها فأردفه فإن حملتكم فذاك وإن كان العقاب^(٢) فما قب

ذم الغيبة

« لكعب بن زهير »^(٣)

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
ذم الغيبة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

ما أحس الغيرة في حينها وأقبح الغيرة في كل حين
من لم يزل متهماً عرسته مناصباً فيها لرب الظنون

(١) يقال : خف في سيره خفاً ، إذا قل ثقله .

(٢) يقال : عاقب فلان فلاناً في الراحة ، إذا ركب هو مرة وركب الآخر أخرى .

(٣) لكعب بن زهير : هو أحد الشعراء المخضرمين ، وصاحب اللامية المشهورة التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي إحدى المشوبات ، وقد ورث الشعر عن أبيه زهير بن أبي سلمى أحد أصحاب المعلقات .

أوشك أن يغيرها بالذي يخاف أن يبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وضعها منك إلى عرض صحيح ودين
لا تطاع منك على ريبة فيتبع المقرون جبل القرين^(١)

فضل الأناة

• للقطامي^(٢) •

ليس الجديد مقبلاً في بشاشته إلا قليلاً ولا ذو مُخلة يصل
والعيس لا عيش إلا ما تقرُّ به عين ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يلقَ خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل^(٣)

(١) جمعت هذه الأبيات القليلة جميع ما تفرق في كتابات الكتاب
الاجتماعيين الذين ينشئون مقالات ويدونون الكتب في هذا المعنى الصغير وهو
أن السبيل الوحيد إلى عفة المرأة واستقامتها عفة زوجها واستقامته ، وأن
سوء الظن بها أكبر باعث لها على الوقوع فيما اتهمت به .

(٢) القطامي : هو عمرو بن تيم التغلبي ، كان نصرانياً معاصراً للأخطل
وله شعر يمدح من الطبقة الأولى ، وهو أحد أصحاب المشوبات ومشوبته مظهرها :
إنا محبوبك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطول

(٣) يتضمن هذا البيت أصدق حقيقة من حقائق روح الاجتماع ، وهي
أن الناس يحرون في الحكم على الرجال على أحكام الصادقات والاتفاقات ، فمن
ساعده الحظ فنجح فهو عندهم أعقل الناس وإن كان أجهلهم ، ومن هلك في
حياته هفوة نخاب في عمله فهو عندهم أجهل الناس وإن كان أعقلهم .

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

السعادة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاط قسمت و حدود
إذ المرء أعيته المروءة ناشئاً فطلبها كهلا عليه شديد
وكان رأينا من غنى مذموم وصعواك قوم مات وهو حميد
وإن امرأاً يمسى ويصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

كرم الضيافة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكننا وجه الكريم خصيب

(١) يشير في هذا البيت إلى قاعدة من قواعد التربية وهي أن التربية على الأخلاق الكريمة إن لم تكن في زمن الصغر فقلما تفيد بعد ذلك.

التجلى

« لبعض الشعراء المتقدمين »

قد عشت في الناس أطوارا على طرق
شئت وقاسيت فيها اللين والفظا
لا يملأ الهول صـدري قبل موقعه
ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا

القناعة

« للعتابي، (١) »

تلوم على ترك الغنى باهلية
زوى (٢) الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى
مقلدة أعناقها بالقلائد

(١) العتابي (ت ٢٠٨ هـ) : هو كلثوم بن عمرو ، أحد مشهورى
الشعراء في عصر الرشيد العباسى وأولاده ، وشعره لا يرتقى إلى الجيد ،
ولا ينحط إلى الردى .
(٢) زوى الشئ عنه : نحاه وصرفه .

أَسْرَكَ أَنى نَلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرُ

مَنْ الْعَيْشِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي (١)

مُنْصَصَتُهُمَا بِالْمَرْهَفَاتِ الْبَوَادِرِ

دَعَيْتَنِي تَجَمُّتَنِي فَيَتَنِي مَطْمَئِنَةٌ

وَلَمْ أَتَجَشَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَادِرِ

رَأَيْتُ أَرْفِيعَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةً

بِمَسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ (٢)

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

« لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ الْمَتَقَدِّمِينَ »

يَعَانَتْنِي فِي الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا دِيُونِي فِي أَشْيَاءٍ تَكْسِبُهُمْ حَمْدًا

أَسْدُ بِهِ مَا قَدْ أَخْلَوْا وَضَيَّعُوا تُفُورُ حَقُوقٍ مَا أَطَافُوا لَهَا سِدًّا

وَقِي جَفْنَتُهُ مَا يُغْلِقُ الْبَابَ دُونَهَا مَكَلَةٌ لِحْمًا مَدْفُوقَةٌ ثَرْدًا (٣)

وَفِي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ (٤) حِجَابًا لِبَيْتِي ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عِبْدًا

(١) أَغْصَنَهُ بِكَذَا : جَعَلَهُ يَغْصُ بِهِ .

(٢) الْأَسَاوِدُ : نَوْعٌ مِنَ الْحَيَاتِ .

(٣) الْجَفْنَةُ : الْقِصْعَةُ ؛ وَالثَّرْدُ : جَمْعُ ثَرِيدٍ .

(٤) الْفَرَسُ النَّهْدُ : الْقَوَى ؛ وَالْعَتِيقُ : الْكَرِيمُ . (٦)

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي مختلف جدا
فإن أكلوا الحنظل وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غنبي حفظت غيوبهم وإن هم ههوا غني هويت لهم رشدا
وإن لرجوا طيرا بنحس تمر بي زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا (١)
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
لهم جل مالى إن تتابع لى غنى وإن قل مالى لم أكفهم زفدا (٢)
وإنى لعبد الضيف مادام نازلا وما شيمة لى غيرها تشبه العبد

الصفح والإغضاء

للشريف الرضى، (٣)

وكم صاحب كالمح زاعت كعوبه (٤) أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

(١) يريد : أنهم إذا أرادوا به شراً أراد بهم خيراً.

(٢) الرفد : العطاء .

(٣) الشريف الرضى (ت ٤٠٦ هـ) : هو أحد شعراء الطبقة الأولى،

وله فى شعره مذهب خاص به لم يتبع فيه أحداً، قد جمع فيه بين البداوة والحضارة والجلال والجمال، وإن صح أن له فى كتاب نهج البلاغة شيئاً كثيراً كان أكتب الكتاب كما أنه أشعر الشعراء .

(٤) زاعغ : مال، وكعوب الرمح : عقده .

(م ١٤ — مختارات)

١٠ تقبلت منه ظاهراً متبليجاً
 وأدج دوني باطناً متجهماً^(١)
 ولو أتى كشفته عن ضميره
 أقمت على ما بيننا اليوم مآتماً
 ١١ دع المرء مطوياً على ما ذمته
 ولا تنشر الداء العضال فتندما
 ١٢ إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته
 على مضض لم تبق لحماً ولا دماً

أدب الحديث

لأبي تمام،

من لي بإنسان إذا أغضبه وجهات كان الحلم ردّ جوابه
 وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
 وتراه يصفي للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى به^(٢)

(١) ترجمه : استقبله بوجه كريمة .

(٢) في هذا البيت أدب رقيق من آداب العشرة ، قل من الناس من
 يستطيع الصبر عليه ، ولا أعرف في الرياء نوعاً مستحسنًا غير هذا النوع .

الرياء

« لابن الرومي »

اعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم إذا لفاح الحمأ اللازب^(١)

العفة

« الليلى الأخيلية »^(٢)

وذى حاجة قلناله لا تبج بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب و خليل^(٣)

(١) الحمأ : الطين المتين ، واللازب : اللاصق المتداخل .

(٢) ليلي الأخيلية (ت ٨٠ هـ) : لاشك أنها والحساء أشعر الشواعر
وليلي من الشعر في المديح والغزل ما أشبه شعر الرجال أحياناً .

(٣) لا أعرف كناية أفضل من هذه الكناية في قولها وذى حاجة والبيت
الثاني أفضل مقال يؤتى به دليلاً على شرف أخلاق المرأة العربية ومعرفتها
بالأصل الأول من أصول حقوق الزوجية ، وإنها إن لم تنفر من الفحشاء عفة
فإنها تجتنبها وفاء .

القناعة

« لابن الرومي »

مرحباً بالكفاف يأتي عفيفاً (١) وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لأمر يشمر في الجموع لعيش مشمر للفناء
يحبس الحظ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعيم له حظ وما ذاق عاجل العناء
ذلك الخائب الشقي وإن كان يرى أنه من السعداء
حسب ذي إربة (٢) ورأى جلي نظرت عينه بلا غلواء (٣)
صحة الجسم والجوارح والعزض وإحراز مسكة الحوباء (٤)

القناعة

« لبعض الشعراء المتقدمين »

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قاتلاً هجراً

(١) عفيفاً : أي عفوا (٢) الإربة : الدهاء والحيلة .
(٣) الغلواء : العلو (٤) المسكة : ما يمسك النفس من غذاء وغيره .
والحوباء النفس .

إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذراً
 غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً

حب البنين

« لبعض الشعراء المتيقنين »

لولا أميمه لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حندس الظلم
 وزادني رغبة في العيش معرفتي أن اليتيمة يحفوها ذوو الرحم
 أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها فبهتك الستر عن لحم على وضعم
 تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

كتمان السر

« لمسكين الدارمي (١) »

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أني جماعها (٢)

- (١) مسكين الدارمي (ت ٩٠ هـ) : كان شاعراً فحلاً مجيداً وكان شريفاً
 على المهمة يتشيع لمعاوية وينصره وهو أول من سهل عليه مفاخرة الناس ببذعة
 ولده يزيد من بعده إذ قال :
 إذا المبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
 (٢) يقال : الحمر جماع الإثم ، لأنها جامعة لكل أصنافه .

لكل امرئ. شعب من القلب فارغ
وموضع نجوى لا يرام اطلاقها (١)
يظنون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعين الرجال انصداعها

الشورى

« لبشار بن برد »

إذا بلغ الرأى النصيحة فاستعن
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
وخل الهوبنا للضعيف ولا تكن
وماخير كف أمسك الغل أختها
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه
وأدن على القرى المقرب نفسه
فإنك لا تستطرد الهمة بالمنى
إذا كنت فرداً هرك (٢) القوم مقبلاً
وإن كنت أدنى لم تفز بالغنائم

(١) اطلع الأمر : علمه (٢) غضاضة : مذلة ، والحوافى : صغار الريش في مؤخر الجناح ، والقوادم : كباره في مقدمه. يريد أن المستشار لا يحمل به أن يزدري برأى لمشير قرب صغير يحتاج إليه كما تحتاج القوادم إلى الحوافى .
(٣) يقال : هره الكلب : إذا نبجه .

وما قرع الاقوام مثلُ مشيع (١) أريب وجلى العمى مثل عالم

المغفرة

، لأبي العتاهية ، (٢)

إني شكرتُ لظالمى ظلمى وغفرتُ ذاك له على على
ورأيتُه أسدى إلى يداً لما أبان بجمله حللى
رجعتُ إساءته عليه وإحسانى فماد مضاعف الجرم
وغدوتُ ذا أجر ومحمدة وغدا بكسب الظلم والإثم
فكأنما الإحسان كان له وأنا المسمى إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمـه حتى بكيت له من الظلم

إكرام النفس

، لابن مطير ، (٣)

ومن يتبع ما يعجب النفس لم يزل مطيعاً لها فى فعل شيء يضرها

(١) المشيع : الشجاع .

(٢) أبو العتاهية : (ت ٢١١ هـ) هو أبو إسحق إسماعيل بن القاسم شاعر مطبوع رقيق مجيد فى الزهد والمدح والحكمة ، يعد فى طبقة بشار وأبى نواس ولا أحسبه يبلغ هذا المبلغ كله .

(٣) ابن مطير : (ت ١٦٩ هـ) هو الحسين بن مطير من مخضرمى الدولتين الأيوية والعباسية وشعره على قننه غاية فى امتانة والعذوبة ، وله فى النسيب أرق الشعر وأسلسه .

فنفسك أكرم من أمور كثيرة فمالك نفس بعدها تستعيرها

السعادة النفسية

ولبشار،

وماخاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد أسوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

الحرية

ولأبي تمام،

سأصرف وجهي عن بلاد غداها لسانى معقولا وقلبي متفلا
وإن صريح الحزم والرأى لا مرى إذا بلغت الشمس أن يتحولا

عاقبة الجهالة

ولأبي نواس، (١)

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم

وأسمت (٢) سرح اللهو حيث أساموا

(١) أبو نواس: (ت ١٦٨ هـ) هو الحسن بن هانئ الحكيم سيد المحدثين

والمبتكر الأول لحضارة الشعر ومدنيته وصاحب المعاني الغريبة التي لم يسبق
إليها في الأثواب الرقيقة التي لا يجارى فيها.

(٢) سام ناقتة: أرهاها.

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذلك أثار
الصدقة الكاذبة
«لأبي تمام»

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرا متبسمًا عن باطن متجهم
الثقة

«لبعض الشعراء المحدثين»
في انقباض وحشمة فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما وقلت ما قلت غير محتشم

مكارم الأخلاق
«للشريف الرضي»

يصول على الجاهلون وأعتدى ويعجم في القائلون وأعرب
يرون احتمالي غصة ويزيدهم لواعج ضغن أننى لست أغضب
وقور فلا الألحان تأسر عزمي ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن كر التوارص شيمتي كأن معيد الذم بالمدح مطب
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجا إذا نال مني العاضه (١) المتأوب

هذا البيت من الأبيات المشهورة

«للأبي تمام»

(١) العاضه : الكاذب .

ولست براض أن تمس عزائي فضالات ما يعطى الزمان ويسلب
غرائب آداب حياتي بحفظها زمانى وصرف الدهر نعم المؤدب

القناعة

« لأبى تمام ،

من زاحف الأيام ثم عباً (١) لها غير القناعة لم يزل منزلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
لو جار سلطان القنوع وحكمه فى الأرض ما كان القليل قليلا

الصدق

« لأبى العتاهية ،

عذيرى من الإنسان لا إن جفوته صفالى ولا إن صرت طوع يديه
وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

كلمات فى الحكمة

« للمعري ، (٢)

أيأتى نبى يجعل الخمر طليقة (٣) فتحمل شيئاً من همومى وأحزاني

(١) عباً : أعد وهياً .

(٢) المعري : (ت ٤٤٩ هـ) هو أحمد بن سليمان الشاعر الفيلسوف المشهور
غلب علمه على شعره فلم يحن مطبوعاً إلا نادراً على أنه أقدر من نظم الحكمة
فى الشعر وقل أن يجيد ذلك أحد .

(٣) طليقة : حلالاً .

(١) عباً : أعد وهياً .

وهيات لو حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم (١) كفة ميزاني
الملك أجير الرعية

ملّ المتعام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها
رياء الوعاظ

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرّم فيكم الصهبا صبحا ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتي ماعنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء
لا علاج لشورور العالم

إذا كان علم النفس ليس بنافع ولا دافع فالحسر للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء
سلطان العقل

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
إنما هذه المذاهب أسباب لجلب الدنا إلى الرؤساء
رياء العبّاء

لعل أناساً في المحاريب خوفوا بأي، كناس في المشارب أظربوا

(١) الحلم هنا : العقل .

إذا رام كيداً بالصلاة مقيماً فتاركها عمداً إلى الله أقرب

شروع العالم

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم برُّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

الموت طهارة من الحياة

أيا جسد المرء ماذا دهاك وقد كنت من عنصر طيب

تصير طهوراً إذا ما رجعت إلى الأصل كالطر الصيب

قسمة الأرزاق

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معري أو أمير مدوج
وقد يُرزق المجدود أقوات أمة ويمحرم قوتاً واحداً هو أحوج

ذم البطالة

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحانح

فما حبس النفس المسيح تعبداً ولكن مشى في الأرض مشية سائح

الرفق بالحيوان

لقد رايتني مضى الفقير بهله على العير ضرباً ساء ما يتقلى

يحملة ما لا يطيق فإن ونى أحال على ذى فترة يتجلد

أين الحقيقة

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة

أى المعاني بأهل الأرض مقصود

لم تعطنا العلم أخبار يحيى بها
نقل ولا كوكب في الأرض مرصود
وابيض ما اخضر من نبت الزمان بنا
وكل زرع إذا ما هاج محصود

حقيقة الإيمان
ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنما هو ترك الشر مطر حار ونفضك الصدر من غل ومن حسد
خرافات النساء

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهدكم هو عائش من دهره
فأجابها مئة ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها في شهرة
راحة الموت

قدم الفتى ومضى بغير تنية ككهل أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل لو عاش كابد شدة في دهره
العفة

أحسن جوار للفتاة وعدّها أخت السماء على دنو الدار
أكتجاور العينين لن تتلاقيا وحجاز بينهما قصير جدار
بقاء المادة

مضى الأنام فلولاً علم حالهم لقلت قول زهير أية مذهب سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا
منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

الصبر على الأذى

إذا قال فيك الناس مالا تحبه فصبراً يفيء ود العدو إليكما
وقد نطقوا مينا على الله وافترخوا فما لهم لا يفترون عليكما
الدين المعاملة

سبح وصل وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له أطاعه لم يلف بالمتماسك
تأويل الفقهاء

جهلت أقاضى الرى أكثر مأثماً بما نصه أم شاعر يتغزل
فكم من فقيه خابط في ضلالة وحيته فيها الكتاب المنزل
فما لعذاب فوقكم لا يعمكم وما بال أرض تحتمكم لا تنزل
تعليم المرأة

إن نشأت بنتك في نعمة فالزمها البيت والمغزلا
ذلك خير من شوار لها ومن عطايا والد أجزلا
الرفق بالعميان

عميانكم قرأت على أجدانكم وأنوا لكم بالبر من آناكم
أحيائكم بخلت عليهم بالندى فبغوه بالفرقان من موتاكم
مساعدة الضعفاء

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه لتهديه وامن يافهامك الصما
ولا تك من قرب العبد شارخاً (١) وضعه إذ صار من كبرهما (٢)

(١) الشارخ : الفقى فى أول صباه (٢) الهم : الشيخ الفانى

حكم العادة

إذا ألف الشيء استهان به الفتي فلم يره بؤسى يُعَد ولا تُعَمى
كإفناقه من عمره ومساغه من الريق عذبا لا يحسن له طعاما

الجرائم

لا تحدث القتل في كف ولا قدم ولا تعرض مدى الدنيا السفك دم
وخل من صور الأشباح مقتدراً يحلها فهو وب الدهر والقدم
خرافة الرمالين

أما لأمير هذا المصر عقلٌ يقيم عن الطريق ذوى النجوم
فكم قطعوا السبيل على ضعيف ولم يعفوا النساء من الهجوم
إذا امتكر اللبيب رأى أموراً ترد الضاحكات إلى الوجوم
ذم الشراب

يقول الناس إن الخمر تودى بما في الصدر من هم قديم
ولولا أنها باللب تودى لكنت أخوا المدامة والنديم
تبرج النساء

شر على المرأة من حمامها
إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في أكمامها
يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إمامها
تأتم والحية في اتنامها

ذم التناسل

يا أمة في التراب هامة تجاوز الله عن سرائركم
يا ليتكم لم تطوا إمامكم ولا دنوتم إلى حرائركم
ان استرحتم مما تكابده فنحن من بعد في جرائركم

حكمة الزكاة

يا قوت ما أنت يا قوت ولا ذهب فكيف تعجز أقواماً مساكيناً
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بني الاعداء شاكيناً

الحلم

« لبعض الشعراء المتقدمين »

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب

ألم الموت

« للمتنبى »

إلف هذا الهواء أوقع في الآن ففس إن الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

حب الحياة

« للمتنبى أيضاً ،

أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصاً عليها مسنهماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

الشجاعة

« للمتنبى أيضاً ،

إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً
كل مالم يكن من الصعب في الآن نفس سهل فيها إذا هو كانا

الأشرار حرب الأخيار

« لبعض الشعراء المتقدمين ،

لقد زادني حباً لنفسي إننى بغيض إلى كل امرئ غير طائل
إذا ما رآنى قطع الطرف دونه ودونى فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حابل
ولم شق باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشائل

(م ١٥ — مختارات)

تحين الفرصة

«لأبي العتاهية»

لمن مؤخر غاية قد أمكنت لحد وليس غـد له بموات
حتى إذا فانت وفات طلابها ذهبت عليها نفسه حـسرات
تأقـى المكاره حين تأقـى جملة وأرى السرور يحيى فى الفلتات

الإباء

«لبعض الشعراء المحدثين»

لا تشكون لعاذل أو عازر حاليك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين غضاضة فى النفس مثل شمانة الأعداء

الحب المعتدل

للشريف الرضى

أحبك بالطبع البعيد من الحجا وأقلاك بالعقل البرىء من الخبل
فأنت صديق إن ذهبتُ إلى الهوى

وأنت عدوى إن رجعتُ إلى العقل

عزة النفس

«لبعض الشعراء المتقدمين»

تكلفنى إذلال نفسى لعزها وهان عليها أن أهان لتكرما
تقول سل المعروف يحيى بن أكرم فقلت سليه رب يحيى بن أكرم

كلمات

• لمحمود باشا سامى البارودى، (١)

دخائل القلوب

تحملت خوف المنّ كل رزية وحمل رزايا الدهر أحلى من المن
وعاشرتُ أخذانا فلما بلوتهم تمنيت أن أبقى وحيداً بلا خدن
إذا عرف المرء القلوب وما انطوت عليه من البغضاء عاش على ضغن
يرى بصرى من لا أود لقاءه وتسمع أذن ما تعاف من اللحن

تقلبات الأيام

ولقد تبينتُ الأمور بغيرها وأقى على النقض والإبرام
فإذا السكون تحرك وإذا الخمو دتلهب وإذا السكوت كلام
وإذا الحياة ولا حياة منية تحي بها الأجساد وهى رمام
هذا يحل وذاك يرحل كارهاً عنه فصلح تارة وخصام
فالنور لو بينت أمرك ظلمة والبدء لو فكرت فيه ختام

جريان المقادير

يود الفقى مالا يكون طماعة ولم يدر أن الدهر بالناس قلب

(١) البارودى : هو شيخ شعراء هذا العصر وأول من أحيا سنة الشعر

العربى بعد مادارت الأيام دورتها .

ولو علم الإنسان ما فيه نفعه لأبصر ما يأتي وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب

شروء العالم

« لأحمد شوقي بك، (١) »

أناس كما تدرى ودنياً بحالها ودهر رخي تارة وعسير
وأحوال خلق غابر متجدد تشابه فيها أول وأخير
تمر تباعاً في الحياة كأنها ملاعب لا تُرعى لهن مستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى وغش وإفك في الحياة وزور
وقام مقام الفرد في كل أمة على الحكم جم يستبد غفير
وحوّر قول الناس مول وعبيده إلى قولهم مستأجر وأجير

كلمات

« لإسماعيل باشا صبرى (٢) »

الموت والحياة

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأثر ض تتم آمنة من الأوصاب

(١) شوقي : أشهر شعراء العربية في العصر الحاضر وأقدرهم على التصورات
البدعية والخيالات الشعرية العالية ، وهو يشبه المتنبي في أنه يرتقى حتى لا يساويه
أحد وقد يصل أحياناً إلى منزلة لا يرضى بها من هو في منزلته .

(٢) إسماعيل باشا صبرى : أحد شعراء الطبقة الأولى في هذا العصر
ويمتاز بجمال مقطعاته وعذوبة أسلوبه إلى ما لا يجاريه فيه مجار وحسن تصوراته
وخلاصة خيالاته وهو أجود ما يكون إذا نطق بكلمة الحكمه أو أرسل بيت النسيب

تلك أم أحنى عليك من الآ م التي خلفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بمأح منك إلا ما تشتهي من عذاب
كل ميت باق وإن خالف العنـوان ما نص في غضون الكتاب
وحياة المرء اضطراب فإن ما ت فقد عاد سالماً للتراب

راحة الموت

ياموت خذ ما أبقت الـ أيام والساعات مني
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عني

الوفاء

إذا خائني خل قديم وعقني وفوقت يوماً في مقاتله سهمي
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمي فاثبتت ولم أرم

سجن الفضيلة

« لحافظ إبراهيم »

نعمن بنفسى وأشقينى فياليتهن وياليتنى
خلال نزلن بخصب النفوس فرويتهن واطمأننى
تعودن منى إباء الكريـم وصبر الحليم وتيه الغنى
وعودتهن نزال الخطوب فما ينشئين وما أنثنى
إذا ما لهوت بليل الشبا ب أهبن بعزى فنهينى
فما زلت أمرح فى قدهن ويمرحن منى بروض جنى
إلى أن تولى زمان الشبا ب وأوشك عودى أن ينحنى
فيا نفس إن كنت لا توقد ين بمعقود أمرك فاستيقنى
فهذى الفضيلة سجن النفوس وأنت الجديرة أن تسجنى

قسم المنشور

وصايا حكيمة

«من أعراية لولدها»

أى بنى إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين .
وإياك والتعرض للعيوب فتستخذ غرضاً وخليق أن لا يثبت الغرض
على كثرة السهام وقلها اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهسى (١)
ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك وإذا هزرت
فاهزز كريماً يلن لهُزتك ولا تهزز لئيماً فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها .
ومثّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به وما استقبحت
من غيرك فاجتنبه فإن المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودته
بشره وخالف ذلك منه فعلة كان صديقه عنه على مثل الريح فى تصرفها .
والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم . ومن جمع الحلم والسخاء فقد
أجاد الحلة ربطتها وسرّ بالها (٢) .

(١) وهى : ضعف
(٢) الربطة : كل ثوب رقيق يشبه الملحفة ،
والسرّبال : القميص .

أدب الزوجة

« لأعرابية توصى ابنتها ليلة البناء بها »

أى بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك
ولكنها تذكرة الغافل، ومعونة العاقل. أى بنية إنك فارقت بيتك
الذى منه خرجت، وعشاك الذى فيه درجت. إلى وكر لم تعرفه
وقرين لم تألفه، فكونى له أمة يكن لك عبداً واحفظى له خصالاً
عشراً. أما الأولى والثانية، فاصحبه بالقناعة، وعاشريه بحسن السمع
والطاعة. وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع
عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح. وأما الخامسة
والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة،
وتنخيص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة، فلا احتراس بماله،
والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير.
وفى العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمراً،
ولا تفشين له سرّاً، فإنك إن خالفته أو غرت صدره، وإن أفشيت
سره لم تأمنى غدره، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة
بين يديه إذا كان فرحاً. فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من
التكدير وكونى أشد الناس له إعظماً، يكن أشدهم لك إكراماً، واعلمى
أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على
هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك.

كلمات في الأخلاق

« لعل بن أبي طالب » (١)

علو الهمة

أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقطتك إلى الرغائب فإنك لن
تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك
الله حراً وما خيرٌ خير لا يُنال إلا بالبشر ويسر لا يُنال إلا بعسر وإياك
أن توجف بك (٢) مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة وإن استطعت
ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فإنك مدرك قسمك وأخذ
سهمك وإن اليسير من الله سبحانه وتعالى أكرم وأعظم من الكثير
من خلقه وإن كان كل من عنده.

حسن العشرة

احمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة وعند صدوده
على اللطف والمقاربة وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو
وعند شدته على اللين وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد وكأنه

(١) علي بن أبي طالب: (ت ٤١٢ هـ) هو أفصح قرشي إذا خطب أو كتب
واصدقه وإخلاصه أثر في تأثير كتاباته عامة وزهدياته خاصة .
(٢) وجف البعير : عدا وأسرع .

ذو نعمة عليك وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو أن تصنعه مع
غير أهله .

الاعتدال

أعجب ما في الإنسان قلبه وله مواد من الحكمة وأضداد من
خلافها فان سئح له الرجاء أذله الطمع وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص
وإن ملكه اليأس قتله الأسف وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ
وإن سعد بالرضا نسي التحفظ وإن أناه الخوف شغله الحذر وإن
اتسع له الأمن استلبته الغرة (١) وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع
وإن استفاد مالا أضناه الغنى وإن عضته فاقة بلغ به البلا وإن جهد
به الجوع قعد به الضعف وإن أفرط في الشبع كضته البطنة ، فكل
تقصير به مضر وكل إفراط له قاتل .

(١) الغرة : الغفلة .

أدب الحاشية

، لأحد الأمراء العباسيين ،

في وصيته إلى أحد رجال خاصته

يا عبد الله ، كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على
التماسه بالكلام فإنهم قالوا إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك
الصمت فتكلم . واعلم أن أصعب الملوك معاملة الجبار الفطن
المتفقد فإن ابتليت بصحبته فاحترس وإن عوفيت فاشكر الله على
السلامة فإن السلامة أصل كل نعمة ، لا تساعدني على ما يقبّح بي ولا
تردن على خطأ في مجلس ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ودع
عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى وكلني بقدر ما أستنطقك واجعل
بدل التقرير لي صواب الاستماع مني . واعلم أن صواب الاستماع
أحسن من صواب القول وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتك منه شيء
وأنني فهمك إياه في طرفك ووجهك فما ظنك بالملك وقد أحلك محل
المعجب بما يُسمعك إياه وأحلته بمحل من لا تسمعه منه ولا تستدع
الزيادة من كلامي بما تُظهر من استحسان ما يكون مني فمن أسوأ حالا
من يستلذ كلام الملوك بالباطل .

كلمات في الآداب

« لابن المقفع ، (١) »

دعوى العلم

استحى الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل
مصرحاً أو معرضاً وإن استطلت على الأكفاء فلا تشقن منهم بالصفاء
فإن آنت من نفسك فضلاً فتخرج أن تذكره أو تبديه . واعلم أن
ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب أكثر
مما يقرر لك من الفضل . واعلم أنك إن صبرت ولم تعجل ظهر ذلك
منك بالوجه الجميل المعروف . ولا يخفين عليك أن حرص الرجل
على إظهار ما عنده وقلة وقاره في ذلك باب من البخل واللؤم وأن من
خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم .

أصول الأخلاق

يطلب الأدب اعرف الأصول والفصول فإن كثيراً من الناس

(١) ابن المقفع : هو عبدالله بن المقفع أكتب كتاب العربية في الأدب
والحكمة ، ومذهبه في الكتابة أعدل المذاهب وأقومها لطلاوته وسلاسته
وبعده عن الأسجاع والتكاليف ، ولا يوجد له نظير في طريقته إلا الجاحظ
وعبد الحميد وسهل بن هارون وقليل من أمثالهم .

يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دركهم دركا ومن
أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول وإن أصاب الفصل بعد إحراز
الأصل فهو أفضل ، فأصل الأمرين في الدين أن تعتقد الإيمان على
الصواب وتجتنب الكبائر وتؤدي الفريضة فالزم ذلك لزوم من لا غناء
به عند طريقة عين ومن يعلم أنه إن حرمه هلك . ثم إن قدرت أن
تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل . وأصل
الأمر في إصلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه
إلا خفافاً وإن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع
بذلك فهو أفضل ، وأصل الأمر في البأس ألا تحدث نفسك بالإدبار
وأصحابك مقبلون على عدوهم ثم إن قدرت أن تكون أول حامل
وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل . وأصل الأمر في
الجود ألا تضن بالحقوق على أهلها ثم إن قدرت أن تزيد ذا الحق
على حقه وتطول على من لاحق له فافعل فهو أفضل . وأصل الأمر
في الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ ثم إن قدرت على بارع الصواب
فهو أفضل . وأصل الأمر في المعيشة ألا تنق عن طلب الجلال وأن
تحسن التقدير لما تفيد (١) وما تنفق ولا يغررك من ذلك سعة تكون
فيها فإن أعظم الناس في الدنيا خطراً أحوجهم إلى التقدير . والملوك

(١) تفيد : أي تستفيد .

إلى التقدير . والملوك أحوج إلى التقدير من السوق لأن السوق قد
تغيّش بغير مال والملوك لا قوام لهم إلا بالمال ثم إن قدرت على الرفق
واللطف في الطلب والعلم بالمطالب فهو أفضل .

شرف المروءة

لا يعجبك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان فإن السلطة أو شك
أمر الدنيا زوالا ولا يعجبك إكرامهم إياك للنسب فإن الأنساب
أقل مناقب الخير غناء عن أهلها في الدين والدنيا ولكن إذا أكرمت
على دين أو مروءة فذلك فليعجبك فإن المروءة لا تنال في الدنيا
والدين لا يزال في الآخرة .

سياسة الاقتصاد

اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم وإن مالك لا يغني
الناس كلهم فاختص به ذوي الحقوق وإن كرامتك لا تطيق العامة
فتوج بها أهل الفضائل وإن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن
دأبت فيها وإنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه
منهما فأحسن قسمتهما بين دعمتك وعملك واعلم أنك ما شغلت من
رأيك بغير المهم أزرى بالمهم وما صرفت من مالك بالباطل فقدته
حين تريده للحق وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضربك
في العجز عن أهل الفضل وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة
أزرى بك في الحاجة .

الشورى

لا يقذفن فى روعك أنك إن استشرت الرجال ظهر للناس منك
الحاجة إلى غيرك فانك لست تريد رأى للافتخار به ولكن تريده
للاتتفاع به ولو أنك مع ذلك أردت الذكر كان أحسن الذكرين
وأفضلهما عند أهل الفضل أن يقال لا يتفرد برأيه دون استشارة
ذوى الرأى .

رضى الناس

إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك وكيف يتفق
لك رأى المختلفين وما حاجتك إلى رضا من رضا الجور وإلى
موافقة من موافقة الضلالة والجهالة فعليك بالتماس رضا الأخيار
منهم وذوى العقل فانك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه .

الصدقة

ابذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك وللعامّة
بشرك وتحننك ولعدوك عدلك واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد .

الصبر

ذل نفسك بالصبر على جار السوء وجليس السوء فان ذلك
ملا يكاد يخصك فان الصبر صبران صبر الرجل على ما يكره وصبره
عما يجب فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه
مضطرا . واعلم أن اللثام أصبر أجساداً والكرام أصبر نفوساً وليس

الصبر الممدوح أن يكون جلد الرجل وقاحاً أو رجله قوية على المشى
أو يده قوية على العمل فانما هذا من صفات الخير ولكن أن يكون
للنفس غلباً وللأمور محتملاً وفي الضر متجملاً ولنفسه عند الرأى
والحفاظ مرتبطاً وللحزم مؤثراً وللهمى تاركاً وللمشقة التى يرجو
عاقبتها مستخفاً وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً .

سكر الرضى والغضب

اعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب
أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى وجه غير من أغضبه
وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهيم بعقوبته وسوء
المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ثم يبلغ به
الرضى إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر (١) لمن ليس بمنزلة ذلك
عنده ويعطى من لم يكن يعطيه ويكره من لاحق له ولا مودة فاحذر
هذا الباب كله فانه ليس أحد أسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرطون
باقتدارهم فى غضبهم وسرعة رضاهم فانه لو وصف بصفة من يتلبس
بعقله أو يتخبطه المس من يعاقب فى غضبه غير من أغضبه ويحبو
عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزاً فى صفته .

(١) الخطر : المنزلة والقدر .

الاحتمال

اعلم أنك مستبلى من أقوام بسفه وإن سفه السفیه سيطلع لك منه فإن عارضته أو كفاأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما أتى به فاجتنب أن تحتذى مثاله فإن كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمك إياه بترك معارضته فاما أن تذمه وتمثله فليس ذلك لك .

الرفعة في التواضع

إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك وتقريبهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه وتعظيمهم من أمرك مالم تعظم وتزينهم من كلامك ورأيك مالم تزين هو الجمال

الحسد

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً فإن الحسد خاق لثيم ومن لؤمه أن يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلاء فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك وأن غمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه وأفضل منك في القوة فيدفع عك بقوته وأفضل منك في المال فتفيد (١) من ماله

(١) تفيد : أى تستفيد .

وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه وأفضل منك في الدين
فتزداد صلاحاً بصلاحه .

الصدق

ليعرف إخوانك والعامّة أنك إن استطعت أن تكون إلى أن
تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل فعلت فإن
فضل القول على الفعل غار وهجنه وفضل الفعل على القول زينة .

فضول النظر

اعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنكها للجسد وأتلفها للبال
وأضرها بالعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء
ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه إلى
ما ليس عنده منهن وإنما النساء أشباه وما يرى في العيون والقلوب من
فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة بل كثير ممن يرغب
عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه وإنما المترغب عما في
رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في
بيوت الناس بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالصعام وما في رحال
الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء .
ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبه يرى المرأة من بعيد متلففة
في ثيابها فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير
رؤية ولا خبر مخبر ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدم الدامة
(م ٩٦ — مختارات)

فلا يعظه ذلك عن أمثالها ولا يزال مشغولاً بما لم يذق حتى لو لم يبق
في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ماذاق وهذا
هو الحق والشقاء .

الثقة بالأصدقاء

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنيك ذلك فإنما هو أحد
رجلين . إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواظنه لك أقربها من
عدوك لشر يكفيه عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك فأما
صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك . وإن كان رجلاً من غير خاصة
إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه أن لا يصاحب ولا يجالس
إلا من تهوى ؟ .

غرائز الناس

إذا أقبل إليك مقبل بوجه فسرك ألا يدبر عنك فلا تنعم بالإقبال
عليه والتفتح له فإن الإنسان طبع على ضرائب لؤم فمن شأنه أن يرحل
عمن اصق به ويلصق بمن رحل عنه .

آفة الفقر

إذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان
يظن به حسناً فإذا أذنب غيره ظنوه وكان للتهمة وسوء الظن موضعاً
وليس من خلة هي للغي مدح إلا وهي للفقر عيب فإن كان شجاعاً

سمى أهوج وإن كان جواداً سمي مفسداً وإن كان حليماً سمي ضعيفاً
وإن كان وقوراً سمي بليداً وإن كان لسنياً سمي مهذاراً وإن كان صموتاً
سمى عيباً .

المودة

المودة بين الأخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك كمثل
كوب الذهب الذي هو بطيء الانكسار هين الإصلاح ، والمودة بين
الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها كالكون من الفخار يكسره أدنى
عبث ثم لا يصل له أبدأ والكريم يمنح مودته عن لقية واحدة أو معرفة
يوم واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة .

الحقد

مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محرّكاً مثل الجرم المكنون إذا لم يجد
حطباً فليس ينفك الحقد مطعماً إلى العلل كما تبتغي النار الحطب فإذا
وجد علة استعمر فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع
ولا تضرع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح .

الحزم

الرجل ثلاثة حازم وأحزم منه وعاجز . فالحازم من إذا نزل به
الأمر لم يدهش له ولم يذهب قلبه شعاعاً ولم تعى به حيلته ومكيدته
التي يروجوها المخرج منه . وأحزم من هذا المقدم ذو العدة الذي

يعرف الابتلاء قبل وقوعه فيعظمه إعظاماً ويحتال له حيلة حتى كأنه
قد لزمه فيحسم الداء قبل أن يبتلى به ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما
العاجز فهو من تردد وتمن وتوان حتى يهلك .

المودة الكاذبة

إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما وهما
ذات النفس وذات اليد . فالمتبادلون ذات النفس هم الأصفياء وأما
المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع
ببعض ومن كان يصنع المعروف ببعض منافع الدنيا فإنما يبذل ويعطي
كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد
نفع نفسه .

أدب الحديث

لا تخلطن بالجد هزلاً ولا بالهزل جدّاً فإنك إن خلطت بالجد
هزلاً هجنته وإن خلطت بالهزل جدّاً كدرته ، غير أني قد علمتُ موطناً
واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأي وظهرت
على الأقران وذلك أن يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه إجابة
الهزل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق .

الهوى

إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب لي
هواك نخالفه فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى .

الكامل الإنساني

إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو إليه مؤونة ولا يستخف له رأياً ولا بدنأً وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم الا على ثمة أو منفعة وكان أكثر دهره صامتاً فاذا قال بذا (١) القائلين وكان يرى متضعفاً مستضعفاً فاذا جاء الجد فهو الليث عادياً وكان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في مرأى ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا ينتقم من الولي ولا يغفل عن العدو ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحييلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق ان أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

(١) بذا : غلب .

الأقسام

إنما يحمل الرجل على الحلف إحدى هذه الخلال إما مهانة يجدها في نفسه وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه وإما عى بالكلام حتى يجعل الأيمان له حشواً ووصلاً وأما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو يُنزل نفسه منزلة من لا يُقبل منه قول إلا بعد جهد اليمين وإما عبث في القول أو إرسال اللسان على غير روية ولا تقدير .

أدب التريّة

« لهارون الرشيد »

في وصية له إلى مؤدب ولده .

يا أحر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمر قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مختنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتسميت ذهنه أو تمنع في مساحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

الاقتصاد

« للبديع الهمداني ، (١) »

وهو كتاب أرسله إلى أحد الوارثين .
وصلت رقعتك ياسيدي والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع
جدير ، ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزة رشد كأنه النفي .
وقد مات الميت فليحي الحى ، فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم غيرك
بالأمس . وقد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبيكي لك .
وقد مولك مما ألف بين سراه وسيره (٢) . وخلفك فقيراً إلى الله غنياً
عن غيره . وسيعجم الشيطان عودك (٣) فإن استلانه رماك يقوم
يقولون خير المال ما أئلف بين الشراب والشباب ، وأنفق بين
الحباب (٤) والأحباب ، والعيش بين الأقداح والقдах (٥) . ولولا .

(١) بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨ هـ) : هو من أوائل الكتاب في
عصره وأغزرهم مادة في اللغة والأدب ، وأحسن ما كتب مقاماته فهي أفضل
من كل ما كتب الكتاب من المقامات بعدها .

(٢) مولك : جعلك ذا مال ، والسرى : المشى بالليل ، والسير : المشى
بالنهار .

(٣) يعجم : يعض ، فى الأصل يقال : عجم عوده ، إذا عضه بأسنانه
ليعرف شدته من لينه ، والمراد هنا سيختبرك الشيطان .

(٤) حباب الشراب : فقاقيعه التى تعلو سطحه .

(٥) القдах : سهام الميسر ، ويريد هنا لعب القمار .

الاستعمال ، لما أريد المال ، فإن أطعتم فاليوم في الشراب ، وغداً
في الخراب ، واليوم واطربا للكاس ، وغداً واحرباً من الإفلاس .
يامولاي ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً ، والجاهل نقراً .
وذلك المسموع من النادى هو اليوم في الآذن زمر ، وغداً في الأبواب
سمر . والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقنطار في هذا العمل بضاعة
وإن لم يجد الشيطان مغمزاً في عودك من هذا الوجه رماك بآخرين
يمثلون الفقر حذاء عينك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش
عينك ، وتمتع نفسك ، وتبوء في دنياك بوزرك . وتراه في الآخرة
في ميزان غيرك لا ولكن قصداً بين الطريقتين ، وميلاً عن الفريقين ،
لأمنع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ، وإنما يبخل
المرء خيفة ما هو فيه ، فليكن لله في مالك قسط ، وللمروءة قسم . فصل
الرحم ما استطاعت ، وقدر إذا قطعت ، فلأن تكون في جانب
التقدير (١) ، خير لك من أن تكون في جانب التبذير .

(١) التقدير : التقدير .

أيها المحزون

، محمد بك المويلحي ،

— ١ —

لا جدال في أن الحزن من أشد أدواء النفس وأعظم أمراضها، فهو إذا نشب بأظفاره في النفس لا يلبث أن يمزقها تمزيقاً ويشقتها تشقيتاً فترتبك على الإنسان معيشته وتضطرب عليه حياته ويؤثر حزنه عليه في كل جزئية وكلية حتى يرى الدنيا في عينه أظلم من الدجى وأضيق من سم الخياط وتكون نفسه كأنها سمكة الخبر فوق صفحة الماء تسود بما تمجه من جوفها كل مادنا منها ، والحزين يسود بياض عيشه بما يمجحه عليه من الأحزان والآكدار ولهذا تراه يشاكون بين النفس الحزينة والبدن بما يلبسونه من ثياب الحداد. ولما كان دام الحزن داء يشتمل على النفس كلها وكان عصي العلاج أبي المراس وجب أن يعتمد الحكيم في علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المتنوعة كما يفعل الطبيب بالأمراض المستعصية في البدن وأول شرط في نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه فلا نفع لما نعرضه عليك أيها المحزون من علاج الأحزان إن لم تأخذ فيه بطول المواظبة على التدبير والتفكير وكثرة الإمعان وتكرار النظر والأخذ بالتمرن حتى يسرى في النفس وتتغذى به . وإذا كان الإنسان قادراً بقوة التكرار

على أن يصدر عنه من الأفعال العجيبة الجسمانية والنفسانية ما يدهش
الآلباب كالذى كان يحمل ثوراً على عاتقه ويعدو به أميالاً في أعياد
آثينا كالذى كان يلعب على ثمانى رقاع للشطرنج في آن واحد وهو
غائب عنها يلعب نوعاً آخر من اللعب في أندية أمريكا فما أولاه بأن
بأن يروض فكره ويمرنه على أحكام الفضيلة ويعوده العمل بها حتى
تصل به إلى الغاية المقصودة من السعادة . ولكنك إذا قرأت ولم تتدبر
ونظرت ولم تتبصر وحفظت ولم تعتبر لم تنتفع بكثرة المطالعات
وطول المعالجات .

وأعلم أن البدن مرتبط بالنفس والنفس مرتبطة بالبدن وإن مرض
النفس يؤثر على البدن فيمرض ومرض البدن يؤثر على النفس فيمرضها
وقيل أن ندخل معك في شرح شفاء النفس من أحزانها نبدأ بالكلام
في وجوب صحة البدن الذى تتوقف عليه صحة النفس . وغاية اجتهاد
الحكيم الذى يرشد الإنسان إلى بلوغ السعادة أن تكون لك نفس
سليمة في جسم سليم . ويلزم لصحة البدن أن يجتنب الإنسان كل إفراط
في الشهوات وفي كل ما من شأنه أن يعقب اضطراباً في الفكر وأن
يعود الإنسان بدنه على الرياضة في كل يوم ساعتين على الأقل في الهواء
النقى وأن يكثر من الاستحمام بالماء البارد وأن يتعهد إفراز الأختلاط
الزائدة على القانون المطلوب وأن يكثر من الحركة فإن الحياة في الحركة
وإذا نظرت إلى البدن من داخله وجدت ما فيه من الأحشاء والأعضاء
في حركة مستديمة فنرى القلب يقذف مجموع ما في الجسم من الدم إلى

الأوعية الكبيرة والصغيرة في ثمانى وعشرين ضربة من ضرباته وتجدد
الرئة تعلو وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة آلة البخار وتشاهد
الأمعاء تنبسط وتنقبض . وكذلك في الجسم أعضاء وظيفتها الامتصاص
والإفراز في آن واحد على الدوام وللخ حركتان عند كل ضربة
من ضربات القلب وعند كل استنشاق للنفس فإذا ضعفت حركة البدن
من ظاهره كما هي الحال عند الذين يعيشون عيشة الرفه لم يتم التوازن
بينها وبين الحركات التي في باطنه ووقع البدن في الاختلال لأن حركة
الباطن تحتاج إلى المساعدة بحركة الظاهر والحركة في الباطن تطلب الحركة
في الظاهر ليستقيم النظام ولا يختل في البدن والنفس معاً ولا ندوق طعم
الحياة ولا نصل إلى شيء من السعادة التي سخر لنا الخالق في حياتنا إلا
بهذا النظام . وقد ترى الرجل ساكن الجسم وصدرة يغلى بالغيظ ويفور
بالحقد فإذا دام على السكون لم تأمن عليه سوء العاقبة من ذلك الاختلال
ولهذا فإنهم ينصحون الإنسان إذا غضب أن يأتي بحركة في بدنه وفي
الحديث الشريف (إذا غضب أحدكم فليتوضأ) وفي كلام أرسطو
(فليستحم بالماء البارد) وترى الأشجار لا تسير سيرها الطبيعي في النمو
إذا لم تعرضها للهواء لتهتز أغصانها فتساعد الحركة في ظاهرها حركة
نموها في باطنها .

فتعهد البدن بما يصلحه من الغذاء والنظافة والحركة وسواها واجب
والسير به على قانون الصحة متعين لسلامته وسلامة النفس معه . ولا
تعجب للإسهاب منا في هذا الباب فإنه أصل من أصول معالجة النفس

وبما يدلك عليه أنك ترى الشيء في حال انتظام صحتك فترتاح إليه
نفسك وتستهلذه ولكنها إذا رأت في حالة من حالات الجسم المعتلة
انقبضت منه وكرهته والشيء واحد بذاته لم يتغير وإنما تغير نظام
النفس باختلال نظام الجسم . ومن هنا تتضح لك صحة القاعدة المشهورة
بأن الأشياء الخارجة عن الإنسان لا قيمة لها في ذاتها وأن طريقة
نظرنا إليه وكيفية قبولنا إياها هي التي تلبسها لباس الحسن أو القبح .
وقد أجمع جلة علماء الأخلاق على أن تسعة أعشار السعادة
للإنسان قائمة على الاعتدال صحة البدن وحسن المحافظة عليه وأن
سلطانه على النفس عظيم تغتلب باعتداله وتصح بصحته . ونرى كثيراً
من أمراض البدن تؤثر على الصفات النفسانية أعظم من تأثيرها
على ظهر البدن فيختل التصور ويتبدل الذهن وتتغير الطباع . ومن
الجنون المحض وسوء عمل الإنسان لنفسه وتعتمد الإيذاء لنفسه
والضرر بذاته أن يهمل أمر بدنه ويشغله عنه بسفاسف الأمور
وينهكه في سبيل المطالب الباطلة ويجعله فدية للسعي وراء المال والجاه
والعلم العقيم والمجد الزائل واللذة الوقتية .

— ٢ —

اعلم أن مانحن بصدده من معالجة الأحزان ينقسم إلى قسمين .
معرفة حقائق الأشياء في ذاتها ومعرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام
الباطلة فأخطأ كنه الحقيقة فانقلبت بنا انقلاباً أورثنا الشقاء والبلاء
ورمانا في الأحزان والأكدار . ونتيجة ارتفاع الأحزان هي حصول

راحة الحياة فقد تعين علينا البحث أولاً عن ماهية هذه الراحة في معيشتنا وعن ماهية الألم وعن حقيقة الخير وحقيقة الشر وهل هذه الدار دار ألم وشقاء خالية من أسباب السعادة والهناء أم فيها راحة للعيش وسعادة للحياة فنقول :

إن الله جلّت قدرته لم يرد بمخلوقاته شراً في هذه الدنيا ولم يجعلها مستقراً للألم ومطمورة للعذاب وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل جعلها لأولياته دار سعادة وهناء فانية ، يرحلون منها إلى دار سعادة وهناء باقية . قال الله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإنما نحن الذين نجلب الشر لأنفسنا ونسود معيشتنا بأيدينا وما فسد الزمان وإنما نحن الفاسدون .

كلما أنبت الزمان قناسة ركب المرء في القناسة سنانا اشتبهت علينا الأمور واختلطت الأشياء وأخطأنا الحكم وأخذنا بتضليل المضلين وأباطيل المبطلين فصرنا لا نفرق بين الطيب والخبيث والخير والشر والألم واللذة والضر والنافع بل أخذنا هذا مكان ذلك وصبغنا الضد بصبغة ضده فحولناه عن أصله فوقعنا في شر العذاب ومن خالف الحقيقة يعني فطرة الله التي فطر الناس عليها وخرج عنها فأجدر به ألا يلقى في دنياه راحة ولا في حياته سعادة .

وكما أنه لا يمكن للطبيب أن يعرف علاج الأمراض وشفاءها إلا بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف على وظيفة كل عضو منه كذلك لا بد لحكيم النفوس من تشريح الأفكار ومعرفة الخطأ والصواب فيها لنظام صحة النفس .

وقد مضى بنا الكلام عن تأثير اختلال صحة الجسم في الفكر وما يجب الأخذ به في تدبير صحة البدن ونتكلم الآن عن تأثير اختلال صحة النفس في الفكر والجسم معاً وما الواجب أن تأخذ نفسك به في تدبير الصحة الروحانية فاعلم أن اختلال صحة الفكر مبعثه الخطأ في الحكم على حقائق الأشياء والغلط في تقديرها وضعف التمييز بين الصحيح والفساد وصحة التمييز وتوازن الفكر ومعرفة الأشياء في ذاتها مجردة عما يشوبها من الخطأ والوهم هو ما نسميه عقلاً وهو أحد الأركان الأربعة للفضيلة التي لا تنال السعادة بدونها .

وقبل أن ندخل في بيان حقائق الأشياء التي غلب عليها وهم الناس فاعتبروا الضر منها نافعاً والنافع ضاراً يلزم لنا الكلام عن هذه السعادة المطلوبة من الحياة وهذا الغرض الذي اشتغل به الفلاسفة منذ الدهر الأول وذهبوا فيه مذاهب شتى واختلفوا بينهم اختلافاً بيناً دعا إليه حب الجدل وميل كل واحد منهم إلى الانتصار لرأيه حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا للسعادة العظمى مائتين وتسعين وجهاً كل واحد منها يختلف عن الآخر . والرأيان الغالبان بين تلك الآراء المختلفة أحدهما أن سعادة الحياة هي ذات الفضيلة وأنه ينبغي للإنسان أن يسعى إليها بكل وسيلة سواء وصل إليها من طريق الألم أو من طريق اللذة وثانيهما أن السعادة العظمى هي في اللذة يبلغها الإنسان من طريق الفضيلة - هنا واسطة وهناك غاية - ومن تأمل في هذين الرأيين وجب عليه أن يأخذ بالأقرب منهما إلى الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية

إننا إذا تأملنا في أطوار كل ذى روح وجدناه يأنس إلى اللذة منذ نشأته في الوجود ويميل بطبعه إلى التمتع ويجدها خيراً عظيماً ثم هو ينفر من الألم ويتقيه ويسعى جهده في دفعه عنه ويراه من أكبر الشرور عليه . هذا في حالة صحة الحكم الذى فطرته عليه الطبيعة قبل اختلاط الفسك وفساده . ولا محل هنا لتعدد البراهين وطول الجدل فالأمر محسوس لانزاع فيه وما كان محسوساً لم يحتج إلى برهان والفرق ظاهر بين الاحتياج عند بيان الحقيقة إلى ترتيب المقدمات واستخراج النتائج وبين عدم الاحتياج لغير الشرح والوصف في بسطها والحس هو الحاكم الأول على الإنسان في جميع أحكامه فلو نزعناه عنه لم يبق لديه شئ من قوة الحكم ولم يدرك التمييز بين ما هو موافق للطبيعة وما هو مخالف لها .

واعلم أنه لا يوجد في العالم من يحتقر اللذة ويكرهها وينفر عنها لأنها لذة في ذاتها بل لأنه قد ينتج عنها الألم لمن لم يعدلها وبأخذ فيها بحسب أحكام الفضيلة كما أنها لا يوجد إنسان يحب الألم ويبعث عنه للوقوع فيه لكونه ألماً في ذاته بل لأنه قد ينتج عنه لذة . فترى الإنسان يحتمل كثيراً من الآلام لأجل أن يتوصل بها إلى نتيجة نافعة ، وأى الرجلين يكون في حكم العقل ملوماً ؟ أذلك الذى يبحث عن اللذة التى لا ضرر فى عاقبتها أم ذلك الذى يبحث عن الألم الذى لا تسكون فى عاقبته لذة ؟ لاشك أننا نلوم كل من غرته جاذبة اللذة الوقتية فعمى عما يلحقها من الآلام والأكدار التى تنتج للنفس عن استسلامها فى

قيادة الشهوات كما أننا نلوم أولئك الذين تذهب بهم رخاوتهم وتترفهم إلى إيتقاء الألم بإخلال القيام بالواجب عليهم . وشأن العاقل في اللذة أنه إذا كان حراً في تناوله لم يكن له ممانع عنها أن يتمتع بها ويتخلص من الآلام ولكن إذا اعترضه في هذه الأثناء واجب من الواجبات الاجتماعية وضرورة من ضروريات نظام المعاش وجب عليه أن يرفض لذته ويتقدم لتحمل التعب والألم فإن رفض اللذات العظيمة واحتمال الآلام الخفيفة لدفع الآلام الشديدة وهو ما يقضى به العقل على الإنسان ويكون عقله ميزاناً يزن به الراجح من المرجوح وليست اللذة هنا بالمعنى المشهور بين الناس بل هي ما يلائم الجسم والفس ويصل بهما إلى سعادة الحياة من طريق الفضيلة كما سيأتي الكلام في تنمة تعريفها .

— ٣ —

إن اللذة الكاملة التي نذشدّها من طريق الفضيلة ونجتهد في تعريفها لك ليست هي ذلك الإحساس الذي نحس به في أثناء سد الحاجة بل هي الحالة التي يكون عليها الجسم قبل حدوث الألم وبعد إزالة الألم فلا يقال للجائع وهو يلتقم طعامه لقمة بعد لقمة أنه قد بلغ اللذة وإنما يبلغها عند الانتهاء من الطعام لأنه في أثناء ذلك سائر في طريق رفع الألم لم يصل إلى غايته ولم يبلغها إلا بالشبع الذي يتناول الطعام لأجله فاللذة إذاً في تمام رفع الألم لا في مباشرة رفعه لأنها في مباشرة رفعه غير تامة واللذة التامة هي الراحة التي يجدها الجائع عند الشبع والعطشان عند الارتواء والمهران عقب المنام ولكن الناس بمعزل عن معرفة

قدر هذه اللذة التي هي سلامة الجسم من الألم والفس من الاضطراب
ومن جهلهم بما أنهم لا يدركون ما هم فيه من تلك الراحة إلا إذا زالت
عنهم ولا يتمتعون بها وهم فيها ولا يتوهمونها إلا في أثناء المسير إليها
فترى صاحب الجسم السليم من كل علة لا يدرك أنه في أعظم لذة من
الصحة إلا إذا حل به مرض من الأمراض يصرف عنه الحالة التي
كان عليها من الراحة فإذا تدرج في أدوار النقاهة من ذلك المرض
توهم فيها لذة وإنما حقيقة اللذة هي الرجوع إلى حالته الأولى التي كان
غافلاً عنها . وكذلك لا تكون الراحة للقييد في الحديد عند فك القيود
عنه بل عند ما يرجع جسمه إلى الحالة التي كان عليها قبل وضع رجله
في القيد وهذا الوهم من أكبر الأسباب التي سودت حياة الناس بالاحزان ،
وجعلتهم يعتبرون أنفسهم في شقاء وهم في نعيم ، ويرون أنفسهم في
نعيم وهم في شقاء غافلين عن نعمة تلك الراحة التي هي منتهى السعادة
والتي قيل فيها (ليس للراحة قيمة) فهي فوق كل قيمة في الدنيا .
فقد تقرر إذاً أن المسافة التي يغيب فيها الألم لا المسافة التي يرتفع
في أثناءها هي اللذة المقصودة لدى الحكماء . والعاقل لا يتمتع عليه أن
يدرك الراحة في حياته على كل حال ولو كان واقعاً في الألم فإن الألم
إن كان طويلاً المدة كان ذا فترات تكون فيها الراحة وإن كان شديداً
كان قصير المدة لسرعة الخلاص منه . فالذي يهون على نفسه تحمل
ملا بد منه من الآلام في هذه الحياة على موجب هذه القاعدة إما

بتحملها والتمتع براحة فتراتهما في حالة خفتها أو بترقب الخلاص منها
في حالة شدتها هو من يملك راحة الحياة وسعادة الدنيا .
وهذه الراحة هي التي يتعلق الإنسان بذات الفضيلة ولا يرغب
فيها إلا للوصول إليها كما أنه لا يتعلق بصناعة الطب لذات الطب بل
للتوصل به إلى الصحة التي تنشأ عنه كما أن صناعة الملاحة لا تطلب
لذاتها ولكن للارتفاع بها في السلامة . والحكمة التي هي صناعة الحياة
إذا لم يكن منها راحة للإنسان في حياته فهي غير مرغوب فيها ولا
مطلوبة لذاتها .

هذا هو تعريف اللذة الذي يخطئ الناس فيه ولا يدركون حقيقته
ولا وصول إليه إلا بالحكمة التي تكشف غطاء الأوهام وتمكن
الإنسان من الحكم الصحيح على أمور الحياة وتنزع عنه غشارة
الغباوة التي استحكمت فيه حتى صار يتخوف مما لا خوف منه ويحزن
مما لا حزن فيه وهي التي ترشده إلى تقليل الرغبات وترفع عنه الاعتماد
بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة المتولدة فيهم من جهلهم بالحقائق وتقليد هم
على العمى فتنتطفئ منه نار الطمع والشره التي أودت بالآفراد والجماعات
وبالأمم بما ولدته فيهم من الأحقاد والأضغان وما أسعرتهم من نيران
الفتن والحروب فجعلت الناس في ألم دائم لا يجدون منه مخلصاً . فالعاقل
هو الذي ينفى عنه أسباب الخوف ويقلل من الرغبات ويرضى
بالكفاف ويقصر همه على ما تقضى به الحاجة الضرورية أو الطبيعية
فلا يتولد فيه الشره والطمع الذي هو مجلبة الأحزان والآلام ومنبع

المخاوف والشرور وقد ألمّ بذلك أحد الشعراء في قوله :
 مرحباً بالكفاف يأتي عفيفاً وعلى المتعبات ذيل العفاء
 ضلة لامرئ يشمر في الجمع لعيش مشمر للفناء
 يحسب الحظ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
 ليس في أجل النعيم له حظ وما ذاق عاجل النعماء
 ذلك الخائب الشقي وإن كان يرى أنه من السعداء
 حسب ذي إربة ورأى جلي نظرت عينه بلا غلواء
 صحة الجسم والجوارح والعرض وإحراز مسكة الخرباء

وقد آن أن نبين غلط الناس في حكمهم على الأشياء واعتبارهم
 الخير منها شراً والشر خيراً. وأكبر خطأ لهم نراه خوفهم وفرقهم من
 الموت الذي هو رافع الأسقام وآخر الآلام فيعدونه أكبر الشرور
 وأعظم الخطوب وسيأتيك الكلام عما يماثل ذلك من حقائق الأشياء.

— ٤ —

ليس شيء من أمور الدنيا إلا وهو معرض للشك حتى قال بعض
 الفلاسفة (إن كل شيء يقبل الشك) حتى قولي هذا (إن كل شيء
 يقبل الشك) ومن بين الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون
 في كل شيء حتى في وجود ذواتهم ويعتبرون الحياة بما فيها كرؤيا
 في المنام .

ولكن مهما وقع الشك في أمور الحياة فإنه يوجد أمر واقع لا دخل

للشك فيه وهو الموت . ومن عجيب أمر الإنسان أن يعتبر ما يراه من أباطيل الحياة كالحقائق ويعتقد في ما للشك فيه بين واضح إلا الموت فكأنه يشك فيه .

والموت لا يخفى على أحد ممن ترى وكأنه يخفى ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم بالموت وكان من هم الفلاسفة كذلك تفكيرهم به وبسط الأقوال في بطلان الحياة وحقيقة الموت وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم قاعدة أجروها بينهم مجرى العادة إلى اليوم في وجوب تذكر الموت في كل حين فاذا ولد الطفل عندهم صنفوا له نعشاً ووضعوه بجانب المهد يحدونه في كل شهر على مقدار النمو في جسم الطفل ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا شب واشتد وضعوا النعش بجانب السرير إلى أن يتم نمو الفلام فيبقى النعش بجانبه حتى يحل يوم أجله فيحملوه عليه يرشدون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلا من متواصلان وأن الإنسان يمشي في هذه الدنيا وكأنه عابر جسر في طريق عن يمينه فيها الموت وعن شماله الحياة وأنه كما يدب بنموه في الحياة يدب بأنفاسه نحو الممات في آن واحد وأنه لا بد للعاقل أن يحضره ذكر الحياة وأن اليقين في أعواد النعش والشك في أساطين التنصر . فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء في أطنا البيت ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر . والناس ينقسمون بالنظر إلى ذكرى الموت ثلاثة

أقسام قسم لا يتذكر الموت ولا يأتي له خاطر ولا يلتفت إليه كأنه قد
رسخ في ذهنه أن لافناه مع البقاء ولا هلاك مع الوجود ولا يحس
بهذه الحقيقة أم الحقائق في الدنيا إلا عند المشاهدة والعيان ولا يذكر
إلا ريثما تنقضى عنه المشاهدة كأن يشتد به مرض فيتذكر الموت فإذا
قام من مرضه قام وهو لا يتذكر أثراً لتلك الحقيقة وإذا شاهد الموت
في أهله وجيرانه لم يبق ذكره إلا ريثما يطراً عليه شغل ما من مشاغل
الحياة فيعود إلى ذهوله الأول وعماه المستديم . وقد يظن بعض
الناس أن هذا الذهول راحة من التفكير في الموت الذي هو عندهم
شر من الشرور والحقيقة أن في هذه المسافات الوجيزة التي يتذكرها الذاهل
فيها الموت عند اشتداد المرض عليه أو عند موت أحد من أهله
وأصحابه من أنواع الجزع والفرع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلها
ويكون هذا التذكر لديه بمنزلة زلزلة تهدم في لحظة جميع ما بناه في رأسه
من الآمال وما زخره من الآمان أو هو نفخة الصور تذهب بلبه وربما
أثر ذلك في أعضائه وجوارحه فجعله ثانی صاحبه أو قريبه في القبر
وقد سمعنا من هذه الحوادث شيئاً كثيراً . ومن شدة ما يصيب أهل هذا
القسم من الفرع والوجل تراهم أكثر الناس حزناً عند فقد فقيد لهم
لا أسفاً عليه ولكن حزنهم على أنفسهم بتذكر الموت واهلهم من
أن يسرى عليهم ما يسرى على من بجانبهم وتجدهم أشد الناس اندهاشاً
واستغراباً إذا قلت لهم (مات فلان من أصحابكم) كأنك أخبرتهم
بأمر ليس من العادة وقوعه فهم يبادرونك بقولهم (وكيف مات) ؟

لا يستفهمون بذلك عن سبب الموت ولكن عن الموت نفسه ولو قلت لهم إن فلاناً طار في الجو لما وقعوا في الاستغراب وقوعهم فيه عند الخبر بموته . ومن رأيهم أنهم يعملون كل ما في الوسع لصرف أفكارهم عن ذكرى الموت ويدأبون في محو المذكرات به وأعرف صاحباً لي كان إذا قرأ (بابت سعاد) أغفل منها قول سعد فيها :

كل ابن أثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول
وأعرف آخر لا يمشي في جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة
ولا يبصر آلة من آلات الدفن أو الكفن إلا ويهرب ببصره عنها
ويستعيز بالله منها ، ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت حتى
لا تذكره جدرانته بخروج الميت منه . ولو أنك أهديت إحداهم صورة
منجممة من ذهب لبشع منها واستنكرها ولا أبالغ في بعضهم إن قلت
إنه ينبذها ويرفضها وربما عاداك لذلك وسخط عليك لا اعتقاده أنك
قصدت به سوءاً في تذكره بهذا الشر العظيم والأمر الفظيع حتى لقد
صارت تلك الجمجمة التي بقيت في محافل الماسون من آثار آبائهم
الأولين في وجوب تذكر الموت والتفكير فيه بين أيديهم اليوم آلة
من آلات الإرهاب والتخويف يتمحنون عليها شجاعة المنضمين إليهم
ولو بحثت في رأس الماسون الجديد عن أثر ما قاساه في ليلة دخوله
من تصنيعهم في التهويل والتخويف لم تجد باقياً منه في هذه الرأس إلا
تلك الجمجمة . وكان في مصر رجل عالم من أكبر العلماء كان يجيب من يدعوه
من الأمراء والكبراء لغسل من يمز عليهم موته تبركاً به فكان مع سعة

عليه ودمائة أخلاقه ونظافة ثيابه ورقة شمائله إذا دخل مجلساً ما من
مجالس العظماء انقبض الجميع وتسلسل الواحد في أثر الآخر وما ذاك
إلا من تخوفهم بأن يتذكروا ما كان يباشره أحياناً من القيام بغسل
الموتى . وأمامنا اليوم كبير في الكبراء قد تهدمت آبائه وأجداده الذين
يعيش في كنف مجدهم وشرف نسبتهم ويرى نفسه في منتهى السيادة
والشرف بالاتصال بحبل تلك الرفات فهو إلى اليوم يفزع ممن يذكره ببناء
المقبرة المنهدم ويستهل على نفسه أن يزور المقبرة يوماً لينظر في وجوه
ترميمها . ولضرب الأمثال في هذا الباب مجال متسع لا تستوعبه
الرسائل والكتب ويكفى للإنسان أن ينظر إلى من حوله في كل ساعة
من كل يوم فيرى الغريب العجيب من الشك في اليقين والارتباب
في الواقع . وسيأتي الكلام بعد عن القسمين الآخرين .

واعلم أن أهل القسم الثاني من الناس بالنسبة إلى ذكرى الموت
هم أولئك الذين تراهم يخشونه دواماً ويخافونه أبداً ويتولاهم الرعب
منه في كل حين وبتربون وقوعه في كل آن ويعتبرونه هازم للذات
ومقوض بناء السعادة . وأشد ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم
وانتقلوا إلى أوقات فراغهم وصفاتهم فيكدرون عليهم تلك اللحظات
التي يختلسونها من أيدي المشاغل اختلاساً ويسودون بياض عيشهم
بالتخويف الدائم من انتقاله والترقب لقرب زواله . وما أشد ما يكون

عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة بعد النعمة
من متاع الدنيا وزينة الحياة وكلها آتاهم الله فضلا ذهلوا عن التمتع به
ونسوا الشكر عليه فلا يبصر أحدهم ولده، إلا ويتغلب على فكره
التخوف من فقده والحذر من هلاكه أو الترحل قبله ولا يتمتع به،
ولا ينظر إلى ما اكتنزه من مال واقتناه من زخرف إلا نظر المغشى
عليه من كثرة ما يخشاه من حرمانه منه بالانصراف عنه وما عساه يكون
من حاله بعد زواله وانتقاله . لا يزالون هكذا في حال القلق والاضطراب
والجزع والفزع والرعب والكدر فتتقبض منهم النفوس وتطرق
الرؤوس وتسقط عليهم الهموم كسفاً من العذاب يتململون منه تملل
السليم ويئنون تحته أنين المصنف في القيود (مثلهم كمثل الذي استوقد
ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون،
صم بكم عني فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد
وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) .

وترى أهل هذا القسم الثاني الذين يذكرون الموت ويخافونه
ويحرصون على الحياة ويحبونها يقضون أوقاتهم اشتغالا بالتوقي من
الآخطار والتحرز من أسباب الهلاك ولا يكتفون في ذلك بما يدخل
في طوقهم الاحتراس منه بل ينصرف همهم إلى دفع ما لا دافع له من

الأقضية المحتمة والنوازل الطارئة والبلايا العامة كالطواعين والأوبئة
وأمرض العدوى وكالزلازل والصواعق والعواصف ومنهم من لا يركب
البحر خشية الغرق ولا يسافر في البر خوف مصادمة القطرات ومنهم
من يقوم من منامه مرة بعد مرة فيدور في أنحاء البيت كالعس يتفقد
أثاث الحجرات ورياشها ليطمئن عليها أن يتصل بها شيء من أسباب
الحريق فإذا أمن المسكين من ذلك كله واستغرق في نومه برهة من ليله
ورأى في الرؤيا أن أحد الأموات من أقاربه وأصحابه دنا منه أو سلم
عليه أو رحب به أو دعاه إليه قام من منامه في أشد آلام الفرع كالذي
يتخبطه الشيطان من المس لا يهدأ له بال ولا يستقر به قرار أينما وجه
وجهه ترقب وقوع الموت وحلول الأجل وتصديق الرؤيا ومن غريب
المتناقضات أنه مع هذا الترقب والتوجس الذي هم فيه إذا ذكرت في
مجالسهم اسم الموت أو تلوت عليهم (إنك ميت وإنهم ميتون) لووا
أعناقهم وتقلصت شفاههم وكادت تقف حركات قلوبهم من الكدر
والغيظ ونقموا عليك أنك ذكرتهم بما لا ينفلون عن ذكره ليلهم
ونهارهم . ويستبعدون الموت وينكرونه عليك فلا يكادون يصدقون
بموت الفجأة فإذا أخبرتهم بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون لذلك
العلل ويتمحلون الأسباب وينتحلون الهيت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة
لم تكن به وإذا أخبرتهم بموت شاب في غضارة عمره وغضاضة سنه
زادوه ماشاءوا من عدد السنين في عمره كما أولع الناس باخفاء حقيقة
أعمارهم والاجتهاد دائماً في تنقيص سنيها ليغشوا أنفسهم ويطرحوا

من فكرهم إمكان المفاجأة من هذا العدو الأحمر في حين الغرة وفي
مقتبل العمر وليطمئنوا على التراخي في الأجل .

أما سيرتهم وخطبهم في التحرز على أجسامهم والاحتراس على
أبدانهم في ليلهم ونهارهم أن يعترىها اعتلال أو يصيبها اختلال فهم
يتغالون في ذلك إلى حد يورثهم الوسواس والجنون فيحاذرون على
أنفسهم من هبوب النسيم وحرارة الضياء ويحرمون أنفسهم لذة الطعام
والشراب ويتوهمون في كل لقمة تخمة وفي كل جرعة غصة ويتخيرون
لهم أبواباً خاصة من الغذاء يضوى بها الجسم وتؤثر شدة الهواجس
والوسواس على أرواحهم فتنتهي بسوء التأثير على أجسامهم فتضعف .
وحينئذ يأخذون في استعمال الأدوية المختلفة لتقويتها فتزداد بها ضعفاً .
ولا يزالون على هذا التخوف والتحرس والتوهم وطول التداوى لغير
علة حتى ينتقل الوهم إلى الحقيقة وتحل بهم الأمراض التي أعدوا
أنفسهم لها وأدنوها نحوهم بأثر التخوف منها والمداومة على تناول تلك
الأدوية الشديدة التي تنهك قوى الجسم وتفسد المعدة وتخل نظام التركيب
فيستلهم الطبيب بجهله وطمعه فإذا لم تنته به براعته إلى إراحتهم بالموت
عاشوا عيشة كلها آلام وأوصاب إلى أن يقعوا في الموت من خوف
الموت ويذهبوا إلى حال سبيلهم لا هم تمتعوا بالحياة ولا هم نجوا من
الموت ولا تستبعد أيها القارئ أن أكثر هذا القسم يحدثون الأمراض
لأنفسهم بأنفسهم ويعجلون أيامهم بأيديهم فإن للوهم والخوف سلطاناً

على النفس والجسم لا يوازيه سلطان في العالم وله أعظم أثر في فساد
صحة الإنسان فيختل به نظام الجسم ويؤدي به إلى الهلاك ولذلك لا نرى
بدأ من إسهاب القول فيه وشرح أثره للانتباه إلى طرحه وإضعاف
سلطانه فإن في الإقامة عليه والاسترسال فيه شقاء الروح وسقم الجسم
ومنه تسيل ينابيع الأحزان والآكدار وتنفجر عيون الغموم
والهموم .

— ٧ —

تقدم بك القول في شدة تأثير الخوف والوهم وسوء فعله في النفس
والجسم وأنه إذا ألقى الإنسان قياده إليه ذهب به في وادي العذاب
يميناً وشمالاً وأنه إذا تملك النفس نشبت به في الجسم مخالب العلال
والأسقام حتى تودي به إلى الهلاك والفناء . وقد أجمع جلة العلماء من
أطباء العصر الحاضر بعد كشفهم وبحثهم على أن مجرد التخوف والتوهم
يحدث أمراضاً في البدن لم يكن لها من سبب سواه في الباطن والظاهر .
ولا محل هنا للشرح والبيان في أبحاثهم العلمية التشريحية وإنما نذكر من
ذلك ما يستشهدون به على قواعد العلم من براهين الحوادث والوقائع التي
شاهدوها بأعينهم ومارسوها بأنفسهم مما لا يقبل الشبهة ولا يدانيه الريب
فمن ذلك ما نذكره من مشاهداتهم .

بأشر أحد الأطباء تشريح ميت مات بداء الكلب فاعتراه من ذلك

تخوف شديد على نفسه من تعلق العدوى به وانتقال جراثيم المرض إليه واشتد به توهمه فأخل بنظام جسده فتولاه الأرق وفقد شهوة الطعام وانقبضت نفسه عن تناول كل سائل وعاف الشرب فكان إذا اشتد به العطش شرب الماء قسراً عنه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ثم اشتد به الحال فهام على وجهه في الطرق ضالاً محتبلاً من هول ما هو فيه . وأدرك بعض أصحابه من أهل صناعته حقيقة حالته وأن بلاءه هو من أثر الخوف والوهم وسوء التصور فأعملوا جهدهم في تخفيف ما به وصحبوه أياماً لم يفارقوه فيها وما زالوا به حتى أقنعوه بأنه سليم الجسم من تلك العدوى وأن ما به هو من عمل التخوف والتوهم فأخذ ينسى بفضلهم تلك الفكرة القائمة به فزالت عنه تلك الحالة المعترضة وشفى منها شفاءً تاماً .

ومن الأمور المقررة التي لا يكاد يأنس لها التصور أن مجرد الخوف على ما اجتمعت عليه أقوال الأطباء يولد في الجسم أعراضاً هي أعراض داء الكلب بذاتها حتى اعتقد أحد مشهورهم أن الخوف هو سبب الكلب وليس سببه عقر الكلاب ولعابها . ومارواه بعضهم أن كلباً مسعراً عقر أخوين وكان أحدهما على أهبة السفر في يومه إلى أمريكا فسافر إليها وغاب خبره عن أهله مدة طويلة فلما عاد إليهم بعد عشرين سنة غفل أحدهم فأخبره بأن أخاه مات من أثر عض الكلب فوقع تأثير ذلك عليه كالصاعقة ورقد مريضاً وظهرت

أعراض داء الكلب في أقصى حدتها ولم يزل كذلك حتى مات .

وكتب الأطباء مشحونة بكثير من مثل هذه الحوادث شاهدة بأن الجانب الأعظم ممن يصابون بداء الكلب لم تكن إصابتهم ناشئة إلا من إخبار من أخبرهم بأن الكلب الذي عضهم كان مسعراً ولا يمكن للطبيب أن يميز بين الإصابة بالكلب الناشئة عن الوسواس والإصابة الناشئة عن عدوى الداء . وكم من مرة أنقذ فيها الأطباء كثيراً من الناس وهم على شفاة الموت بحسن مهارتهم في تسلط نفوسهم على نفوس المرضى وتمكنهم من إقناعهم وإزاحة غمة الوسوسة والتخوف من رؤوسهم . وقد دعى أحد الأطباء لمعالجة أحد المصابين بالكلب بعد أن يئس من شفائه جميع رفقاته فأخذ يفحصه فحصاً دقيقاً ثم مال عليه بعد ذلك ولثم فيه ليحقق له خلوه من ذلك المرض فما لبث المريض أن شفى من أثر تلك القبلة التي اعتقد بها أن الطبيب لم يقبله إياها إلا وهو آمن على نفسه من وجود ذلك المرض واتصال عدواه به (١) .

وبالجملة فإن أثر التخوف والوهم على النفس من أشد ما يقاسيه الإنسان من أنواع الآلام في نفسه . ويمكن لكل إنسان أن يبعده عنه بقليل من التثبت وسلامه الإقناع والتباعد بالفكر عن التدرج

(١) حذف هنا حكايات لا تخرج في معناها عن هذه الحكاية .

في الهواجس وتحكيم سلطان الخيالات الباطلة عليه . ومن سلم قيادة
فكره إلى الأوهام والخيالات فسدت عليه عيشته وعاش في ما لا يوصف
من الآلام والآكدار يرى الموت في كل لفتة . والحشف في
كل لحظة .

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه

فهرس

صفحة	صفحة
١٦ شعر فيكتور هيجو لحافظ	٢ هدية الكتاب
إبراهيم « مع ترجمته »	٣ مقدمة الكتاب
١٧ ديوان الفريد دي موسيه	١٠ باب الفصاحة والبيان
لخليل مطران « مع ترجمته »	— (قسم المظوم)
١٨ (قسم المنشور)	— قوة الحجة لأعرابي
— صناعة الإنشاء لابن المعتز	١١ تهذيب الشعر لعدي بن
« مع ترجمته »	الرقاع « مع ترجمته »
٢٠ الإرتاج لأحمد الأمراء	— وصف القلم لأبي تمام
العباسيين	« مع ترجمته »
٢١ فصاحة رسول الله للجاحظ	١٣ تهذيب الشعر للبحري
« مع ترجمته »	« مع ترجمته »
٢٢ فضل البيان للجاحظ أيضاً	١٤ سحر البيان لأبي تمام
٢٣ مقامات الكلام لبعض الكتاب	« مع ترجمته »
المتقدمين	— وصف قصيدة لابن الرومي
٢٤ الأديب غير الكاتب للمبرد	« مع ترجمته »
« مع ترجمته »	١٥ سيرورة الشعر للمتنبى
٢٥ الفصاحة في الأسلوب لأبي هلال	« مع ترجمته »
العسكري « مع ترجمته »	— سهولة الشعر لبشار بن برد
	« مع ترجمته »

صفحة	صفحة
٧٦ اللغة والعصر للشيخ إبراهيم اليازجي « مع ترجمته »	٢٦ دعوى الأدب للأمدى « مع ترجمته »
٩٥ وصف شعر شكسبير تعريب محمد السباعي « مع ترجمته »	٣٠ مناظرة بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى للأمدى أيضاً
٩٧ الشعر لمصطفى الرافعي « مع ترجمته »	٣٧ فتنة القول للجاحظ — فصاحة جعفر بن يحيى لبعض الكتاب المتقدمين
١٠٦ ماهية اللغة لسعادة أحمد فتحي باشا زغالول « مع ترجمته »	٣٨ حقيقة البيان لبعض الكتاب المتقدمين
١١٥ حقيقة الشعر للأمر شبيب أرسلان « مع ترجمته »	٣٩ فصاحة القرآن للباقلاني « مع ترجمته »
١٢٠ مقابلة بين الشعر العربي والإفرنجي لنجيب الحداد « مع ترجمته »	٤٣ إعجاز القرآن للقاضي عياض « مع ترجمته »
١٣٩ نقد ديوان شوقي لمحمد بك المويلحي « مع ترجمته »	٤٥ الشعراء المحدثون
١٦٠ البيان لأحد الأدباء المعاصرين الموازنة بين الشعراء للشيخ محمد المهدي « مع ترجمته »	٤٧ نظرات المنفلوطي لأحمد لطفي بك السيد « مع ترجمته »
١٦٨ ضرورة التعريب للشيخ محمد الحضري « مع ترجمته »	٤٩ الشعر لأحد الأدباء المعاصرين
	٥٩ كلمة في التعريب لحافظ إبراهيم
	٦٥ الشعراء المعاصرون لخليل مطران

صفحة

- ٢٩٦ السعادة لبعض الشعراء
المتقدمين
— كرم الضيافة لبعض الشعراء
المتقدمين
٢٠٧ التجـلد لبعض الشعراء
المتقدمين
— القناعة للعتابي «مع ترجمته»
٢٠٨ مكارم الأخلاق لبعض
الشعراء المتقدمين
٢٠٩ الصنع والإغضاء للشريف
الرضي
«مع ترجمته»
٢١٠ أدب الحديث لأبي تمام
٢١١ الرياء لابن الرومي
— العفة لليلي الأخيلية
«مع ترجمتها»
٢١٢ القناعة لابن الرومي
— القناعة لبعض الشعراء
المتقدمين
٢١٣ حب البنين لبعض الشعراء
المتقدمين
— كتمان السر لمسكين الدارمي
«مع ترجمته»

صفحة

- ١٧٧ أدوار الشعر العربي لأحد
الأدباء المعاصرين
— ١٨٠ وصف كتاب النظرات
لحافظ إبراهيم
١٨١ الإنشاء والعصر لإبراهيم بك
المويلحي «مع ترجمته»
١٨٨ نقد الدرة اليتيمة للشيخ
إبراهيم اليازجي
١٩٦* جوهر الشعر لإبراهيم بك
المويلحي
* ٢٠٠ وصف نهج البلاغة للشيخ
محمد عبده «مع ترجمته»
٢٠٣ باب الأدب والحكمة
— (قسم المنظوم)
— الكرم لحاتم الطائي
«مع ترجمته»
— الإيثار لحاتم الطائي أيضاً
٢٠٤ ذم الغيبة لكعب بن زهير
«مع ترجمته»
— ذم الغيرة لبعض الشعراء
المتقدمين
٢٠٥ فضل الأناة للقنطاري
«مع ترجمته»

صفحة	صفحة
٢٢٦ تحين الفرصة لأبي العتاهية	٢١٤ الشورى لبشار بن برد
— الإباء لبعض الشعراء المحدثين	٢١٥ المغفرة لأبي العتاهية
— الحب المعتدل للشريف الرضى	« مع ترجمته »
٢٢٦ عزة النفس لبعض الشعراء	— اكرام النفس لابن مطير
المتقدمين	« مع ترجمته »
٢٢٧ كلمات لمحمود باشا سامى	٢١٦ السعادة النفسية لبشار
البارودى « مع ترجمته »	— الحرية لأبى تمام
٢٢٨ شرور العالم لأحمد شوقى	— عاقبة الجهالة لأبى نواس
بك « مع ترجمته »	« مع ترجمته »
— كلمات لاسماعيل باشا صبرى	٢١٧ الصداقة الكاذبة لأبى تمام
« مع ترجمته »	— الثقة لبعض الشعراء المحدثين
٢٢٩ سجن الفضيلة لحافظ إبراهيم	— مكارم الأخلاق للشريف
٢٣٠ (قسم المنشور)	الرضى
— وصايا حكيمية من أعرابية	٢١٨ القناعة لأبى تمام
لوالدها	— الصديق لأبى العتاهية
٢٣١ أدب الزوجة الأعرابية توصى	— كلمات فى الحكمة للمعري
ابنتها ليلة البناء بها	« مع ترجمته »
٢٣٢ كلمات فى الأخلاق لعلى بن	٢٢٤ الحلم لبعض الشعراء المتقدمين
أبى طالب « مع ترجمته »	— ألم الموت للمتنبى
٢٣٤ أدب الخاشية لأحد الأمراء	٢٢٥ حب الحياة للمتنبى أيضا
العباسيين	— الشجاعة للمتنبى أيضا
	— الأشرار حرب الأخيار لبعض
	الشعراء المتقدمين

صفحة	صفحة
٢٤٧	٢٣٥
الاقتصاد للبديع الحمداني	كلمات في الآداب لابن المقفع
« مع ترجمته »	« مع ترجمته »
٢٤٩	٢٤٦
أيها المحزون لمحمد بك	أدب التربية لهارون
المويلحي	الرشيد

تتمتع

تتمتع

تتمتع

٥٧٦ وفقدان لآباء كآثر في القلوب

٧٥٦ في النظم والخطب على

« مع ترجمته »

٧٥٧ في النظم والخطب

٥٧٧ في النظم والخطب

٧٥٨ في النظم والخطب

٥٧٨ في النظم والخطب

٧٥٩ في النظم والخطب

٥٧٩ في النظم والخطب

٧٦٠ في النظم والخطب

٥٨٠ في النظم والخطب

٧٦١ في النظم والخطب

٥٨١ في النظم والخطب

٧٦٢ في النظم والخطب

٥٨٢ في النظم والخطب

٧٦٣ في النظم والخطب

٥٨٣ في النظم والخطب

٧٦٤ في النظم والخطب

٥٨٤ في النظم والخطب

٧٦٥ في النظم والخطب

٥٨٥ في النظم والخطب

٧٦٦ في النظم والخطب

٥٨٦ في النظم والخطب

٧٦٧ في النظم والخطب

٥٨٧ في النظم والخطب

٧٦٨ في النظم والخطب

٥٨٨ في النظم والخطب

٧٦٩ في النظم والخطب

٥٨٩ في النظم والخطب

٧٧٠ في النظم والخطب

٥٩٠ في النظم والخطب

٧٧١ في النظم والخطب

٥٩١ في النظم والخطب

٧٧٢ في النظم والخطب

٥٩٢ في النظم والخطب

٧٧٣ في النظم والخطب

٥٩٣ في النظم والخطب

٧٧٤ في النظم والخطب

٥٩٤ في النظم والخطب

٧٧٥ في النظم والخطب

٥٩٥ في النظم والخطب

٧٧٦ في النظم والخطب

٥٩٦ في النظم والخطب

٧٧٧ في النظم والخطب

٥٩٧ في النظم والخطب

٧٧٨ في النظم والخطب

٥٩٨ في النظم والخطب

٧٧٩ في النظم والخطب

٥٩٩ في النظم والخطب

٧٨٠ في النظم والخطب

٦٠٠ في النظم والخطب

٧٨١ في النظم والخطب

AUC - LIBRARY



DATE DUE

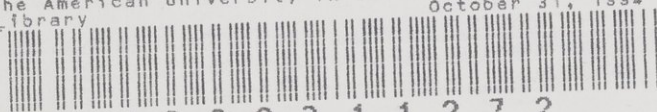
 A.U.C. 20 NOV 1994	
 A.U.C. 17 DEC 1994	

1954

MAR

b. 12465409
i. 13822482

The American University in Cairo October 31, 1994
Library



0 0 0 0 0 3 1 1 2 7 2

